صلاح عبد القادر البكري





الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
جدة - المملكة العربية السعودية



بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر

تهامة

جدة - المملكة العربية السعودية

ص.ب : ٥٤٥٥ - هاتف : ٦٤٤٤٤٤٤



مقدمة

ليس هذا الكتاب دراسة موضوعية ·· إنه لايستهدف عرضاً لمنجزات ومعطيات سجّلها التاريخ لشعوب وأمم ، وإنما هو ـ الى جانب ذلك ـ عرض لقضية على جانب عظيم من الأهمية تلك هى قضية الإسلام ·

إن الإنسان ليمر اليوم بأزمة عنيفة عارمة ، والمجتمعات فى الغرب والشرق على اختلاف اديانها ولغاتها وتقاليدها وتباين اتجاهاتها السياسية حافلة بالمشكلات الاجتماعية والأخلاقية على الرغم من بلوغها الذروة فى التقدم والحضارة ، وقوة الآلة ـ إله الماركسيين ومن على شاكلتهم ـ تزداد عاما بعد عام ، والإنسان حيالها ضعيف يظهر بمظهر الخادم الذليل لذلك العملاق الفولاذى الرهيب الذى أجبر النساء والفتيات على هجر العمل المنزلى والتعرض لفتنة حياة مكشوفة مليئة بالإغراء الجنسى · وإننا لنحزن كل الحزن حين نشاهد تلك الوجوه الناعمة ، وجوه الفتيات الذاويات الذابلات ووجوه الصبية المراهقين ·

لقد نجح الإنسان فى التغلب على الطبيعة وتسخيرها لمآربه عن طريق العلم والصناعة فأخذته العزة ، عزة الاختراع وكبرياء الإبداع ، ولكن ·· على حساب ماذا ؟ على حساب من ؟ على حساب المثل العليا ·· على حساب الإنسان نفسه ·

لقد أصيبت القيم الدينية بالتمزق ، وظهر عصر الأخلاق اللاخلاق ، عصر أدب الفضيحة والاستهتار ، أدب الابتكار الوجودى المحموم ·

لقد ظهرت الشيوعية هذا العدو اللدود للأديان ، وظهرت القاديانية والماسونية وانتشر الإلحاد فى كل مكان وعم الفساد فى البر والبحر ·

وبرزت الصهيونية أخطر الأعداء ، وأكثرهم تخريبا وتدميرا ·

وأخذ تيار التبشير المسيحى يجتاح بقاعاً كثيرة من العالم وخاصة فى قارة أفريقيا والشرق الأقصى مكتسحا أمامه جموعا غفيرة من أبناء الإسلام وقد ازداد فى السنين

الأخيرة حركة ونشاطاً طولا وعرضا وعمقا تمده بالأموال والدعاة هيئات وجمعيات فى أوربا وأمريكا ٠

كل هؤلاء معاول هدامة تحيط بالإسلام والمسلمين من كل جانب وتتربص بهم الدوائر ، إنه تآمر علنى تتشارك فيه القوى العالمية الشهيرة ٠

والمسلمون خامدون هامدون كأن فى آذانهم وقرا وفى عيونهم غشاوة ، ولعلهم نسوا أن الجهاد فى الإسلام جهاد فى سبيل الله ، جهاد لتقرير ألوهية الله فى الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لسلطان الله ، جهاد لتحرير (الإنسان) من العبودية لغير الله ، ومن فتنته بالقوة عن الدينونة لله وحده والانطلاق من العبودية للعباد ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ ٠ « ٣٩ الأنفال »

إنه ليس جهادا لاحتلال بلاد واستعباد شعب ، إنما هو جهاد لتغليب منهج الله على مناهج العبيد ، وليس جهادا لإقامة مملكة لعبد ، إنما هو جهاد لإقامة مملكة الله فى الأرض ، ومن ثم ينبغى للدعاة أن ينطلقوا فى (الأرض) كلها لتحرير (الإنسان) كله ٠

لقد سلك معظم الكتاب الذين تصدوا للدفاع عن الإسلام نهجا فلسفيا يعتمد كل الاعتماد على عرض النصوص والأدلة من القرآن والسنة ٠ وهذه الطريقة تفيد ٠ ـ لاشك ـ أولئك المؤمنين بالكتاب والسنة ، أما المنحرفون وأتباع المذاهب الهدامة كالشيوعية والقاديانية والماسونية وغير هؤلاء من الملحدين من المسلمين ومن غير المسلمين فلا تنفعهم الحشود من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ولاتؤثر فيهم أقوال الصحابة والتابعين ، ولا آراء الأفذاذ من علماء الشافعية والمالكية والحنبلية والحنفية ٠٠ هؤلاء يجب أن يسلك الدعاة معهم نفس الطريقة العلمية التى يسلكها العلماء الملحدون ، يجب أن توجه إليهم الدعوة إلى حقائق الإسلام بالطريقة العلمية ٠

وأنا فى كتابى الصغير هذا حاولت ـ فى نطاق مالدى من علم بسيط ـ أن أسلك الطريقة العلمية لإثبات أن فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان أكبر وأرحب من أية فكرة عرفتها البشرية حتى اليوم فى تنظيم العالم كوحدة إنسانية ، وأعظم قابلية للنمو والازدهار ، وأكثر قدرة على التوفيق والتنسيق بين قوى الحياة وطاقات الإنسان وحاجات البشرية على وجه العموم ، وأن النظام الاجتماعى المستمد من هذه الفكرة المنبعث تلقائيا من مجرد استقرارها فى الضمير البشرى ، هو أعدل النظم وأكثرها توازنا ومراعاة للفطرة وإطلاقا للقوى والطاقات الصالحة لتعمل على إنماء الحياة وترقية الحياة ٠

وبعد ·· إن جدية المعركة وخطورتها لتتطلب من المسلمين أن يتحركوا ويعملوا ·· ألا يقفوا مكتوفى الأيدى إزاء مايرون من تآمر علنى تتشارك فيه قوى الشيوعية والصهيونية والقاديانية والماسونية وتيارات الإلحاد والتهتك والانحلال ·

إن الايمان الحق إنما يتمثل فى أولئك الذين يعملون ويجاهدون فى سبيل الله ولخير البشرية كلها ·· الجهاد هو الوجود الحقيقى لهذا الدين · إنه لاتوجد حقيقة بمجرد اعتناق القاعدة النظرية ، ولاحتى بمجرد القيام بالشعائر التعبدية فيها · إن الإسلام منهج حياة لايتمثل فى وجود فعلى ، إلا إذا تمثل فى تجمع حركى ·· أما وجوده فى صورة عقيدة فهو وجود حكمى لايصبح (حقا) حين يتمثل فى تلك الصورة الحركية الواقعية ·

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ صدق الله العظيم ·

إن أية عقيدة أو فكرة فى الأرض إنما تحيا وتعمل وتؤثر بمقدار ما تحمل من قوة كامنة وهذه القوة تتوقف على مقدار مافيها من (الحق) وعقيدة الإسلام تتوقف على الحق كل الحق ·· إنها تتوافق مع القاعدة التى أقام الله عليها الكون ، ومع سنن الله التى تعمل فى هذا الكون فليس من شك فى أن الله سبحانه يمنحها القوة والسلطان الحقيقيين الفاعلين المؤثرين فى هذا الوجود ·

أما الشيوعية ، أما الصهيونية ، أما القاديانية وما إلى ذلك من المبادىء الهدامة فهى عقيدة باطلة واهية مهما بدا فيها من قوة والتماع ، ومهما ظهر فيها من تمدد وانتفاش ·

والله غالب على أمره ·· وهذه الانتكاسات الجاهلية فى حياة البشرية لن يكتب لها البقاء ، وسيكون مايريده الله حتما ·· وستحاول البشرية ذات يوم أن تقيم تجمعاتها على القاعدة التى كرم الله الإنسان بها ، والتى تجمع عليها المسلمون فى فجر الإسلام فكان لهم تفردهم التاريخى السامق الزاهر وستبقى صورة هذا المجتمع تلوح على الأفق ، تتطلع إليها البشرية وهى تحاول مرة أخرى ان ترقى فى الطريق الصاعد إلى ذاك المرتقى السامق الشامخ الذى بلغت إليه فى يوم من الأيام ·

المؤلف



هذا الكون

بعد بحوث شاقة ومشاهدات لظواهر الكون الفسيح العظيم توصل العلماء فى العصر الحديث إلى أن هذا الكون يتكون من مادة هامدة ساكنة وكانت فى صورة غاز ساخن متماسك كثيف •

ومنذ عصور واغلة فى القدم ، حدث انفجار شديد فى هذه المادة فتناثرت فى الفضاء ، فتمددت الغازات ، وفقدت أثناء تمددها حرارتها ، وتباعدت أطرافها فى الفضاء ، فقلت جاذبيتها •

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ « ٣٠ الأنبياء »

وهذه الأرض التى من تربتها وهوائها خرجت أجسامنا هى جزء من الشمس انفصل عنها منذ بلايين السنين نتيجة صدام عنيف بين الشمس وكوكب آخر •

ومنذ ذلك الزمان أخذ هذا الجزء يدور فى الفضاء شعلة من نار وحرارتها نفس حرارة الشمس • وبدأ هذا الجزء أو هذه الأرض تبرد إذ لايمكن اتصال الاكسجين بالهيدروجين إلا بعد أن تنخفض درجة الحرارة إلى أربعة آلاف فهرنهيت •• وفى هذه المرحلة وجد الماء •

ومرت ملايين السنين وعمليات التغير والتحول تتوالى على سطح الأرض حتى صارت فى صورتها الحالية • ويقول علماء الجغرافية الحديثة : إن جميع القارات كانت أجزاء متماسكة متصلة ثم انشقت وأخذت تنتشر وتتباعد عن بعضها فتكونت البحار بينها •

ومن الأدلة القاطعة على ذلك وجود نباتات ودواب وأسماك متماثلة فى مختلف القارات كما نجد جبالا متماثلة عمرها الجيولوجى واحد

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ ﴾ « ٣٠ - ٣١ النازعات » •

وأثبت العلم الحديث أن الارتفاعات والانخفاضات عاملان هامان للحفاظ على توازن الأرض ٠

والقرآن الكريم أثبت هذه النظرية منذ أربعة عشر قرنا ٠

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ « ١٠ ـ لقمان » ٠

وهذه الأرض وغيرها من الكواكب والنجوم قائمة فى الفضاء بغير أعمدة مرئية تحملها ٠

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ « ٢ الرعد » ٠

هذه الأرض التى تحمل بلايين من البشر وتنوء بالجبال الصخرية والجليدية ، وتحتضن المحيطات والبحار والأنهار ويتدفق من جوفها لهيب البراكين ليست فى حقيقتها إلا مجرد ذرة تراب معلقة فى الفضاء إذا ماقورنت بجبابرة المجموعة الشمسية ٠

ولقد تم كشف الكثير من أسرار الأرض بعد غزو الفضاء من هذه الأسرار هذه الكواكب التى تعتبر قريبة من أرضنا تبعد عنها عشرات الملايين من الكيلومترات ٠ وعلى سبيل المثال هذا الكوكب (فينوس) فإنه لايستطيع الاقتراب من الأرض إلا بمسافة تزيد عن ٤٢ مليون كيلو متر ٠

وفى الوقت الذى كشفت فيه الأسرار عن خارج الأرض فان مافى باطنها لايزال يحمل الكثير من الغموض وفيه أيضا هلاك للبشرية وتظهر آثاره من حين لآخر ٠ فالأرض معرضة للهزات العنيفة التى تفجر أنهاراً من اللهب فتلتهم كل ماتمر به بلا رحمة أو شفقة ٠ صحيح أن الزلازل والبراكين لاتتصدر قائمة الكوارث الطبيعية ولكن كل وسائل التنبؤ بها لم تصل بعد إلى الكفاءة المرجوة والدليل على ذلك الزلازل التى اجتاحت الصين عام ١٩٧٦م وراح ضحيتها٧٠٠,٠٠٠ نفس ٠

والمسافة بين الشمس وبين الأرض تبلغ مايقرب من ٩٣,٠٠٠,٠٠٠ ميل ٠ وهذا البون الهائل الدائم لايتغير أبداً بزيادة أو نقص ، وفى ذلك عبرة لنا لأنه لو نقص ، واقتربت الشمس من الأرض ، بمقدار النصف ، مثلا ، من الفاصل الحالى ، فسوف يحترق الورق على الفور من حرارتها ، ولو بَعُدَ هذا الفاصل ، فصار ضعف ماهو عليه الآن فان البرودة الشديدة التى تنجم عن هذا البعد ، سوف تقضى على الحياة فى الأرض ٠

ثم إن هذه الأرض تدور حول الشمس مرة فى العام وهى تؤدى عملها بزاوية ٢٣ درجة ، الأمر الذى ينشأ عنه الفصول الأربعة ويترتب على ذلك صلاحية أكثر مناطق الأرض للزراعة والسكنى ، فلو لم تكن الأرض على هذه الزاوية لغمر الظلام القطبين طول السنة ، ولسار بخار البحار شمالا وجنوبا ، ولما بقى على الأرض غير جبال الثلج ، وفيافى الصحراوات ، وهكذا تنجم مؤثرات كثيرة تجعل الحياة على ظهر الأرض مستحيلة ٠

وتتم الأرض دورة واحدة حول محورها ، فى كل أربع وعشرين ساعة ، ومعنى ذلك أنها تسير حول نفسها بسرعة ألف ميل فى الساعة ، فإذا فرضنا أن هذه السرعة انخفضت إلى مائتى ميل فى الساعة ، لطالت أوقات ليلنا ونهارنا عشر مرات ، بالنسبة إلى ماهى عليه الآن ، ويترتب على ذلك أن تحرق الشمس ـ بشدة حرارتها ـ كل شىء فوق الأرض ، ومابقى بعد ذلك ستقضى عليه البرودة الشديدة فى الليل ٠

وسمك قشرة الأرض ساعد كثيرا على وجود الحياة ، ولو كانت هذه القشرة أكثر سمكا بمقدار عشرة أقدام من سمكها الحالى لامتصت القشرة الأرضية الأكسجين وبدونه تستحيل الحياة ٠

كذلك لو كانت البحار أعمق بضعة أقدام أكثر من عمقها الحالى لانجذب ثانى أكسيد الكربون والأكسجين ، ولاستحال وجود النباتات على الأرض فضلا عن الحياة ٠

والأرض محاطة بغلاف هوائى ، ولو كان هذا الغلاف ألطف مما هو عليه الآن ، لاخترقت النيازك كل يوم غلاف الأرض الخارجى ، ولسقطت على بقاع كثيرة من الأرض وأحرقتها ، فهذه النيازك تواصل رحلتها بسرعة أربعين ميلا فى الثانية ونتيجة لهذه السرعة العظيمة فإنها ستحرق كل شىء قابل للاحتراق ٠

وتستقبل الأرض من هذه النيازك على اختلاف أحجامها مايقرب من خمسة أطنان من مواد هذه النيازك أو الأجسام ولحسن الحظ أن أغلب هذه الأجسام من الأتربة بالإضافة إلى مايتساقط فى المحيطات والقطبين والجبال والصحراء ولايعلم عنها شىء ، ومع ذلك تم رصد عدد من أجسام الفضاء الكبيرة ارتطمت بالأرض وتركت آثارا واضحة أشهرها التى فى سيبيريا عام ١٩٠٨ والتهمت غابة من الأرز تمتد فوق عدة كيلومترات ونشرت موادها فى خمسين بقعة لاتزال باقية حتى اليوم ٠ وفى نوفمبر من عام ١٤٩٢ سقط جسم من الفضاء فى الالزاس أمام الامبراطور، وهو على رأس جيشه وكانت كتلة من الحجر زنتها ١٥٥كيلو جرام ٠ وليس من شك أن هذا يؤكد أن الفضاء الذى يحيط بكوكبنا ليس بفارغ ، ولكن فى

داخل الأسرة التى تمثل المجموعة الشمسية تبدو الأرض فى الفضاء وكأنها ذرة تراب لايمكن لأحد ـ إن وجد ـ فى كواكب أخرى ان يعلم عنها شيئا لضآلتها ٠

الأكسجين والهيدروجين وثانى اكسيد الكربون وغازات الكربون الأخرى على اختلاف أنواعها تتركب معا بنسب معينة فتصبح عناصر عظيمة الأهمية للحياة الحيوانية وللأسس التى تقوم عليها الحياة الإنسانية ٠ فهل يمكن القول بأن هذا النظام الرائع فى الطبيعة حدث (اتفاقا) ؟؟ وهل يحتمل أن تجتمع تلك الغازات فى تناسبها المطلوب ، وبجميع خصائصها ومزاياها اللازمة للحياة بطريق الصدفة ؟؟

من المعروف أن كثافة الثلج تقل كثيرا عن كثافة الماء ، ولهذا الأمر قيمة عظيمة بالنسبة إلى الحياة ، إذ يترتب على هذه الخاصة أن الثلج يطفو على سطح الماء ، ولولا ذلك لكان الماء كله قد تجمد فى البحار والأنهار والخزانات ، فالثلج يساعد على بقاء حرارة الماء الذى تحته فلايتجمد ، ويترتب على هذا إبقاء الأسماك وغيرها من الحيوانات المائية على قيد الحياة ، فإذا جاء فصل الربيع ذاب الثلج ، ولولا خاصة الثلج هذه لعانى سكان الإسكيمو وغيرهم من سكان البلاد الباردة الكثير من المتاعب والمشقات ٠ فهل يمكن ان يكون هذا القانون قد حدث دون تخطيط واعٍ حكيم ، والقمر وهو يبعد عنا ٢٤٠,٠٠٠ ميل يدور حول الأرض ، ويكمل دورته هذه فى تسعة وعشرين يوما ونصف يوم ٠ وهناك مع كوكبنا الأرضى توجد تسعة كواكب تدور حول الشمس ، وحول هذه الكواكب يدور واحد وثلاثون قمرا ، وتوجد غير هذه الكواكب ثلاثون ألفا من النجيمات ، وآلاف من النجوم ذوات الأذناب وشهب لاحصر لها ، وكلها تدور حول ذلك السيار العملاق الذى نسميه الشمس ٠

وهناك مجرات النجوم يتداخل بعضها فى بعض دون أن يحدث تصادم على الرغم من أن بعضها تشتعل وأخرى قابلة للاشتعال ٠

الشمس والقمر والكواكب والنجوم الكبيرة منها والصغيرة تدور بنظام رائع لايحدث أى تغيير فى دورانها ، ولايطرأ عليها أى تصادم ٠

فهل يمكن أن يكون هذا النظام الدقيق الرائع نتيجة صدفة ؟ أيمكن أن نقول : إن هذه الكواكب بنظامها العجيب وأسرارها الدقيقة قد خلقته قوة عمياء ؟ أيمكن أن نقول : إن المادة قد نظمت ذاتها على تلك الهيئة كما يزعم الملاحدة وعلى رأسهم (هيجل) وغيره من الفلاسفة الذريين ؟؟

إن العقل السليم حين ينظر إلى هذا الكون وإلى هذا النظام الرائع الذى اشتمل عليه لايلبث أن يحكم باستحالة أن يكون كله قائما بنفسه بلا صانعٍ ولا راعٍ ولاهادٍ ، فلابد أن تكون هناك قوة غير عادية صنعته ونظمته على تلك الهيئة المنسقة تنسيقا بديعا · إن هذا الكون ونظامه البديع يدعونا إلى الإيمان بخالق هذا العالم العظيم البديع ·

يعترى الإنسان الذهول حين يجد ان مكالمة من لندن إلى طوكيو تتم فى بضع ثوان ، ولكن هذا الذهول يتضاءل حين يفكر فى نفسه ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ حين ينظر إلى المخ هذا العضو العظيم ، إن تركيبه ونظامه أدق وأوسع من النظام المعقد لأسلاك التليفون إذ يشتمل هذا المخ على ألف مليون خلية عصبية تخرج منها أسلاك أدق وأشد تعقيدا من أسلاك التليفون تسمى (الأنسجة العصبية) يجرى فيها نظام استقبال وإرسال الأخبار بسرعة سبعين ميلا فى الساعة · وليس هذا فقط فبواسطة الأنسجة العصبية ومايتفرع منها من شعيرات ترى وتسمع وتحس وتتذوق وتباشر جميع أعمالنا بوعى تام ·

وفى الأذن عشرة آلاف خلية سمعية بواسطتها يسمع ، وفى العين مائة وثلاثون مليونا من الخلايا الملتقطة للضوء وهى تقوم بمهمة إرسال المجموعة التصويرية إلى المخ · ومن عين الإنسان استمد العلماء اختراع آلة التصوير ، فعدسة الكاميرا هى كالشبكة الخارجية للعين ، والحجاب الحاجز هو قزحية العين والفيلم هو شاشة العين التى توجد بها أشكال مخروطية ترى الأشياء معكوسة ·

ومن الهلامى (قنديل البحر) وهو نوع من السمك شديد الحساسية ابتكر علماء جامعة موسكو آلة الالتقاط وقياس الذبذبات تحت الصوتية · وهذه الآلة تلتقط أخبار الفيضان والزلازل وغيرها من الكوارث قبل حدوثها بمدة تتراوح بين اثنتى عشرة ساعة وخمس عشرة ساعة ·

فهل يمكن لجهاز التصوير أو جهاز الاستقبال والارسال أو آلة التقاط (الذبذبات تحت الصوتية) أن توجد بغير عقل إنسانى ؟ إذن من المستحيل أن نتصور أن نظام الكون وهو أكثر تعقيدا من أى نظام آخر حدث اتفاقا وصدفة ، فلابد أن تكون هناك طاقة عظيمة واعية عاقلة وراء هذا الكون تقوم بتدبيره ورعايته ، ذلكم هو الله ·

إن كل شىء فى الكون يتبع قوانين ثابتة وسننا رياضية محكمة ، ولايمكن بأى حال لأى شىء أن يجرى على غير نظام كما لايمكن أن نتصور أى نظام وجد نفسه دون عقل

وراءه ، دون منظم يرعاه ويصونه ويمده بروح منه ٠

وبدأت الحياة النباتية والحيوانية التى دامت آلاف السنين قبل خلق الإنســـان بآلاف الســنين ٠٠٠ هل لها محصول بالنسبة إلينا نحن البشر ؟ لاشك ٠٠ هذه القواقع المتحجرة والهياكل المنطمرة ، والنباتات المتفحمة الراقدة فى أعماق الأرض كانت تفيض بالحياة فى يوم مابين هذه الكائنات الحية تماسكاً وترابطاً ٠٠ كان هنـاك بـين القوقعـة ومثيلاتها ، والسمكة وأضرابها ، والغصن وأشباهه تجاذب اجتماعى ٠٠ لاوجـود لكائـن منعزل ، ولابقاء لمن يخرج عن المجموع ثم ٠٠ كان البشر على الأرض ٠٠

وليس هنالك تاريخ يحدثنا عن طفولة الإنسان الأول ٠ هل درج فى عش واحد ثم انساح انساله فى أرجاء الدنيا أم كان لكل بقعة من الأرض آدمها الخاص بها ؟؟

العلماء وعلى رأسهم أبوالعلاء يميلون الى الظن بأن نشأة البشر متعددة ٠ ونحن هنا لايعنينا الخوض فى صحة هذه المزاعم أوبطلانها ، وإنما يعنينا الوقوف على أحوال الأجداد لنزن ماأبقوا للأحفاد ٠

عظام رميمة وجماجم نخرها الزمن ، ورؤوس وصحاف فى كهوف وقبور ٠ هل تعطينا هذه الآثار ضوءا على حياة أولئك الأجداد ؟؟

الكثرة الكثيرة منهم عاشوا من الالتقاط والقطف والصيد والاقتناص ، والقلة القليلة منهم عرفوا الرعى والزرع وأقاموا القرى وشيدوا المنازل من الطين والحجر أو من جذوع الشجر ٠ ومن يلق نظرة خاطفة على عصر ما قبل التاريخ يجد أن الحياة مذهلة بالعبر والمفاهيم ، من ذلك :

١ ـ منذ وجد الإنسان شعر بالشبه بينه وبين مثيله الإنسان ، كما شعر بالفروق التى تميزه عن الحيوان ٠ كانت هناك معيشة متضامنة إلى حد مابين جماعات الناس ضد طوائف الحيوان وعناصر البيئة الطبيعية ٠

٢ ـ كانت هناك فروق ظاهرة فى السلالات ، بيضاء وصفراء وسوداء ذات رؤوس عريضة أو مستطيلة ، وأنوف قائمة أو فطساء غير أنه منذ ذلك الزمن الواغل فى القدم تفاعلت السلالات وانتشرت فى بقاع كثيرة من الأرض ٠ وماكاد يطل وجه التاريخ حتى تكون قصة العرق الخالص أسطورة ، لاوجود لها فى الواقع إلا كحالات نموذجية ٠

٣ ـ بدأ عقل ذلك الإنسان بالنشاط والحركة ، فاستخدم الخشب وصقل الحجر وأذاب

المعادن وغالب الطبيعة كما بدأ ينفلت من قيدها ٠٠ وهل يعنى هذا شيئا غير الحضارة والثقافة ؟

إن أول مرحلة للإنسان كانت سلبية ، وتقتصر على التبديد والإتلاف ، يقطف الثمر ويحرق الشجر ويقتل الحيوان لكنه انتقل من المرحلة السلبية إلى المرحلة الإيجابية ، وهى مرحلة الاستثمار عن طريق تربية الأغنام وزرع الأرض والعيش من ريع رأس المال لا من استهلاكه

ولاشك أن هذه خطوة عملاقة اجتازها الإنسان فى عصر ماقبل التاريخ ٠

٤ ـ كان إنسان ماقبل التاريخ يشعر بإنسانيته وينتسب إلى مجموعة من الأقران يستغلون بقعة من الأرض ويتعاونون فيما بينهم على مقارعة الطبيعة فى عتوها ، والكاسر من الحيوان فى غائلته ٠ هكذا تميز عن الحيوان منذ البداية ٠

٥ ـ كان انسان ماقبل التاريخ يتحدث بأصوات غير معبرة مضافة إلى الحركة العضلية ثم تطور عنصر التفاهم لدى هذا الإنسان من أصوات غير معبرة الى أصوات بسيطة معبرة أو تراكيب طويلة معقدة ٠ وإذا كان الماضى يقاس بالحاضر فبشر ماقبل التاريخ كالبدائيين فى مجاهل أفريقيا اليوم كانوا يتكلمون لهجات لاتحصى كل لهجة تخالف الأخرى ٠ وازدادت فاعلية اللغة فى الترابط القومى باكتشاف الكتابة وبالتالى تسجيل المشاعر والتقاليد الجماعية بالحروف إضافة إلى الأصوات والنقوش والتماثيل ٠

الديانة

لم يحدثنا عصر ماقبل التاريخ عن عقيدة أجدادنا الأول ، ولكننا نقدر استجابتهم لما وراء الطبيعة ، واستكانتهم للسحر واطمئنانهم إلى الطلاسم والتعاويذ وتصورهم لنشأة الكون ونظامه ٠ وسواء عبدالناس الشجر أم النهر والعاصفة أو البحر ، الشمس أو القمر ، أم تساموا إلى موجدها فإن الغرض واحد ٠

شعور بالضعف أمام القوى الكونية وعجز عن تفهم الذات ، وانصهار للأفراد فى خشوع جماعى يوحد المشاعر والمصائر ويستدر الخيرات ويدرأ المكاره والنوازل ٠

لقد لاحظ (برغسون) تلازم الديانة مع المجتمعات جميعها دون استثناء وتساءل ٠٠ كيف يضطرد ذلك مع نمو العقل البشرى ؟ وهو يجيب ٠٠ أن الديانة هى ضرورة حيوية ،

بل هى ملازمة للحياة نفسها ، إنها جزء من (النزوع الحيوى) ذلك أن الحيوان ينقاد اجتماعيا بغريزته وحدها ، أما الإنسان فينقاد بعقله • وتخشى الحياة أن ينحرف العقل إلى النوازع الفردية فيعطل المجتمع أو يعوق سيره ، ولذلك كانت الديانة رادعة للعقل ، رادة له إلى الطريق الاجتماعى المستقيم •

ويقول برغسون كذلك : إن الإنسان قد يشك فى كل شىء إلا فى الموت وحين يضع الموت نصب عينيه قد تفتر فيه دفقة الحياة وتخور عنده العزيمة فى البقاء ووظيفة الديانة أن تسمو به إلى آفاق خلابة حافزة ، آفاق الحياة الثابتة • فالتدين إذن على شكل ما ، طبيعة مركبة فى الإنسان ، والوظيفة التقديسية عنده وظيفة أزلية ، الإنسان حيوان متدين منذ البدء •

فقد نظر الإنسان منذ أن منح العقل والإدراك ، نظر إلى الكون وتأمل فيما وراء الطبيعة فآمن بوجود قوة واعية عاقلة مدبرة لشؤون هذا الكون ، آمن بأن لهذا الكون خالقا خلقه ونظمه ونسقه أحسن تنسيق ، وتتجلى هذه الفكرة حين يتوغل فى التفكير فيما وراء الطبيعة فلايجد بدأً من الاعتراف بالخالق الحكيم الخبير •

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ •

(العنكبوت ـ ٦١)

وحين تحل بالإنسان نازلة وتحيط به الأخطار من كل جانب يحس فى قرارة نفسه وجلجلان قلبه بدافع يدفعه للالتجاء إلى الخالق عز وجل والاستعانة به تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(٢٢ ـ يونس)

هناك جماعات من البشر يشكون فى وجود الخالق ، وبالغ بعضهم فأنكر وجوده تعالى ، هؤلاء إنما يحاولون أن يجعلوا من هذا الكون عالماً مادياً لملذاتهم ، ولذا اهتموا كثيرا بالبحث عن أسباب الموت ليتمكنوا من الحيلولة دون وقوعه ولكنهم على الرغم من الجهود الجبارة التى بذلوها فى هذا السبيل باؤوا بالفشل الذريع •

إن أعظم دليل وأقوى برهان على وجوده تعالى : هو هذا الكون الذى نجده أمامنا ، ونراه بأعيننا ونلمسه بأيدينا • إن الطريق إلى الله فى نظر الاسلام هو العقل ، وكلما ارتقى هذا العقل واتسعت آفاقه ، كلما وضحت للإنسان معالم الطريق ، وتكشفت له الحقيقة الكبرى ، فامتلأ بها صدره يقيناً واطمئناناً فالعقل هو المصباح الذى يشرق على النفس بنور المعرفة ويكشف لها من أسرار الكون وعجائبه مايملأ القلب إجلالا وإعظاما لموجد هذا العالم ومبدعه •

قلنا : إن الإنسان حيوان متدين منذ البدء ، وهو فى الوقت نفسه حيوان سياسى ففى العهود الواغلة فى القدم نجد التضامن قائما بين الدين والحكم • خطان ظهرا منذ البدء •

خط الانتقال من الأسرة إلى القبيلة فحكم المدينة ثم حكم الأمة •

وخط الانتقال من العبادة القبلية إلى عبادة الأرباب المحلية ثم إلى عبادة الرب أو الأرباب •

وجميع الناس واءموا بين السحرة والحكام ، بين القوة الغيبية والقوة الإنسانية وجمعوا بينهما ، فصنعوا للحكام الأقوياء نسبا إلٰهياً ، أو على الاقل توهموا فيهم تجسيد الأرباب على الأرض •

كان من نتائج ذلك أن تجمع حول الحكم فريقان •• المحاربون الأقوياء الذين يوطدون الحكم بالسيف وسدنة الدين أو الكهنة الذين يأزرونه بالصلاة •

النبلاء من جهة والكهنوت من جهة •

ومهمة سائر أفراد الامة العمل لإعالة المحاربين والمصلين •

ومنذ الألف الثالث قبل الميلاد ظهر نظام الامبراطوريات ، وبعبارة واضحة عم الدنيا نظام استثمار شعب لشعب ولماذا كان ذلك ؟

أَلِحِرص الأقوياء على ترقية الضعفاء والمتأخرين ورفع مستواهم الحضارى كما يزعم الساسة ؟ أم حب المغامرة لنيل الشهرة والمجد ؟ أهو الرغبة فى السيادة والسيطرة على موارد جديدة ؟

فتوحات الإسكندر لم يكن هدفها سوى التوسع عند الإغريق المحصورين فى رقعة جبلية ضيقة وامتصاص قومية السكان المحكومين •

وهدف الفراعنة من بعوثهم العسكرية إلى الشام هو الحصول على الخشب والأغنام والجلود والزيت وماشابه ذلك • وشعار الرومان فى فتوحاتهم كان ظاهره السلم العالمى

وباطنه السيطرة على موارد العالم وخيراته ·

قال المؤرخ الروماني (أرستيد) ··

(من كافة جهات الأرض تحمل إليكم منتوجات كل موسم وإذا رغبتم فى مشاهدة هذه المنتوجات ينبغى أن تطوفوا حول العالم وتقيموا فى روما إنكم واجدون فى روما كل شىء وبمقادير وفيرة جميعها ماتجود به الطبيعة او تخلفه الصناعة لدى شعوب العالم أجمع ، ففى كل فصل من السنة ترسو السفن على أرصفة نهر التبر حاملة لروما من السلع ماجعلها فى مقدمة أسواق العالم ·

الإنسان فى صراعه ضد الطبيعة والكون ، ضد المادة العضوية واللاعضوية ضد المسافة والزمان والمكان تتجاذبه قوتان مختلفتان كل الاختلاف ·

العقل والنفس ·

فالعقل مشعل يضىء للإنسان مسالك الحياة ، وبه يعرف الخير من الشر والهدى من الضلال ·

أما النفس فتدفع الإنسان إلى مهاوى الشر ·

﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ (٥٣ ـ يوسف) ·

والعقل مهما نما وسما لايسلم من العثرات ، لأن العقول تتفاوت فى حكمها على الأشياء ، وفى مقاييس الخير والشر ، وما أكثر ما تكون عرضة لان تطغى عليها الاهواء فى تقديرها للاشياء وفى حكمها على الاعمال !· لذا فهى فى أشد الحاجة إلى مدد يعينها ويقويها على سد منافذ الشر والبغى والطغيان ·· هذا المدد هو الهداية السماوية ، هو الذى كثيرا ما كان يعرض للبشر عارض خطير يختل به ميزان حياتهم ويصبح وجودهم مهددا بالفناء والزوال إن لم تتغير فيهم الأوضاع وينتقل الناس مما هم فيه من دواعى الفساد والانحلال ، وقد يحتاج الأمر إلى معجزة ، فتأتى من السماء لدفع الخطر وازاحة البلاء ·

وتنتهى المعجزة وتختفى آثارها وتمضى الحياة فى طريقها إلى أن يكفهر الجو ويسود العالم الظلام ، فتأتى المعجزة لتخرج الإنسانية من الظلمات إلى النور ·

وهكذا إلى أن جاء الإسلام بمعجزته الخالدة ، بالقرآن الكريم ينظم علاقة الإنسان بربه وعلاقته بأخيه الإنسان فى كل مظاهر الحياة ·

كان بنو إسرائيل شعباً ضعيفاً ذليلاً وقع تحت سلطان فرعون وجبروته فبطش بهم وأذاقهم ألوانا من العذاب • ضرب عليهم الذلة والمسكنة فكان لابد من معجزة قاهرة تعيد إلى ذلك الشعب الذليل العزة والكرامة • وتأتى المعجزة يأتى موسى ويستخلص قومه مما هم فيه من الضعف والذلة ، وينقذهم من جبروت فرعون وطغيانه ويدفع بهم إلى الحياة الحرة الكريمة •

وينحرف بنو اسرائيل عن الهدى وتعاودهم النكسة فإذا هم عباد مادة يتهالكون على الدنيا ويتكالبون على جمع المال بكل الوسائل ، وإذا هم حرب على من ليس منهم ، يضمرون للناس العداوة والبغضاء كأنما هذه العداوة المضمرة انتقام للإذلال الذى لبثوا فيه قرونا متتالية •

وأشرق النور مرة أخرى •• جاءت الرسالة الجديدة رسالة عيسى عليه السلام لتقف سداً منيعاً أمام ذلك التيار الجارف الذى طغى على الروح داعية إلى الزهد والتبتل ، واطراح المادة كما دعا إلى المحبة والخضوع والاستسلام • إنها ـ لاشك ـ دعوة قاسية تدعو ذلك القطيع المعربد إلى الزهد وتحيد به عن الطريق المادى الذى تكالبوا عليه إلى طريق التجرد من متع الحياة وزخارفها ولابد لدعوة عيسى ان تسلك هذا الطريق وتنحاز كلها إلى جانب الروح لكى تنجح وتثمر •

إنه صراع عنيف بين العبودية والتحرر ، بين المادية والروحية البحتة •

وتنتصر الحرية فى رسالة موسى عليه السلام ، وتنتصر الروحية فى رسالة عيسى عليه السلام ، وتظل الإنسانية فى كلتا الحالتين فى أشد الحاجة إلى ضبط ميولها وتوجيه غرائزها التوجيه القويم الذى يمكن الإنسان من الحياة السعيدة دون أن يجورَ على الجانب الروحى منه •

ذلكم ماتكفلت به رسالة الإسلام وهى رسالة عامة شاملة توجه الإنسان فى الحياة توجيها قويما ، وتساعده على أن يجعل لنفسه وللجماعة الإنسانية أسمى درجة من الكمال الإنسانى فى الروح والخلق والعقل •

ولا غرو فالإسلام قانون الفرد والمجتمع والعلاقات المحلية والدولية على السواء ، وهو للدين والدنيا •





وحدة البشر

عن طريق الوحى والإلهام بلغ القرآن الكريم الذروة من المعرفة فهو يقرر فى وضوح لايرقى إليه الشك عن خلق الحى من الميت وخلق الميت من الحى .

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ .

والقرآن الكريم يتحدث أيضا عن علاقة الماء بالحياة مقررا أن الماء هو أصل الحياة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ . ولقد زاد الأمر تفصيلا حين وصل إلى الإنسان إذا أضاف إلى الماء تراب الأرض

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ .

وينتهى العلم بعد بحوث مضنية إلى هذه الحقيقة التى حاول أن ينكرها فى بادىء الأمر باعتبارها لاتقوم على أساس علمى تجريبى ، فنرى (لورنس هندرسون) من أعظم علماء الحياة فى أمريكا يقول : « لابد أن ظهور الحياة بدأ أول مابدأ فى أحد مجارى الطين الدافىء أو بين طيات زبد هذا الطين ورغاويه ، أما كيف نشأت الحياة من غير الحياة ؟ فذلك سر لا يعلمه إلا الله القادر العليم ، ولقد بحث ألوف من العلماء فى نشأة الحياة ولكنهم باؤوا بالفشل والخذلان ، ففى مؤتمر دولى لعلوم البحار الذى عقد فى أغسطس سنة ١٩٥٩ م فى نيويورك تحدث أعظم علماء الروس (أو بارين) فقال : (إن جميع المحاولات التى أجريت لتوليد الحياة من المواد غير العضوية تحت ظروف طبيعية أو فى المعمل باءت بالفشل) .

ولاجرم أن الأجيال ستمضى تلو الأجيال باحثة عن سر نشأة الحياة ولكن من غير جدوى وكما يقف علماء الحياة عاجزين كل العجز عن إدراك كيفية نشأة الحياة من المواد العضوية ، فكذلك الشأن بالنسبة لعقل الإنسان إذ يقف العلماء حيارى إزاء العقل

الإنسانى ، يقول (ألكسس كاريل) : الحائز على جائزة نوبل فى العلوم الطبيعية : (ماهو الفكر ، ذلك الكائن العجيب الذى يعيش فى أعماق ذاتنا دون ان يستهلك اى قدر قابل للمقياس من النشاط الكيمائى ؟) هل يتصل بأشكال النشاط المعروفة ؟ ألا يمكن ان يكون هو منظم الحياة وإنه بالرغم من تجاهل الأطباء له أهم من الضوء ؟ أهو نتاج الخلايا (المخية) كما يُنتج البنكرياس الأنسولين والكبد الصفراء ، وهل يحتوى على نوع من النشاط يختلف عن ذلك الذى يدرسه الأطباء أيعبر عن نفسه بقوانين أخرى وتولد خلايا الغشاء المخى أم يجب اعتباره كائنا غير مادى يوجد خارج أبعاد العالم الكونى فى مخبأ بطريقة مجهولة لنا ؟ ويقول أحد علماء الطبيعة البارزين وهو (شرنجتون) :

لقد استطاع العلم الطبيعى أن يفسر الحياة باعتبارها تنفساً وحركةً ونمواً وتوالداً وتحليلاً للأغذية فى الأنسجة • ألخ •• ذلك أنه لايوجد شىء من هذه الظواهر لايقع تحت سلطان العلم ، إنها كيمائيات وطبيعة أما هذا الشىء الآخر المصاحب للحياة وهو الفكر ، فإنه يهرب من دائرة العلم الطبيعى ويظل بعيداً عنه ، حتى لقد بدأ العلم الطبيعى يتجاهله باعتباره شيئا يخرج عن دائرة بصره ، وبهذا نشأ فارق أساسى بين الحياة والعقل ، فالحياة موضوع للكيمياء والطبيعية ، أما العقل فيهرب منها بحيث يمكن تخليص الإنسان فى أنه يتألف من طاقة وعقل •

وهكذا انتهت البحوث العلمية التجريبية بالفشل إزاء العقل الإنسانى والتوراة وهى أقدم كتاب متداول بين البشر تحدث عن عملية الخلق وتاريخ الإنسان فالله بعد أن خلق السموات والأرض وبعد أن خلق الماء والاسماك والزواحف والطيور ثم الحيوانات قضى أن يخلق الإنسان • وعلم الأحياء الحديث يؤيد هذا الترتيب فى خلق الكائنات ، فالحياة نشأت فى الماء ثم كانت الأسماك فالزواحف فالحيوانات •

وجاء فى سفر التكوين (أوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام فاستل احد اضلاعه وسد مكانها بلحم وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وألقى بها إلى آدم فقال آدم : هذه هى المرأة عظم من عظامى ولحم من لحمى ، هذه تسمى امرأة لانها من أمرى أخذت ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته فيصيران جسدا واحدا • وخلق حواء من طريقة الانفصال من آدم يماثل مايقول به علم الحياة : من أن الاحياء البدائية تتكاثر عن طريق الانفصال •

يحدثنا التاريخ القديم أن حواء ولدت من آدم قابيل وهابيل وبنين وبنات وتزوج

البنون البنات فكثروا وجاء نوح بعد حين من الدهر وفى أيامه وقع الطوفان الذى أغرق كل الأحياء على الأرض إلا الذين أخذهم نوح فى سفينته ، وبعد ذهاب الطوفان رزق نوح أولادا ثلاثة وهم حام وسام ويافث •

فأما حام فهو أبوالقبط والأحباش والسودان والبربر •

وأما سام فهو الجد لشعوب العرب والروم والفرس •

وأما يافث فهو والد الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج (المغول) ومن هؤلاء الثلاثة سام وحام ويافث تفرع البشر الذين ينتشرون فى أرجاء الدنيا •

تقول التوراة : هؤلاء هم عشائر بنى نوح بمواليدهم وأممهم ومنهم تفرقت الأمم فى الأرض بعد الطوفان وكانت الأرض كلها واحدة ولغة واحدة •

والقرآن الكريم وهو آخر كتاب منزل من عند الله تحدث فى وضوح تام عن الأصل الواحد المشترك لجميع الآدميين وتفرع البشرية وتسلسلها من هذا الأصل •

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ •• (١ ـ سورة النساء)

إن هذه الآية الكريمة لتذكرنا بوحدة الأصل داعية إلى الترابط والتعاون والتكاتف بين جميع أفراد البشر فى المشرق والمغرب باعتبارهم جميعا أقارب ذوى رحم واحدة •

وحدة الفكر البشري

لعل وحدة المعارف الإنسانية وتمتع شعوب العالم بها خير دليل على وحدة الفكر البشرى فالفلسفة اليونانية مثلا لم تقتصر على الشعب اليونانى وحده بل حاولت شعوب أخرى أن تنقلها إلى لغاتها وتدرسها وتضيف إليها آراء ونظريات جديدة •

وليس من شك أن أول هذه الشعوب الشعب العربى الذى حضن الفلسفة اليونانية ودرسها وناقشها وحفظها من ضياع ومن ثم صار نقلها إلى الغرب عن طريق العرب •

وإلى جانب الفلسفة اليونانية كانت العلوم والآداب تحظى بمثل هذا الحرص مدللة على وحدة الفكر البشرى ووحدة اتجاهاته لخلق الأساس المتين لحضارة الأمس وحضارة اليوم •

وهذه الحضارة الغربية مهما كانت مقوماتها وفوائدها أو مضارها ، حسناتها وسيئاتها ، فإنها لم تبق محصورة فى أوربا بل تجاوزتها إلى خارج حدود أوربا ، فالقطار والسيارة والطائرة تشق طريقها فى كل القارات والكهرباء تنير المدن والقرى والذرة تحطم الجبال وتشق التلال وتسير السفن وتعد الصواريخ ٠

وهناك وحدة الشعور الإنسانى الذى يتلاءم مع الفكر ليدلل على وحدة الحياة الإنسانية ٠ كان لنا أن نفسر هذا الشعور الإنسانى بجملة الحوافز النفسية والطباع ورد الفعل الذى تحدثه حادثة واحدة فى الوجدان والضمير ٠

وهناك وحدة الوسائل والغايات أى الغاية من الحياة ، قال بعض العلماء : إن الغاية من الحياة هى السعادة أو اللذة واجتناب الآلام وهذه مطامع الإنسان فى كل عصر وفى كل مكان وتتجمع غايات الأفراد لتغدو غاية المجتمع أو غاية الدولة ويدب الصراع بين المجتمعات ومافى المجتمعات من فئات وبين الدولة بعضها بعضاً لحماية السعادة لشعوبها أو الاستزادة منها وقالت فئة من العلماء : بأن غاية الحياة هى اجتناب الآلام لأن اجتناب الآلام هى السعادة الحقة وقد اتهم هؤلاء بالتشاؤم لأنهم لم يروا فى الحياة إلا ظلاما حالكا وغفلت عيونهم عن الفجر المنير ٠

لاشك أن وحدة المعارف ووحدة العلوم والآداب ووحدة الشعور الإنسانى كل هذا يدل على وحدة الحياة الإنسانية أو وحدة الفكر البشرى ٠

إن وحدة الجنس البشرى مسألة تكاد ترقى إلى مستوى البديهيات التى لاتحتاج الى دليل ولكن بنى البشر تنكروا لها وتجاهلوها مدّعين أن الاجناس البشرية طبقات يعلو بعضها بعضا ٠

واليهود هم أول من ابتدع هذه الفكرة فهم يزعمون أنهم المفضلون عند الله أو شعب الله المختار أما بقية البشر فحثالة لاقيمة لهم عند الله ٠ والإغريق كانوا يتصورون بأنهم المتمدنون ومن عداهم برابرة ومتوحشون ، وكذلك الأمر لدى المصريين القدماء فقد كانوا يرون أنهم أبناء الشمس وشعب الإلـه المعبود ٠

ومثل هذا التصوير نراه عند الرومان فأبناء روما هم الفضلاء الأحرار وغيرهم عبيد أرقاء ، والصينيون اختصوا أنفسهم بالمدنية والحضارة ومن عداهم جهلة بدائيون ، ومن المؤسف أن أرسطو ذا العقل الجبار والآراء النيرّة قال : إن البشر جنسان أحرار وعبيد

فالأحرار هم الذين يجب أن يحكموا العالم أما العبيد فهم آلات صماء فى أيدى الأحرار ·

ولعل دعاة التمييز العنصرى فيما مضى من القرون وفى عصرنا هذا استندوا على هذه الفكرة الزائفة من أفكار أرسطو واتخذوها أساسا لعدوانهم ·



تكريم الاسلام للانسانية الأولى

فى لحم الإنسان رعظمه تعيش روح لها قيمة أكبر من العالم المادى كله ورغم علاقة الروح والنفس بطوارى المادة فإن الإنسان يوجد بفضل وجود الروح ٠

الروح هى أصل الشخصية الانسانية وكأن العالم كله صنع ليساعدها على تحقيق ذاتها وإذن فهى لاتكون وسيلة أبداً لا للجنس ولا للعالم ، هى غاية ٠

الإنسان مكرم فى نظر الإسلام لا للونه أو جنسه أو قبيلته أو ماله أو جماله بل لأنه إنسان ومقدّر لأنه إنسان ومكلف لأنه إنسان ٠ ولقد قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ ٠

يأتى الإنسان الى هذا العالم إنسانا مجردا من كل شىء ويرجع إلى خالقه إنسانا مجرداً من كل شىء إلا من أعماله ، ويحاسب كإنسان ٠ القياس الأخير للإنسان فى نظر الدين ليس للحسب ولا للنسب ولا الجاه ولا المال ولا الجمال وإنما هو العمل ٠٠ هل هو رجل فاضل صالح أم فاسد طالح ؟

إذا كان رجلا صالحاً وفاضلاً فلا يهمه بعد ذلك أكان وزيراً أم فلاحاً غنياً أو فقيراً مديراً أم ساعى بريد ٠ الأنساب والاحساب باطلة ، العصبية باطلة ، القوة باطلة ، المال باطل ، اللون باطل ، ويبقى العمل الصالح ٠ كل فرد يجب أن يدرك أن ثمة علاقة وثقى تربط الإنسان بوجوده ، تشده بأخيه تصله بعالمه الواسع الشامل وهو فى إدراكه هذه العلاقة إنما يجُسّد قيمته التى وعاها ، يؤكد تجاوبه العميق الذى تغلغل فى حناياه حيال ذاته ، وروح الإنسان وعواطفه التى هى مصدر الحياة وجمالها حيال العالم كله ٠

ليس من شك فى أن الانسانية هى التى تبحث عن جوهرها والتى غدت كلمة مرادفة للحقيقة ليست مطلق إنسانية هى إنسانيتى وإنسانيتك وإنسانيته ، هى إنسانية نعيش

فيها على الأرض ، هى أنا بآلامى وأنت بآلامك وهو بآلامه · فعندما يتعرض السلام فى العالم للانهيار ، تتعرض الإنسانية للانهيار فتتعرض الحقيقة أيضا ·

تلك هى الحقيقة ولا أظن أن أحدا يكره الجهر بها لأنه بذلك إنما يكره الحقيقة ذاتها والحقيقة محبة للنفس وغذاء لها وبهذه المحبة يؤكد أنبل عواطفه ويكون نافعاً لنفسه وأمته وعصره ·

النفس الإنسانية تتمثل الجمال والرخاء والانسجام فى رضى وسهولة أكثر مما تتصور الاختلال والفوضى والخطيئة التى تفسد هذا العالم فى كل مكان وتدنسه وتمزقه وتلصق به الأقذار ·

جميع الشرائع السماوية إنما نزلت لتقوية المعانى الإنسانية العالية وجعلها هى المسيطرة وإخفاء النواحى الحيوانية المستكنة فى أطواء النفس الإنسانية وإقامة الفطرة الإنسانية على أكمل وجه كما قال تعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ ·

فأساس الدين القيم هو تقوية الفطرة الإنسانية العالية التى لم تدنس بأدران الشيطان الرجيم ، هذا الدين القيم يتحد معناه فى كل الشرائع السماوية ، قال سبحانه وتعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (١٥) ﴾ ·

والإسلام اتجه إلى التسوية فى التكليف بين بنى الإنسان وجعلهم جميعاً على استعداد للتكليف ماداموا قد بلغوا رشدهم وتكاملت مداركهم ، والتكليفات واحدة لأن الفطرة واحدة ، فلا يكلف امرؤ على قدر علوه فى الأرض ولا يسقط تكليف عن كبير ويلقى الحمل على الصغير ·

والإسلام جعل أساس هذه التكليفات أمرين :

أولا : التعاون بين قوى الإنسان المختلفة ويتجلى هذا فى قوله تعالى :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ·

ثانيا : توجيه القوى الإنسانية نحو الغاية الكبرى وهى مصلحة الجماعة وقد كان لهذا النوع من التكليف فى الفقة الإسلامى فرض الكفاية ·

ففروض الكفاية فى الإسلام هى لتوجيه القوى الإنسانية كل فيما خصص له ، فالتفقه فى الدين فرض كفاية ، وعلم الطب فرض كفاية وعلم الهندسة فرض كفاية والجهاد فرض كفاية وكل عمل يقوم عليه نظام الأمة الاقتصادى أو الاجتماعى أو السياسى فرض من فروض الكفاية التى يقوم بها البعض وإن لم تؤد فالتبعات تقع على الجميع · فالقيام بذلك الغرض قيام بمصلحة عامة والله سبحانه وتعالى : إنما قرر فرض الكفاية لوجود تفاوت فى القوى الإنسانية فبنو الإنسان مع اتحادهم فى أصل الاستعداد العقلى يختلفون فى مقدار التفكير وفى الملكات والاتجاهات والمواهب ، فهذا يصلح للتجارة مثلا وذاك للطب وذلك للصناعة وآخر للعلوم والرياضة ، وهناك من يصلح للرسم والفن وما إلى ذلك من المهن العملية والنظرية · هكذا تختلف القوى وتتفاوت الملكات والاتجاهات وكل ميسرّ لما خلق الله ·

أما المنحرفون ذوو الشهوة الحيوانية المفترسة الذين نسوا كل المعانى الإنسانية العالية · فللتعاون معهم لون آخر وهو إرشادهم إلى الفطرة القويمة والصراط المستقيم

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾
(١٢٥ من سورة النحل) ·

فإن لم يستقيموا على الطريقة وبدأ شرّهم حملوا على التزام الجادة أو على الأقل كف أذاهم هكذا يتجه الإسلام فى تنظيم الجماعة الفاضلة نحو العمل الإنسانى بتضافر كل الطاقات والقوى والانتفاع من كل المواهب والملكات ·



الفكرة الإنسانية في القرآن

ترجع الفكرة الإنسانية إلى جد العروبة الأعلى ابراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام ، فقد طلبا من ربهما إسعاد ذريتهما ٠

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ ٠

ذلك لأنهما يعلمان أن ذريتهما يستطيعون أن يتخذوا عن طريق التفكير العقلى قانوناً لحياتهم ونظاماً لشؤونهم والفكرة العقلية مهما بلغت الذروة من العلم والمعرفة ومهما تجرد أصحابها عن الأغراض والشهوات فهى لاتخلو من الضعف ٠ والهزال ٠ أصحابها لايستطيعون أن يصلوا بالإنسان إلى الحكمة المقصودة من خلق الإنسان وجعله خليفة فى الأرض يعمرها وينميها وينشر فيها الأمن والاستقرار ٠ فالعقول مصدر هذه الفكرة متفاوتة فى إدراكها وفى حكمها على الأشياء وفى مقاييس الخير والشر ٠ الفكرة العقلية لاتستطيع أن تنهض بالعالم وترشده إلى الصراط المستقيم دون أن تتصل فى تنظيمها بخالق السموات والأرض ٠ ولقد أجاب الله تعالى : دعاء إبراهيم وإسماعيل ٠ أجل تعهدت العناية الإلهية بالإنسان فى جميع أطواره ترشده إلى وسائل الإصلاح وسبل السلام فأرسلت الرسل وأنزلت الكتب وسارت فى هذا الطريق القويم حتى وصل الإنسان إلى درجة من الاستعداد لرسالة إنسانية عامة خالدة تشمل جميع مايحتاج إليه الإنسان ، ناهضة بالبشر إلى ماتستطيع قواهم أن تناله من مثالية وسمو ٠ وبهذه الرسالة بعث الله محمدًا ﷺ وأنزل القرآن الكريم وبه أكمل دينه وأتم على بنى البشر نعمته ٠

ومامن فكرة عرفتها البشرية حتى اليوم فى تنظيم العالم كوحدة إنسانية ، وفى تنظيم المجتمع كوحدة بشرية إلا فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان أكبر منها وأرحب

وأعظم قابلية للنمو والتجدد وأكثر قدرة على التوفيق والتنسيق بين قوى الحياة وطاقات الإنسان وحاجات البشرية على وجه العموم ٠

ليس من شك أن محمد بن عبدالله ﷺ هو أول من رفع لواء وحدة الجنس البشرى فهو نبيّ الإنسانية ٠ لقد نادى بنداء القرآن :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ٠ (سورة الحجرات ١٣)

ومن أحاديثه المشهورة (**الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى**) فمقياس الفضل والكرامة فى نظر الإسلام هو العمل الصالح ٠ فأفضل الناس ألزمهم للدين وأنفعهم للناس وأشقى الناس من شقى به الناس ٠

أجل لقد ألغى الإسلام الفروق بين الناس إصلاحاً للمجتمع فليس من العقل التفرقة بين الناس الأحرار المتساوين فى الخلق والعبودية للخالق ، فالله خالقهم وهو سيدهم ٠

لم يكن هذا دعوة نظرية خيالية دعا إليها الإسلام بل إن الدولة والحضارة الإسلامية قامتا من أساسهما على هذه الفكرة فكان المسلمون فى فجر الإسلام وفى مقدمتهم الصحابة لا يميزون بين العربى والعجمى ٠ كانوا يجمعون بين الحر والعبد بغير تفرقة أو تمييز ، وكثيرا ما أمّر الرسول زيد بن حارثة (الذى كان رقيقاً) على زعماء قريش فلم يجدوا فى ذلك غضاً من كرامتهم وهم الذين كانوا فى الجاهلية قادة العرب ٠

والمسيحية تقوم فى الأصل على هذه الفكرة فى المساواة بين البشر وسائر الأجناس ولكن بعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمى للدولة الرومانية اختفت مظاهر الأخوة البشرية فالمسيحيون هم وحدهم من البشر ومن لم يكن مسيحيا فلا قيمة له ٠

وفى العصر الحديث عصر الاستكشافات والبخار والفضاء حيث اختفى الإيمان بالدين وحل محله الإيمان بالعلم والمادة ، فى هذا العصر ظهرت فكرة جديدة (الاستعلاء الجنسى) هذا الاستعلاء أخذ يتسع طولاً وعرضاً وعمقاً ٠ ظهر علم الأجناس Anthropology وبذلت محاولات لارساء قواعد هذه الفكرة على أسس علمية ظهرت عبارات جديدة (الرجل الأبيض) و (الرجل الأسود) واندفع البيض يستعمرون بلاداً

وشعوباً مستحلّين لأنفسهم التصرف فى أقدار بقية الأجناس أساؤوا معاملة الهنود سكان أمريكا الجنوبية الأصليين والهنود الحمر فى أمريكا الشمالية ، والسكان الأصليين فى استراليا وحاولوا إبادتهم بالجملة باعتبارهم جنساً غير قابل للتمدن والرقى كذلك أساء هؤلاء البيض معاملة الشعوب فى أفريقيا وآسيا ، وتعددت مباحث علم الأجناس والأسس التى تقوم على التفرقة بين البشر ، قسموا بنى البشر من حيث اللون إلى أبيض وأسود وأصفر ، ومن حيث الشعر ونوعه إلى شعر صوفى (مجعد) وشعر سبط وشعر ناعم كما قسموا شكل الرأس إلى ثلاثة أنواع : الرأس المستديرة والمستطيلة والصغيرة ، ومن حيث شكل الأنوف إلى أفطس ومرتفع ومن حيث طول القامة إلى طويل وقصير ·

ولما ظهر خطأ هذه التقسيمات اتجهوا إلى تقسيم الانسان إلى أجناس جغرافية فقالوا جنس البحر الأبيض المتوسط وقالوا الجنس القوقازى والجنس الآسيوى ·

وفى خاتمة المطاف انتهى علماء الأجناس إلى تقسيم البشر إلى ثلاث مجموعات : وهى : المجموعة البيضاء والمجموعة الزنجية والمجموعة المغولية ·

وتصوروا أن للرجل الأبيض مزايا وصفات لا نجدها لدى الجنسين الآخرين : (الزنجى والمغولى) · ولقد تصوروا أن البيض أطول الناس جسوما ، وأرادوا أن يتخذوا من كبر حجم الرأس دليلا على كبر حجم المخ فقالوا إن حجم رأس الرجل الأبيض يكبر حجم رأس غير الأبيض فإذا هم يعثرون فى أفريقيا على قوم يعتبرون أطول الناس فى العالم جسوما وإذا هم يجدون أن أكبر الرؤوس حجما يوجد لدى الأسكيمو ·

واللون الأبيض الذى كانوا يعتبرونه ضربا من الامتياز البيولوجى سرعان ما اكتشفوا أن هذا اللون ينشأ نتيجة نوع من الصبغات والذى يوجد فى جلد الإنسان الذى يعيش طويلا تحت أشعة الشمس الساخنة حيث تساعد هذه الصبغات (Pigments) على احتمال حرارة الشمس · فاللون الأبيض جاء نتجية البعد عن حرارة الشمس فاستغنى الجسم عن هذه المادة · هكذا باءت هذه المحاولات التى أرادت أن تفصل بين الأجناس الثلاثة بالفشل ·

وعندما بعث قانون (ماندل) فى الوراثة سنة ١٩٠٠ م انهارت الأبحاث التى تهدف إلى التفريق بين الأجناس وحتى قانون (ماندل) الذى يعتبر الدم العامل الوحيد لانتقال الصفات من الأسلاف إلى الأحفاد اعتبر ضرباً من تخيلات العلم فقد ثبت أن عوامل الوراثة إنما تنتقل بواسطة المورثات (Gens) وهى جزء من أجزاء الكروموزومات

التى توجد فى الخلايا الحية • وتعددت الكشوف العلمية وتواترت الأبحاث فى تحليل الدم وتقسيمه إلى فصائل أربع A.B.O. AB وكان هذا الكشف ضربة قاضية لكل الأبحاث التى تهدف إلى التفريق بين الأجناس البشرية فقد ثبت أن هذه الفصائل لا تورث فقد يكون دم الأب أو الأم من إحدى هذه الفصائل ثم يأتى دم الوليد من نوع آخر وهذه الفصائل الأربع : وجدت فى كل المجاميع البشرية البيضاء والسوداء والصفراء وجدت فى أوروبا وأمريكا واستراليا وآسيا وأفريقيا وفى كل بقعة من الأرض •

وعلى الرغم من أن الأبحاث العلمية الحديثة فى تحليل الدم وتقسيمه إلى فصائل سفهت كل الأبحاث السابقة التى دارت حول تقسيم الأجناس فإن جهود الباحثين لم تتوقف وقد بلغ النهم الاستعمارى أشده فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين •

فى ٢٦ يوليو عام ١٩١١ م عقد مؤتمر عالمى فى لندن حضره علماء الأجناس من أربعين دولة واستمر المؤتمر أربعة أيام متتالية وقد انتهى هؤلاء العلماء بتقرير وحدة الجنس البشرى •

ولقد ألقى الدكتور فيلكس فون لاشين (Fellix Voan Luschen) كلمة قال فيها : (إننا نعلم الآن أن لون الجلد والشعر إنما يرجع فى الدرجة الأولى إلى عامل البيئة) فنحن الأوربيين إذا كان لون جلدنا أبيض وشعرنا على ما هو عليه فليس ذلك إلا بسبب معيشة أجدادنا ألوفا من السنين فى أرض محرومة من أشعة الشمس ومغلقة على الدوام بالضباب ، وبياض الجلد لايعنى شيئا سوى نقصان مادة التلوين (Pegnents) وإذا كان أجدادنا قد فقدوا عنصر التلوين هذا فذلك لأنهم لم يكونوا فى حاجة إليه • ومن الطبيعى أن يكون لون جلد بعض الأجناس الهندية أو السنغالية داكناً ، فأى سخف أن نَصِفهم لهذا السبب بالتوحش ، لقد كان لهذه الشعوب مدنيات عريقة وكانوا يمارسون دينا رفيعا ساميا • ويزعم البعض أن شكل الأجناس الملونة قبيح وينسى هؤلاء أن الجمال والقبح مسألة نسبية بحتة ، فاليابانيون وهم من هم من رفاهة حس وروعة فن ، يرون أعيننا الواسعة وأنوفنا المحدوبة غاية القبح كما يحلو للبعض أن يتشدق بالعقول • إن الأجناس البدائية ليست نظيفة مثلنا وهؤلاء ينسون أولاً ما توجد عليه شعوب أوربا الشرقية من القذارة وينسون بالأكثر الحقيقة الشاهدة على أن بعض الشعوب

البدائية يستحم كل يوم بل إن جنس البانتو وغيرهم من الأجناس الأفريقية ينظفون أسنانهم عقب كل أكلة نصف ساعة فى حين لا يستعمل ملايين من الأوروبيين فرشة الأسنان مرة واحدة ويشيرون أحيانا إلى الملابس وكيف أن بعض الشعوب البدائية تعيش عارية غير مدركين أن هذا العرى لم يمنع تطور أحاسيسهم الرقيقة المهذبة ، ونحن نعلم كيف أن الكثيرين من بين صفوفنا لم يحل لبسهم الحرير والصوف أن يكونوا أفظاظا أشراراً شرسين واعتبر البعض أن فقدان بعض الشعوب البدائية للكتابة هو دليل على انحطاطهم ، وصحيح أن الأغلبية العظمى من الشعوب البدائية لا تعرف القراءة والكتابة ، ولكن يجب ألا ننسى أن ٩٠ ٪ من الشعب الروسى لا يعرف بدوره القراءة والكتابة ، وقد بقى أن نعرف أن هذه الشعوب البدائية التى لاتكتب تتمتع بذاكرة خارقة أقوى بكثير من ذاكرتنا مما جعلنا نجزم أن اختراع الكتابة قد أدى إلى تدهور للذاكرة وكثيرا ما حاول البعض أن يتخذوا من السمات والتقاطيع ما يثبتون به وضاعة بعض الأجناس فالزنجى بجلده الأسود وشفاهه الغليظة الدامية وأنفه المفلطح لا يمكن أن يكون إنسانا بل هو حيوان أليف بحيث يترك لكل إنسان كيفية معاملته حسب هواه كما لايسأل الإنسان عن كيفية معاملته لحيواناته وخيوله ٠

ويحاول بعض العلماء أن يجدوا أصولا متفرقة للجنس البشرى فيرجعون الجنس الباليولوتى إلى الغوريلا وجنسا آخر إلى الأورنج ولكن الأغلبية من المؤلفين العصريين الثقات يرجعون الجنس البشرى بأكمله إلى أصل واحد فالإنسانية واحدة ٠

ويختتم هذا العالم الإنسانى بالكلمة التالية : (وبعد فقد قلت مرة فى إحدى محاضراتى فى الجامعة أن المتوحشين الوحيدين فى أفريقيا هم بعض عناصر الرجل الأبيض الذين اتخذوا القتل حرفة لهم) ٠

وإنى أكرر الآن أمامكم أنى مازلت مؤمنا أن بعض البيض يمكن أن يوجدوا فى مستوى عقلى وخلقى أدنى من بعض الأفريقيين السود [1] ٠

وألقى الأستاذ سبيلر (G. Spiller) سكرتير المؤتمر بحثا فى موضوع التساوى بين الأجناس فكان مما قاله : (لقد قيل أحيانا إن أى فرد لاينتهى إلى الجنس القوقازى الأبيض لا يمكن أن يحصل على شهادة جامعية بل قيل : إن عددا من الشعوب يستطيع

---

(١) Memoir sur le contact des Races page 16

متابعة التعليم الأولى ولكن الواقع والحقائق الثابتة تكذب هذا الادعاء ، فالجامعات الأوروبية تضم العدد الكبير من مختلف الطلاب المنتمين إلى شعوب غير أوروبية وشعوب ملونة وكلها تحصل على أرقى الدرجات الجامعية) ٠

أجل الواقع يثبت ما ذهب إليه العلماء فكثير من سكان الشرق السود منهم والصفر وذوو اللون الداكن برزوا فى العلوم الحديثة بصورة تفوق مالدى بعض شعوب أوروبا ففى اليابان والصين مثلا جامعات تضاهى جامعات أوروبا وأمريكا ٠

اليابان لم تكد تخسر الحرب العالمية الثانية حتى نهضت نهضة واسعة النطاق فى ميادين الصناعة والاقتصاد وأذهلت كل الباحثين فقد أصبحت اليوم أكثر شعوب العالم إنتاجا ونجاحا ٠

والصين كفاها فخراً أنها استطاعت أن توحد بين ستمائة مليون نسمة فى ظل حكومة واحدة وجيش واحد ودستور واحد وهذا شيء لا مثيل له فى التاريخ القديم والحديث ٠

وفى الولايات المتحدة يوجد من بين العشرة ملايين زنجى عشرات الألوف من المحامين والأطباء والفنانين لقد أثبت هؤلاء الزنوج وجودهم هناك على الرغم من أنهم لم يتحرروا من الرق إلا منذ حوالى مائة عام ، وعلى الرغم من المعاكسات التى واجهوها ومن السدود التى أقيمت فى طريقهم فإنه لايوجد مجال من مجالات النشاط الإنسانى لم يلحقوا فيه بالرجل الأبيض بل لعلهم يتفوقون عليه فى ميادين الرياضة والموسيقى والغناء والرقص ٠

تقول دائرة المعارف البريطانية : (لايوجد فرع من فروع العلوم والتكنولوجيا والدراسات والاختراعات العلمية إلا للزنوج الأمريكيين فيها نصيب كبير) ٠

كان يظن أن قضية التفرقة العنصرية بين الأجناس قد فصل فيها أو قضى عليها نهائيا كان يظن أن وحدة الجنس البشرى قد تأكدت فإذا بهتلر يثير نيران التعصب الجنسى فيعلن العداء للسامية ويرفع من شأن الآرية ويعزو كل الحضارات ، والاستكشافات العلمية الحديثة إلى الجنس الآرى الذى ينتمى إليه الألمان ٠

وباسم الآرية وتحت لواء هذه النعرة العنصرية الكريهة خاض هتلر الحرب العالمية الثانية لتحقيق سيادة الشعب الألمانى ٠

ومن دواعى العجب أن مظاهر التمييز العنصرى لاتزال تمارس فى جنوب أفريقيا وفى بعض الولايات المتحدة حتى اليوم ٠

وهيئة الأمم أرادت أن تجتث التمييز العنصرى من جذوره ودفعت إلى مؤتمر من أقطاب سبع عشرة دولة فى علم البيولوجيا وهى فرنسا وألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة وكندا وبلجيكا وتشيكوسلوفاكيا واليابان والمكسيك والنرويج وروسيا وبولندا وفنزويلا والهند ونيجيريا والسنغال ·

اجتمع علماء هذه الدول فى موسكو عام ١٩٦٤ م وأصدروا بيانا مكونا من ثلاث عشرة مادة أهمها ماجاء فى المادة الأولى التى تقول : (كل الكائنات البشرية التى تعيش اليوم تنتهى إلى نوع واحد هو النوع البشرى وكلها ترجع إلى سلالة مشتركة وأصل واحد · وهناك خلاف فى وجهات النظر فيما يتعلق بالكيفية والزمن اللذين تفرقت فيهما الجماعات البشرية عن هذا الأصل المشترك) ·

والآن وبعد تلك البحوث المستفيضة لأبرز علماء البيولوجيا فى الشرق والغرب أصبحت مسألة وحدة الجنس البشرى حقيقة ملموسة ولا تقبل بأى حال جدلا أو نقاشا ·

تجاوب الإسلام مع فطرة الإنسان

لقد بنى الإسلام تعاليمه على التجاوب مع فطرة الإنسان والتمشى مع غرائزه وميوله ، والتوافق مع واقعه الذى هو فيه وواقعه الذى هو عليه وهو أنه جسم له حظ ومتعة ، وروح ، له شأن آخر ، وأن له شخصيتين إحداهما يعبر بها عن ذاته وأخرى يكون بها لبنة فى بناء المجتمع والإنسانية ، وأن له بكل هاتين الشخصيتين حقوقاً وعليه واجبات ليرقى به إلى القمة السامية ·

إنه يرعى خلق الإنسان فى غير إنكار لغرائزه ولا إهمال لضروراته ، وسبيله فى كل ذلك توجيه هذه الغرائز وهذه الميول ، الوجهة القويمة التى تمكن الإنسان من الحياة السعيدة والمعيشة الراضية دون أن يجور على الجانب الروحى منه ·

الإسلام لا يحارب غرائز الإنسان ، ولا يخنق ميوله ويخمد مشاعره ، وإنما يعنى بها كل العناية ، يربى هذه الغرائز ويضبط تلك الميول ويهذب واقع الإنسان الذى هو فيه والذى هو عليه ، إنه يتوافق مع فطرته وتكوينه ومع ملابساته وضروراته ·

الإسلام لا يحارب الإنسانية مما فيها من ميولٍ دافعة إلى حب الدنيا ومباهجها وملذاتها ، ومن نفسٍ أمّارة بالسوء وإنما ينظر اليها بحكمة فيخفف من شرتها ويكسر من

حدّتها ويمسك من جماحها ، ومن ثم يقدم لها الدواء النافع لتستقيم على الطريقة وتأخذ نصيبها من الدنيا ونصيبها من الآخرة من غير إفراط ولا تفريط ٠

محاربة الإسلام للروحية البحتة والمادية البحتة

الإسلام يحارب الروحية البحتة ، الانقطاع عن الدنيا ومباهجها ومتعها ، الإعراض عن التفكير فيما أودعه الله فى أرضه وسمائه من أسرار ، والانصراف عن قوى الإنتاج المودعة فى هذا الكون كل ذلك يمقته الإسلام كل المقت بل يحاربه بكل قوة ، ذلك لأن الروحية البحت تعطيل لقوى التفكير والإرادة والعمل ، قتل للأمانى والمطامع ، إهمال للأمانة التى حملها الإنسان خليفة الله فى أرضه ٠ هذا الإنسان الذى خرّت له الملائكة ساجدين ، هؤلاء المنقطعون لا يعملون ولا يفكرون ولا ينتجون ، لقد عجزوا عن الحياة فهربوا منها إلى ما أشبههم بالمغشّى عليه أمام شلال التيار يجرى والمياه تتدافع والشلال يدوى والزبد يتناثر وهو واقف بعيداً لا يكاد يسمع ، ولا يكاد يحس ولا يكاد يرى كأن فى أذنيه وقراً وعلى عينيه غشاوة ٠

عبادة الله لاتأتى عن طريق التبتل والزهد فى الدنيا وإنما تأتى عن طريق العمل فى عمارة الكون ، عن استكشاف الأسرار والمنافع الكامنة فى أطباق الأرض وأجواء السماء ٠ واستغلالها لمصلحة الإنسان ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ (٢٧ سورة الحديد) ٠

عبادة الله تأتى عن طريق وحدانيته تعالى واستحقاقه وحدهُ للعبادة ، القرآن يطلب إلى الناس أن يضربوا فى الأرض وأن يعملوا بقواهم فيما سخر لهم من أرض للزراعة ومعادن للصناعة وبحار للتجارة

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (سورة البقرة ٢٩) ٠

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(١٤ سورة النحل) ٠

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ (١٥ سورة الملك) .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (١٠ ، ١١ سورة النحل) .

ما أروع هذه الآيات وما أبدعها وما أصدقها وما أعقبها وأهداها ! أين قلوب أولئك الروحانيين المنقطعين عن الدنيا ومباهجها ومتعها الساهين اللاهين عن سنن الكون وأسراره ، ألا تلين قلوبهم لهذه التوجيهات الرشيدة والتعليمات القويمة ؟ ما أشد قلوبهم وما أصلبها ! إنها كالحجارة أو أشد قسوة .

أين عقولهم ؟ ألا تميز الخبيث من الطيب والشر من الخير ؟ ألا تفكر فى ملكوت السماوات والأرض فتتعظ وتعتبر وتعمل لصالحها وصالح الإنسانية ؟ ما فائدة وجودهم بين الناس إنهم لاشك عالة على أسرهم وعلى مجتمعهم وعلى البشرية كلها .

لقد نهانا رسول الله عن الرهبانية بقوله (لارهبانية فى الاسلام) ولهذا الحديث قصة حدثت فى عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ففى أحد الأيام فى رمضان كان رسول الله جالساً يحدث المسلمين فى شؤون الدين يشرح لهم قصص القرآن ويصف أهوال يوم القيامة فبكى الحاضرون خوفا ورهبة من عذاب الجحيم .

وعقب الدرس ذهب عشرة من الصحابة رضوان الله عليهم وهم أبوبكر الصديق وعلى وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عمر وأبوذر الغفارى والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسى وسالم مولى حذيفة ومعقل بن مقرن وعثمان بن مظعون الجمحى ، واجتمعوا فى بيت الأخير واتفقوا على أن يصوموا النهار ويتعبدوا الليل وألا يناموا على الفراش وألا يأكلوا اللحم ولا الريم وألا يقربوا النساء وألا يستعملوا الطيب وألا يلبسوا المسوح وأن يرفضوا الدنيا ويسيحوا فى الأرض .

ولما بلغ الرسول ما أجمعوا عليه ، ذهب عليه الصلاة والسلام إليهم فى دار عثمان ابن مظعون فلم يجد إلا إمرأته أم حكيم فقال لها الرسول : (أحق مابلغنى عن زوجك وأصحابه ؟ وخافت أم حكيم أن تنكر ما حدث فتكون كاذبة أمام سيد الخلق وخشيت أن

تذكر الحقيقة فتكون قد تكلمت عن زوجها فى غيبته ولكنها قالت : يارسول الله إن كان عثمان أخبرك فقد صدقك فانصرف الرسول) ٠

ولما عاد عثمان إلى بيته أخبرته أم حكيم بما حدث فذهب عثمان إلى من كانوا معه من الصحابة وتوجهوا جميعا إلى الرسول فلما أقبلوا عليه قال لهم : (أُنبئت أنكم اتفقتم على كذا وكذا) قالوا : نعم يارسول الله وما أردنا إلا الخير فقال الرسول : « إنى لم أومر بذلك » ثم قال : « إن لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فإنى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم الدسم وآتى النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » ثم دعا الرسول ﷺ الناس إلى اجتماع وخطب فيهم قائلا : ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا أما أنى لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا فليس من دينى ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع وإن سياحة أمتى الصوم ورهبانيتهم الجهاد ٠

أعبدوا الله تعالى وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم ، فإنما هلك من كان من قبلكم بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدد الله تعالى عليهم ، فأولئك بقاياهم فى الديار والصوامع ٠

وحدث بعد ذلك أن نزل الوحى على الرسول بقوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ٠

ذلك هو ميزان الحياة البشرية فى نظر الإسلام وتقديره وهو نظر قائم على الواقع وتقدير مقدر على طبيعة الإنسان وفطرته ومدى مافيه من استعداد للكمال البشرى ٠

المادية البحتة

والاسلام حارب المادية البحت أشد مما حارب الروحية البحت واعتبرها من دلائل التكذيب بيوم الحساب ٠

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ⑧ ﴾ (سورة التكاثر) ٠

حارب الإسلام التكالب الشخصي على الدنيا لأنه ينمي في القلوب العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع . ويقضي على عوامل التعاون وبواعث النفع العام . لقد قص علينا القرآن أحوال المتكالبين الذين يتهالكون على طلب المادة وجمعها ، وينسون ما أمر الله به من التعاون والعمل لخير البشرية . قص علينا صاحب الجنتين الذي قال لصاحبه :

﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (٣٤-٣٦ سورة الكهف) .

كما قص علينا شأن قارون الذي جمع أموالا لا حصر لها ونسي حق الله وحق مجتمعه وحق الإنسانية فدارت الدائرة عليه وعلى دنياه

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾
(٨١ سورة القصص) .

أمة وسط

ومن فضل الله على المسلمين أن جعلهم أمة وسطا تعطي الجسد حقه والروح حقها ، فأحل لنا الطيبات من الرزق لتتسع دائرة نعمه الجسدية علينا وأمرنا بالشكر عليها ليزيدنا منها فوائد روحية وعقلية معا .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

المراد من قوله تعالى ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ هي التي تتمثل فيها صفات البشرية من جانبيها الروحي والمادي ، فهي أمة وسط بين عالم الخير وعالم الشر . فالأمة التي تهتدي بهدى الإسلام هي أمة وسط بين عالم الخير وعالم الشر . فالأمة التي تهتدي بهدى

الاسلام هى أمة وسط بين هذين العالمين تتمثل فيها أهم خصائص البشرية على الوجه الصحيح .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ أنه ﷺ يمثل أكمل انسان فأنتم ـ أمة محمد ـ شهداء على الناس تمثلون خير مافيهم ، ومحمد شهيد عليكم يمثل الصورة الكاملة التى يسمو إليها البشر .

تبارك الله .. هذا الاسلام منهاج كامل غيرمنقوص ولا مسبوق ولا ملحوق ، منهاج للحياة بكل مقوماتها فى عالم الروح وعالم المادة .. دين يزخر بحيوية نافعة فى روحانية باهرة ويفيض إنسانية سامقة فى واقعية عاملة ، دنيوية كأن ستعيش أبدا ، وأخروية كأن ستموت غدا ...



دعوة الإسلام إلى التفكير النافع

خلق الله الإنسان فى أحسن تقويم · وهب له العقل ليتفكر ويتدبر ويتذكر ، وإذا تصفحنا القرآن وتلونا قدرا منه وجدنا آيات تلو آيات تطلب إلى الإنسان أن يفكر ويستنبط وما إلى ذلك من أعمال العقل ووظائفه :

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ ﴾

(٦ ـ ١١ سورة ق) ·

الطريق إلى معرفة الله فى الإسلام هو العقل ، وكلما ارتقى هذا العقل واتسعت آفاق نظراته كلما وضحت للإنسان معالم الطريق وتكشفت له الحقيقة الكبرى فامتلأ بها صدره يقيناً واطمئناناً ·

العلم الحديث يعطينا إطاراً جديداً لهذه العقيدة فكلما اتسعت معارفنا عن الكون وعمقت بدا لنا عمل الله فى الخلق أروع وأبدع صنعا ·

والإسلام يركز كفاح العقل فى مجالات النظر والبحث ويطمئن إلى النتائج التى يصل إليها فى تلك المجالات لأنها جميعها تتجه إلى الحقيقة الكبرى والتعرف إلى الخلاق العظيم الذى أحسن كل شىء خلقه · وغاية رسالة الإسلام هى إثارة مافى الفطرة الإنسانية من أشواق إلى الله ، وإنارة الطريق إليه بالنظر والتأمل فى ملكوت السموات والأرض ·

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾
(١٦٤ من سورة البقرة) .

فإذا انتهى الإنسان إلى هذه الغاية امتلأ قلبه بالخير ، وأشرقت نفسه بالفضيلة وتحركت جوارحه إلى العمل الصالح لخيره وخير أمته وخير البشر جميعا . حين نزل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (١٩٠ - ١٩١ سورة آل عمران) .

قال النبى ﷺ : (**ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتذكر أنه سبحانه وتعالى لم يخلق هذا الكون المملوء بالأسرار والمنافع الا لينتفع بها الإنسان**)

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (٢٩ سورة البقرة)

فإذا لم يستعمل الإنسان عقله فى التفكير النافع وأعرض عن النظر فيما خلق تظل أسرار الرحمة كامنة فى جوف الأرض وجو السماء ، التفكير فى الأرض وما حوت وفى السماء وما اشتملت أمر على جانب كبير من السهولة واليسر ولكن التفكير الذى يريده الإسلام هو ذلك التفكير المصحوب بالتذكر ، التفكير الذى ينساب من مجال العقل إلى شعاب النفس فيوقظ به القلب ويرهف الوجدان ويمازج العواطف فيصل ما بين العقل والقلب وإذا اتصل العقل بالقلب فهناك صمام الأمان الذى يعصمه من الضلال والغرور ، لقد سخر الله هذا الكون للإنسان ومنحه القدرة على استكشاف أسراره واستخراج كنوزه

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ ﴾ (٢٠ سورة لقمان) .

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (٢٥ سورة الحديد)

والله سبحانه أقسم ببعض المخلوقات

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ ﴾

أقسم وهو سبحانه غنى عن القسم لينبه إحساسنا ويلفت أنظارنا إلى ماتحويه هذه المخلوقات من أسرار ٠

والقرآن ينبه إحساسنا ويوجه عقولنا إلى ما فى الحيوان والنبات والماء من ثروات عظيمة

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ ﴾ (٥ سورة النحل)

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ (١٤١ سورة الأنعام) ٠

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (١٤ سورة النحل) ٠

هكذا يوجه القرآن الإنسان إلى التفكير فى الكائنات وتعرّف خواصها وأسرارها وخيراتها وبركاتها ، وهناك آية فى القرآن يستنتج منها أن المجموعة الشمسية خلقت لكى يدرس الإنسان علم الفلك ويستخدمه فى حياته ٠

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ ٠

وكثيراً ما يشير القرآن إلى إخضاع الطبيعة للإنسان باعتبارها أحد الآيات التى تبعث على الشكر والإيمان :

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝١٣ ﴾ ٠

ولقد نهى القرآن أولئك الذين هم عن أسرار الكون ساهون لاهون ، ونهاهم عن

الجمود والخمود ووصفهم بأنهم فى منزلة الأنعام بل أضل من الأنعام .

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (١٧٩ سورة الأعراف)

والغفلة أخطر داء يصيب الأمم ، وما ترى لقوم لهم قلوب غير انها لاتفقه كما يفقه الناس ، ولهم أعين ولكنها لاتبصر كما يبصر الناس ولهم آذان ولكنها لاتسمع كما يسمع بنو آدم .

إن العقلية العلمية على أهمية قدرها وجلال نتاجها تظل ناقصة إذا لم يزف يقظتها وفعلها بيقظة وفعل من جانب آخر من جوانب شخصية الفرد والمجتمع أعنى الضمير الوازع الخلقى أو الوازع الدينى ، والعقل يحدد الغايات ويبنى الوسائل ويرسم الخطط ويميز الصواب من الخطأ ولكنه كثيراً مايقف عاجزا دون الحفز إلى الحق والاستنارة إلى الخير أو دون الانضباط والارتداع عن مزالق الشر والفساد وذلك لسبب نضوب معين الضمير وخفوت صوته ، ثمة ضمير مسلكى ، وضمير إنسانى كل منهما يقوى أو يضعف ، ويفعل ويعجز بقدر مايتكون فى المجتمع من خلايا فردية أو جماعية ترعى الضمير وتصونه وتبقيه حيّا يقظاً نامياً فيتسرب منها فعله إلى خلايا المجتمع الأخرى حافزا أو رادعا .

القرآن يطلب من الإنسان أن يفكر ويتدبر وأن ينظر ويتساءل وأن يعتبر ويستنبط ، والقرآن لايفتح المجال للبحث فحسب بل يشبع كذلك الغريزة العقلية فى الإنسان ويستميلها ، بل يدفعها ويلزمها أن تقوم بوظيفتها مما يضرب لها من أمثال ، وما يذكره من آيات ، فهل فكرنا فى ملكوت السموات والأرض تفكيرا نافعاً ؟ هل تدبرنا واستنبطنا ماينفعنا فى الحياة ويرفع مستوى الإنسانية إلى الذروة ؟

لقد فكر الإنسان فى الكون وعناصره وفى الأرض وطبقاتها وفى السماء وكواكبها وفى البحار وكنوزها وانطلق فى تفكيره وأبحاثه حتى وصل إلى تفجير الذرة وصعد إلى السماء حتى وصل إلى القمر ولكن هل هذا يخدم الروح ويهذب العقل ويمازج العواطف ؟

الإسلام يبارك على الإنسانية هذه الخطوات السريعة نحو المدنية ويستبشر بهذه الانتصارات الحاسمة التى استطاع الإنسان أن يحققها بالتغلب على قوى الطبيعة وتسخيرها لمشيئته وتفرده بالسيادة على هذه الأرض التى استخلفه الله عليها ، الإسلام يبارك هذه الخطوات حين تنزع بالإنسان إلى جانب الروحية ويحاربها حين تستخدم فى

العدوان وتخريب المدن وتدمير العمائر وترويع الآمنين والقضاء على نعم الله فى خلقه ٠

إن تقدم الإنسان فى هذا العصر قد ملأ عليه دنياه بزخارف الحياة ومتعها ولذاتها وإن هذا التقدم قد امتد إلى أحاسيسه فأيقظها ومشاعره فأثارها وكان من هذا أن انحرف الكثيرون عن طريق الهدى واتبعوا أهواء النفس وشهواتها ، إنها انحرافات أوهزات نفسية يمر بها العالم اليوم كان من آثارها أن زعزعت الإيمان واستخفت بالأخلاق واستهانت بالمثل العليا ٠

لقد أتت الآلة فى عصرنا هذا ، عصر غزو الفضاء ، أتت على ماتبقى من ماء الينبوع فأنضبته ووجهت الجماهير إلى ينابيع أخرى لاتمت بصلة إلى تلك الينابيع الزاخرة بالعاطفة والانفعالات فأغرتهم بارتيادها والنهل منهـا وكانـت من قوة الإغـراء بحيث أنستهـم (الينابيع) الأولى فأقبلوا عليها إقبال من وجد ضالته المنشودة يرشفون منها ما واتتهم الفرصة ليمتعوا بها حيوانهم وينسوا العبء الذى حملوه على كواهلهم بالرغم منها ٠

ولعلهم اليوم بعد ما تنبهوا إلى ماتجره عليهم الآلة من ويلات وضياع وما تفرضـه عليهم من تبعات ، قد أدركوا أنهم كانوا مضلين ، لأن ما أمنتهم به هذه الآلة وما قدمته لهم قد أفقدهم أعزّ ما يملكون وأغلى ما يباهون به ويحرصون عليه ، أعنى المحبة ، تلك المحبة الصاعدة عن القلب التى يستشعرها كل امرىء يعى حقيقته فيسمو بعواطفه التى تجيش بها نفسه ، وينفعل بها وجوده ٠

ليست العلّة فى هذا التقدم العلمى ، وطغيان الآلة فحسب ، بل العلّة فى نفوس العلماء والمخترعين وقادة الفكر ٠٠ فى وجدانهم ، فى نظرتهم الخاطئة إلى الإنسان ، فى قصـور فهمهم الدور الذى يجب أن يؤديه هذا التقدم ، لا بالنسبة للامتيازات التى حققها لرفاهية الإنسان فحسب ، بل بالنسبة للقيمة الحقيقية للإنسان ذاته ، وهى توكيد إيمانه بنفسه ، وبخالقه وبالحياة ذاتها ٠٠ هذه الحياة حياتهم هم التى يحيون مأساتها ويحاولون جهدهم الفرار منها بعد أن ملؤوها صخبا وعنفا ٠

لقد بلغ الغرب الأوج فى الاختراع وابتكار وسائل التدمير فلم يبقـوا فيها زيادة لمستزيد ، بيد أن تفكيرهم فى الإنسان ذاته ، فى أخلاقه ، فى علاقته بأخيه مابرح متخلفاً أشد التخلف ٠٠

أجل لقد نجحوا فى الموت ولكنهم أخفقوا فى الحياة ٠٠

خليفة الله في أرضه

الإنسان فى هذا العالم هو الخليفة فيه ، وهو القوام فى هذه الأرض سخر الله له كل شىء فيها ، سخر له الماء والهواء والنجوم يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر والشمس والقمر دائبين ، والليل والنهار .

قال تعالى فى خطابه للملائكة عن الإنسان الأول آدم أبى الإنسانية :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٤) ﴾ ..

ليس من شك أن هذه الآيات تعلو بالإنسانية فى نشأتها الأولى إلى أعلى مدارج الكمال ، فالإنسان هو الخليفة فى الأرض ، وهو الذى قدر له سبحانه وتعالى أن يعمرها ويصلح فيها ويسيطر عليها ، ويسخر له كل شىء فيها ، ثم قد أعطاه سبحانه الاطلاع والمعرفة ووهب له الاستعداد العلوى الكامل ، فهو يعلم بتعليم الله الأسماء كلها ، يعرف حقائق الأشياء الأرضية ثم يعطيه الكرامة العظمى فيأمر الملائكة بأن يسجدوا له فسجدوا ، ويأبى إبليس أن يسجد فيطرده الله من رحمته ويخرجه مذموماً مدحوراً ، ذلك تكريم الإسلام للإنسانية الأولى .

والتكريم لمعنى الإنسانية وحدها ، فلا فرق فى هذا التكريم المستمد من التكوين الإلهى للانسان بين عجمى وعربى ، ولا بين أبيض وأسود ، ولا بين غنى وفقير فليس هناك ثمة آرية أو سامية أو حامية • ليس هناك ثمة شعب الله المختار ، بل الإنسانية كلها هى الخليفة المختارة فى هذه الأرض بمقتضى الإرادة الأزلية •

الفرد متى علم أنه خليفة الله فى أرضه اضطر أن يتخلق بأخلاق موكله ، من العلم والنزاهة والعدل والرحمة والمساواة بين الناس وإصلاح شؤونهم ، لا فرق فى ذلك بين مؤمنهم وكافرهم ، فالله سبحانه وتعالى رب العالمين لا رب قوم دون آخرين •

إذا ذكر الإنسان أنه من سمو الفطرة وشرف التكوين بحيث تسجد له الملائكة فأى وازع أقوى من هذا يزعه من اقتراف المنكرات واجتراح السيئات ؟ وأى دافع أشد منه يدفعه لطلب الغايات السامية وبلوغ الأهداف الفاضلة ؟•

إن هذا الكائن الحى •• هذا الإنسان يحمل بين جنبيه قلباً منحوتاً بأكرم العواطف وأنبل الوجدان ، ولقد وهبه الله العقل والإدراك •

ليس هناك كائن أعلى من الإنسان كعبا فى الطبيعة يعتبر بحق ودون تردد أينع ثمرة للقدرة الآلهية ، ولو أضفت إلى هذا ما منحه الله من السلطان البعيد المدى على الطبيعة ومواردها ، وما وهبه من وسائل التدبير والتربية لكائناتها • لتحققت أنه خلق ليتولى حكومتها ويبلغ أقصى ما يصل إليه كمالها •

فإذا عنى الإنسان بإحياء هذه الحقيقة فى نفسه وبالإيمان بالإرادة الأزلية فكيف لا يترفع بطبعه عن الدنايا ؟ وتسمو به إلى الذروة ، وهل يهون عليه بعد ذلك أن ينزل إلى مستوى الحيوانات فى غفلاتها صادفاً عن الغايات الشريفة والأغراض الكريمة ؟

الشعور لا بكرامة الإنسان فحسب ولكن بسموه الأصيل ، وبأنه المخلوق المميز • ماهو بحيوان فى نظر الإسلام •• إذن لأنهت حيوانيته أن قد جعل فى الأرض خليفة •

وتحسب أنك جرم صغير ـــ وفيك انطوى العالم الأكبر

نظرة الإسلام الرحيمة الى الإنسان

والإسلام يعترف للإنسان ببشريته فهو بشر لا ملك ، له أحاسيسه ومشاعره ، وله آماله ، وهو مع هذا يحتفظ له بشخصيته كاملة فلا يذيبها فى سلطة حاكم دنيوى أو رئيس دينى ، ومن طبيعة البشر الخطأ والانحراف عن الطريق السوى فإذا انحرف الإنسان أو

أخطأ فهو إنسان لا تسقط إنسانيته ، ولا تهدر كرامته ، ولقد فتح الله له باب التوبة والمغفرة وأوجد وسائل التطهير من خطاياه بالعبادة ، من صلاة وحج وزكاة إذ ليس أضيع للإنسان من أن يسقط فى مجتمعه بخطيئة يرتكبها أو معصية يقترفها ، فإن ذلك جدير بأن يجعل منه حطاماً مهدماً ، أو شيطاناً ماردا ، إن لم تمسكه يدٌ ترحمه فتمسح خطيئته وتقوده فى رفق إلى مدخل الإنسانية الفسيح ٠

قال تعالى :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ ٠

هكذا ينظر الإسلام إلى الإنسانية نظرة كلها رحمة وشفقة وعطف وحنان لم يجردها مما فيها من غرائز دافعة إلى حب الحياة ومباهج الدنيا ومتعها ، والنفس أمارة بالسوء داعية إلى الخطيئة ، وإنما يفيض عليها من تعاليمه السمحة ما يخفف من شرتها ويكسر من حدتها ، ويمسك من جماحها وذلك لتستقيم على الطريقة المثلى ٠

ذلك جدير بأن يجعل من هذا الإنسان إنسانا بشريا ٠٠ لا ملكا كريما ، ولا شيطانا رجيما ٠٠ إنه الإنسان الذى أراده الله سبحانه ليكون خليفة فى الأرض ٠





منهج الإسلام في بناء الإنسان

يريد الإسلام أن يكون الإنسان دائما فى صورة أرقى وأسمى • إنه ينظر إليه نظرته إلى مخلوق حى له روح وله عقل وله قلب ، يريد أن ينقله من عالم النباتات وهو عالم فيه إحساس إلى حد ما إلى عالم الحيوان إلى عالم فيه العقل وفيه العاطفة وفيه الإحساس ، إنه يريد أن يكون فى المجتمع عضويا عاملا •

إن الأسرة تتألف من أب وأم وأولاد ونرى الأطفال يؤثر بعضهم فى بعض ويتأثر بعضهم ببعض كل واحد منهم يشارك إخوانه فى الأفراح والأتراح ، كل فرد مكلف أن يحسن عمله الخاص ويفعل الخير ويبتعد عن الشر ، لأن ثمرة عمله عائدة على الجماعة •

هكذا تتجلى فى الأسرة كل ما للجسم العضوى من مميزات فإذا سلمت الأعضاء سلم الجسد كله وإذا سقم واحد منها سقم الجسد كله ، قال النبى ﷺ :

« مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى »

الفرد لبنة فى جسم المجتمع ولا مجتمع بدون أفراد • فإذا كانت اللبنه هشة ضعيفة ضعفت اللبنات وتداعى البنيان للسقوط والعكس إذا كانت اللبنة صلبة قوية تماسك البناء وتشابكت أجزاؤه وترابطت أطرافه ترابطاً يحميه من عوامل التعرية أمدا طويلا ، قال النبى ﷺ :

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » « المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى » كل عضو فى الجسم ينفع سائر الأعضاء وينتفع بسائر الأعضاء ويضرها ويتضرر بها والذى يصح فى الأسرة يصح فى المجتمع •

والعضو الذى ينفصل عن الجسد يموت كالورقة تسقط من الشجرة والفرد ينفصل عن المجتمع • الأفراد الذين يتماسكون فيما بينهم تماسك الخلايا فى الجسم الحى إنما يمثلون

مجتمعا رائعا ، يتعاون صغاره وكباره فى رفع مستواهم وأعلاء شأنهم وفى السير قدما لمستقبل أفضل وحياة أزهر ٠

الإسلام منح كل فرد شخصية مستقلة وأثبت له حق الملكية لماله وحق السيطرة على نفسه وولده وحق التصرف بما فيه مصلحة له كما جعله لبنة فى بناء المجتمع يعمل الخير للخير ويرشد الضال إلى الطريق السوىّ ويكافح ويناضل بل ويحارب فى سبيل ردّ العدوان ، ويساهم بكل مايستطيع فى مرافق الحياة والمنافع العامة أوجب عليه حقاً فى ماله بالبذل والعطاء والإنفاق فى سبيل الحق وفى مقاومة الظلم والطغيان وإعانة الفقراء والمساكين ، والزكاة التى فرضها الإسلام هى أقوى صلة وضعها هذا الدين لتنظيم العلاقة بين الأغنياء والفقراء ، وكما أن الإسلام فرض على الفرد واجبات للمجتمع فقد أثبت له أيضا حقوقاً على المجتمع ، فكلف المجتمع الممثل فى أولى الأمر بتربيته ، وتعليمه وحفظ دمه وماله وعرضه وكل مايملك ٠

الإسلام دعا إلى توجيه القوى الإنسانية نحو الغاية الكبرى وهى مصلحة الجماعة واستدرار مافى كل واحد من أفرادها من ينابيع الخير ، ففروض الكفاية التى قررها الإسلام هى لتوجيه القوى الإنسانية كلٌ فيما خصص له ، ومن لاقدرة له فى أمر يعاون القادر عليه تهيئة الجو الصالح له وتمكينه من أن يعمل ، فالتفقه فى الدين فرض كفاية والجهاد فرض كفاية ودراسة الهندسة فرض كفاية وكذلك الشأن فى علوم الطب والزراعة وكل عمل أو صناعة لاتستغنى عنها الجماعة ، ويقوم عليه نظامها الاقتصادى والاجتماعى والسياسى هو من فروض الكفاية التى يقوم بها البعض واذا لم تؤد ، فالمسؤولية تقع على الجميع ، قال الشاطبى فى كتاب الموافقات : « إن القيام بذلك الغرض (أى فرض الكفاية) قيام بمصلحة عامة فهم مطالبون بسدها على الجملة فبعضهم قادر عليها مباشرة ، وذلك من كان أهلاً لها ، والباقون ـ وإن لم يقدروا ـ قادرون على إقامة القادرين ، فمن كان قادراً على الولاية فهو مطلوب بإقامتها ومن لايقدر عليها مطلوب بأمر آخر هو إقامة ذلك القادر وإجباره على القيام بها ٠ فالقادر إذن مطلوب بإقامة الغرض ، وغير القادر مطلوب بتقديم ذلك القادر ، إذ لايتوصل إلى قيام إلا باقامته من باب مالايتم الواجب إلا به فهو واجب » ٠

هكذا يتجه الإسلام فى تنظيم الجماعة الفاضلة نحو العمل الإنسانى بتضافر كل الطاقات والانتفاع من كل المواهب والملكات ٠

وفوق ذلك يتجه الإسلام فى العبادات توجيهاً اجتماعياً ، ففى الصلاة والصوم والحج تأليف اجتماعى ، هاهو الفقير بملابسه البالية يقف فى الصلاة بجوار الغنى ذى الثياب الفاخرة ، ويجلس الأمير بجوار الحقير ، وفى الصوم تربية الإحساس الاجتماعى بالشعور بآلام الجوع ، والعيش كما يعيش المحرومون ، والحج نسك روحى واجتماعى معاً ، والزكاة تنظيم اجتماعى اقتصادى .

هكذا يربى الإسلام المؤمن ليكون عنصراً عاملاً نشطاً مؤتلفاً مع المجتمع ينفع ولايضر ويألف ويؤلف . قال النبى ﷺ : « **المؤمن مألف ، ولاخير فيمن لا يألف ولا يؤلف** » .





التوفيق بين الفرد والمجتمع

قال بعض العلماء : إن الإنسان حيوان اجتماعى وقال بعضهم : إن الميل إلى الاجتماع غريزة فى الإنسان وقال آخرون : إن الميل إلى التجمع فرضته ظروف الحياة وليس فطريا فيه . وعلى كل مهما اختلفت الآراء فهم مجمعون على ان الاجتماع أمر ضرورى لحياة الإنسان . من الصعب جدا لأى إنسان أن يتخذ له عن مجتمعه مكانا قصيا ويعيش وحيدا لايختلط بأبناء جنسه ولايتعامل معهم .

فلابد أن يحيا فى حالة اجتماعية ولاتوجد تربية إلا فى مجتمع ولابد للمجتمعات من اللجوء إلى التربية ومن البديهى أن يتأثر المجتمع حين يضع نظامه التربوى بما فيه وبتوارثه الحضارى ، وبحاضره وواقعه الراهن وبآماله ومطامحه ، إذا كان المجتمع محافظاً على تقاليده وعاداته فإنه لاشك يحجم عن تبنى الأفكار الجديدة والنظم الحديثة فى تربية الأولاد فالعملية التربوية تصبح على جانب كبير من الصعوبة كونها موجبة إلى الأجيال الجديدة الصاعدة التى يتحتم عليها أن تعيش فى زمان يختلف عن الزمان الذى عاشت فيه الأجيال السابقة ، من هنا تنشأ مشكلة التوفيق بين الفرد والمجتمع ، بين تنمية فردية الإنسان وتغذية قدراته ومواهبه ، وفى الوقت نفسه المحافظة على المجتمع ، على طابعه القومى ، والعمل على تحقيق توازنه وازدهاره وتلبية مطالبه ورغباته وخدمة أهدافه المشروعة السامية .

إن هذه العملية لايمكن أن توصف بالصحة والسلامة مالم تعد الناشئين لهذا التغيير وخاصة فى عصرنا هذا ، عصر الذرة والفضاء ، إن المجتمع اللبق الواعى الذكى الناشط هو الذى يتطلع إلى مستقبله من خلال نظام تربوى يحفظ له أصالته القومية ويؤمن له السير فى موكب التقدم والرقى ويحقق أهدافه المشروعة السامية ، من هنا تتجلى أهمية العناية بالفرد وتربية شخصيته الفكرية والأخلاقية والاجتماعية .

إن كل تربية لاتعنى بالفرد ، بعقله وعاطفته وطبعه ، مآلها الفشل إنها تربية عاجزة عن الارتفاع بالفرد ٠

ومن ثم بالمجتمع إلى مستوى الخلق والإبداع والإنسانية الرفيعة والإسلام يربى الفرد والمجتمع على السموّ إلى ماهو أفضل وأخصب ، إلى ماهو أعمق وأرحب إلى وطنه وأمته ، إلى الإنسانية بأسرها ، إنه إذا لم تقم التربية على أساس راسخ متين من فهم عميق للفرد والمجتمع ، ويعمل جاداً على التوفيق بين هذا الفرد وهذا المجتمع وتوفير الانسجام التام بين مقتضياتهما ومطالبهما ورغباتهما وحقوقهما وواجباتهما فسوف يكون مصيرها الفشل ، وتذهب الجهود المبذولة لرفع مستوى التربية هباءً منثوراً ٠

الإسلام يوجه الإنسان فى الحياة ويسانده على أن يحصل لنفسه وللجماعة الإنسانية أسمى درجة من الكمال الإنسانى ، فى الروح والخلق والعقل ، وهو ينظم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان فى كل مظاهر الحياة ، لأنه قانون الفرد والجماعة والعلاقات المحلية والدولية على السواء ، وكل تكييف لعمل الإنسان ـ حسب هذه المبادىء ـ التى جاء بها الإسلام ـ ويعتبر عبادة مشروعة كل لحظة من لحظات الحياة تنفق على هذا الوجه ، كل لحظة يقضيها العالم فى معامله من أجل الله والإنسان ، كل تأمل وتدبر ، كل حركة انبثقت عن مثل هذا الباعث تعتبر فى نظر الإسلام عبادة لله تعالى وتقديساً له وتمجيداً ، ولهذا نقرأ فى الأحاديث النبوية « **الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها التقطها** » ٠ « **من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع** » ولقد أطلقت كلمة العلم هنا إطلاقاً ، فلابد أن تبقى هكذا عامة تتضمن كل مظاهر العلم والمعرفة بأنواعها المختلفة ، الإنسان فى دائرة وجوده الضيقة سيد نفسه فى تصرفاته وهو المسؤول عنها وعن كيفية استعماله للقوى التى وهبت له ، وفى مقدوره أن يرتفع بنفسه إلى أعلى مستوى إنسانى وأن يهبط بها إلى أدنى الدرجات بميوله وأعماله وتصرفاته واتجاهاته ، وليس نتيجة لخلق موروث وطبيعة خيرة أو شريرة ، فلقد أنكر الإسلام كل الإنكار الخطيئة الموروثة وماشابهها وقرر أن الطفل يولد صالحا لأن يكون خيرا أو شريرا ، وأن آباءه وتعليمه وخلقه وميوله المكتسبة هى التى تصيره هذا أو ذاك ، فأفعال الإنسان هى التى تجعله ناجحا أو مخفقا فى الحياة وهى التى تؤدى به إلى الجنة أو النار وهو مسؤول عن مصيره ، لأنه نتيجة أفعاله ٠

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ (٣٩ ـ ٤١ النجم)

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (٣٨ من سورة المدثر)

ولكى نصل إلى الغرض المنشود ونحوز النصر المبين فى العمل للتوفيق بين الفرد والمجتمع ينبغى أن نضع نصب أعيننا مايأتى :

أولا : أن نتجنب صب الأفراد فى قالب واحد فقد خُلِقوا متباينين فى مواهبهم وملكاتهم وليس من شك أن صبهم فى قالب موحد يقضى على فردية الإنسان ، وفى هذا ـ لاريب ـ خسران لهم ولمجتمعهم •

ثانيا : أن ننشىء الفرد على حب الحق والخير والصدق والصبر والجمال وننمى فيه الجانب الروحى من التربية وهو الايمان بمصدر الوجود وإفراده بالعبادة والتقديس والدعاء والاستعانة •

ونشجعه دوماً على ذلك بكل الوسائل الممكنة ليشعر بعزة نفسه وعلو قدره ، والتربية لاتؤدى رسالتها إلا إذا ارتفعت بالإنسان إلى آفاق المحبة والتضحية والنضال من أجل الحق والمثل العليا ، وحينئذ يتحقق النصر ، النصر فى التوفيق بين الإنسان والغير ، بين الفرد والمجتمع ، النصر فى تزويد الإنسان بزاد من مكارم الأخلاق ومحامد الخصال •

يجدر بنا أن نشير إلى أن الفرد يولد فى عائلة ويعيش فى مدينة أو قرية ، ولكل من المنزل والمدينة والقرية لون وطابع ، هذا اللون وهذا الطابع لهما أثرهما فى الفرد ولابد تبعاً لذلك من أن تأخذ التربية هذا اللون وذاك الطابع بعين الاعتبار فى شتى ميادين نشاطها العقلى والأخلاقى والعملى •

إن تحقيق الذات لايعنى انكباب الفرد على ذاته وانطواءه على نفسه وإنما يعنى الانفتاح على المجتمع ، على الوطن على الأمة ، على العالم بأسره ، الإنسان الانعزالى إنسان فاشل وشاعر بفشله فى الحياة لذلك يفر من المجتمع ويلجأ إلى العزلة والقبوع فى قرارة نفسه المظلمة ، أما ذلك الاجتماعى فإنسان واثق من نفسه كل الثقة شاعر بالقدرة على محاسبة ذاته ومصارحة غيره ، لذلك نراه مفتوح النفس واسع الصدر هاشًا باشًا ، وهذا من الأسباب فى إقبال الناس عليه والانسجام معه والاطمئنان اليه •

وبعد فإن التربية الصحيحة التى يريدها الإسلام هى التى تخدم الإنسانية الخيرة التى تكره الظلم والطغيان ، وتؤمن بحق الإنسان ، أى إنسان بقطع النظر عن جنسه ولونه ودينه ، وتؤمن بالضمير العالمى ، تؤمن بالتعاون بين الشعوب جميعا فى الشرق والغرب من أجل إقامة مجتمع بشرى تسوده العدالة وتحترم فيه القيم الإنسانية والمثل العليا •

التربية الديمقراطية في الإسلام

الديمقراطية فى نظر الإسلام عمل دائب فى مجالات الحياة جميعها يتناسب مع ظروف الزمان والمكان ، وأبرز مجال من تلك المجالات هو دون شك مجال التربية ، ومن فضول القول أن نقول إن التربية هى العصب المقوم لكل نظام ديمقراطى ، وأن تكوين الناس وتنشئتهم على مبادىء الديمقراطية منذ نعومة أظافرهم هو اللبنة الأولى فى بنيان المجتمع الديمقراطى، الديمقراطية عمل وجهد دائب فى سبيل تحقيقها ، إنها فى سعينا الجاهد وعملنا اليومى فى سبيل رعاية منظماتها وصيانة مؤسساتها وخلق الوسائل القادرة على إخصابها وتفتحها • إنها فى جوهرها إيصال الناس إلى أن يحكموا أنفسهم على أسس من العدالة والخلق الفاضل • إن هدف التربية فى نظر الإسلام تكوين الحكم الشخصى المستقل والكيان الفردى الحرّ المبنى على أسس من الأخلاق الفاضلة والخصال السامية •

التربية فى نظر الإسلام لاتكون تربية بالمعنى العميق لهذه الكلمة ، إذا لم يكن هدفها النهائى أن تصل بالكائن إلى مستوى من التحرر الشخصى من أن يكون من هو ، ويجعله قادرا على أن يجد فى ذاته ينابيع سلوكه السليم وتفكيره القويم • إن أوبة الفرد إلى ذاته هى فى رأينا غاية الغايات فى التربية • « وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » ليست التربية فى حال من الأحوال أن يخلق المربى من المتعلم مثلاً له ونظيرا ، وأن يكون على شاكلته وينحته على غراره ، إن التربية نداء لا ا تباع ، إنها نداء للكائن كى يستطيع أن يستخرج طاقاته الكامنة وقواه الذاتية ، وكى يكون فى نهاية الأمر من هو لا كما هو معلمه أو موجهه، إنها عون نقدمه كى نمكنه من أن يفتح ذاته على أكمل وجه وليست وسماً نسمه به •

قد يعترض معترض فيقول : إن العناية بتفتح الكائن من أجل ذاته قد تتضارب مع أهداف المجتمع وربما توقعنا فى تربية مرذولة للفرد وللمجتمع معاً ، ومن يمعن النظر فى هذا الاعتراض يجده سراباً فالفراق بين الفرد والمجتمع فراق مزعوم وإن النظرة السليمة إلى الواقع تحدثنا عن تواصل عميق بين أهداف النمو الفردى وأهداف التطور الاجتماعى ، فالفرد لايمكن أن يتقدم ويكتشف ذاته إلا عن طريق تمثيله لحياة مجتمعه واندماجه فيه ، والتراث الاجتماعى الذى يتلقاه الكائن الإنسانى منذ ولادته هو الأداة الأولى لتحريره

والسير به نحو حياة جديرة بالإنسان ، وبديهى أن الإنسان يظل حيوانا أعجم ويصيبه المصير الذى أصاب « حى بن يقظان » أو « روبنسون كروزو » » إذا هو اعتزل مجتمعه ولم يندمج به • وبمقدار مايندمج الفرد بمجتمعه وبتراث هذا المجتمع يستطيع أن يرقى بإنسانيته ويسير فى معارج التحرر الفكرى •

إن هدف ربط الإنسان بمجتمعه أن يمكنه من التحرر ـ إلى حد كبير ـ من ربقة المجتمع ليحكم على نظمه ومبادئه واتجاهاته وقيمه حكماً حراً ، والمرء لايكمل تكوينه إلا إذا استطاع أن يملك نظرته الشخصية الفردية وأن يملك قيماً إنسانية تتجاوز مافوق مجتمعه ، فيما تتصل بالخير والحق والجمال ، وينظر من خلالها إلى مجتمعه ويحاول تطوير هذا المجتمع •

إن تحرير الفرد وتكوينه تكويناً يفتح لديه الرأى الشخصى والحكم المستقل هو السبيل إلى خدمة أهداف الفرد وأهداف المجتمع معاً ، أما وسائل تربية الحكم الشخصى والرأى الذاتى لدى الناشئين فهى تنبع من وسيلة كبرى هى اللجوء فى طرائق التعليم إلى اشراك الطالب فى اكتشاف المعلومات بدلاً من تلقينها وتقريرها ، هى اعتبار لدرس مشكلة يشترك فى حلها المدرس والطالب ، لابد أن يكون الهدف الاساسى من التعليم أن نمكن الطالب من اكتشاف الحقائق بنفسه ومن امتلاك الوسائل اللازمة لاكتشافها •

لقد بحت أصوات المربين وعلماء النفس وهم ينادون بأن هدف التعليم ليس هو أن نلقن الطالب كل معرفة وإنما هو أن نمكنه من وسائل تحصيل المعرفة بنفسه •

قال روسو : (إننا لانريد أن نخلق إنسانا متعلما ولكننا نريد أن نخلق إنسانا قابلاً لأن يتعلم)

وقال سنيكا الرومانى : (لسنا أمام قربة نملؤها وإنما نحن أمام موقد علينا أن نلهبه) إن المهم فى عملية التعليم هو أن نملّك الطالب وسائل المعرفة وأدواتها لا المعرفة ذاتها ، إن تعويده على البحث والتنقيب والاستقراء والملاحظة هو الذى يضمن لنا انطلاقة نحو تعليم ذاته دوماً •

إن ديمقراطية التربية السليمة تعنى أولا وآخرا احترام الكائن لذاته وتيسير تفتحه الشخصى ، وسبيلها الأول أن تكون التربية أداة من أجل تفتح الطفل وبزوغ قواه بدلا من أن يكون الطفل هو أداة التربية ، إن الانقلاب الكوبرنيكى الذى يحدثنا عنه مثل (كلاباريد) فى مجال التربية ينبغى أن يقر فى ذهننا دوما •

وقوامه ان نجعل التربية تدور حول الطفل بدلا من أن يدور الطفل حول التربية

ومعنى ذلك ان تكون التربية نداء وعونا ، نداء للكائن أن يكون من هو وعونا له على تكوين تفكيره لمستقبلٍ بدلا من ان تكون رأيا يفرض ومعلومات تلقن وشما يدق ..

وبديهى أن من المثل العليا فى الإسلام والإنسانية أن توثق الروابط بين الناس على أساس من المحبة والإيمان والأمل ، ولاشيء من ذلك يمكن أن يتحقق إلا بالتسوية فى المعاملة فلا سبيل إلى تحقيق معنى الإنسانية العام فى هذا العالم إلا بالتسوية فى المعاملة .

العنصر الروحي في التربية

فى معظم بلاد العالم أخذت الناشئة تشتد جنوحاً إلى اللهو واللذائذ وقد ضعف فيها إلى حد كبير احترام الواجبات والتقاليد وحرمة الآباء وروابط الأسرة وهذه الأخلاق أكثر ماتكون فى الناشئة المثقفة وخاصة أولئك الذين قضوا جانبا من شبابهم فى المدارس الأجنبية وليس من شك ان تداول المجلات والروايات والقصص الماجنة ودور السينما التى تعرض كثيرا من المشاهد الخليعة كل ذلك أدى إلى اشتداد رغبة الناشئين إلى المحاكاة والظفر بالحياة الناعمة وملذاتها .

ولا ريب أن أهم أسباب هذا الارتكاس الخلقى والاجتماعى ضعف الحصانة فى الناشئة وبعبارة أوضح ضعف التربية الدينية فى المنزل والمدرسة ، من القضايا المسلمة إنه لابد من الاعتماد فى التربية على عنصر التهذيب الروحى ليعدل نزعة الجسم مع نزعة الروح . إن الاعتماد على العنصر الدينى كأساس أول فى التهذيب والتربية يقوى فى الناشئة نوازع الخير والعدل والاحسان والحق والفضيلة ويدفعه إلى القيام بالواجبات واحترام حقوق الغير وإلى التعاون على البر والتقوى والنهى عن المنكر ، ويوجد فى نفوس الشباب حصانة من الارتكاس فى الموبقات والآثام والاستغراق فى المتع واللذات واستحلال المحرمات وانتهاك الآداب . من شأن التربية الدينية أن تشد فى الناشئة عزيمة الدفاع عن حريتهم وحرية وطنهم وتصرفه عن المجون والعبث والاستهتار بالحقوق والواجبات الى الجد والصبر والتحلى بفضيلة الوقار والتسامح والجد ، لذا يعتقد أن من الواجب أن يكون التهذيب الدينى هو العضو العامل الأول فى غرس البذرة الأولى فى تكوين الأمة .

من الواجب بذل الجهود لتنشئة الناشئة على الهدى القرآنى وبث تعاليمه فيهم وغرس مثله العليا فى نفوسهم فى نطاق منهج سليم قويم يخلو من الحشو والتعقيد ، ويستمد من

الأصل الصافى النقى

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ (سورة الانعام آية ١٥٣) ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ (١١٢ ، ١١٣ من سورة هود)

والاستقامة هنا كما فسرها العلماء ليست سوى الوقوف بالقوى فى مستوى التوازن ، والطغيان ليس سوى تغلب بعض القوى على بعض ، والركون إلى الظالمين ليس سوى متابعة الذين يصرفون الناس عن حد التوازن بين القوى بما يرونه من نظريات لا تلبى فطرة الإنسان التى فطر عليها ، ويجب أن نشير هنا إلى أن كثيراً من البدع والخرافات والإسرائيليات قد امتزجت فى بعض العلوم الدينية ، وهى لاتمت إلى أصل الدين وروحه بسبب ، كما هى سبب معظم ما يملأ أذهان المسلمين من أوهام وأباطيل ، وقد وقف كل ذلك عثرة فى طريق التطور الفكرى والاجتماعى فى الأمة بل وفى سبيل نشر الإسلام . ولقد آن الآوان أن يجعل المسلمون كتاب الله نصب أعينهم ، أن يتخلصوا من تلك البدع والخرافات والإسرائيليات ويتلقوا الدين من منابعه الصافية .

والقرآن اليوم فى أشد الحاجة إلى تفسير حديث صحيح سليم يقوم على أساس العقل والمنطق ولا يتعارض مع العلوم الحديثه .. إنه فى أمس الحاجة إلى زمرة من العلماء المخلصين كل فى اختصاصه ليفسروا ما اشتمل عليه من علوم وما حواه من كنوز . القرآن يستلزم تفسيرا يقوم به نخبة من العلماء فى اللغة والفقه والتاريخ والطب والجغرافية والفلك والطبيعة .

ليس من شك فى أنه إذا اهتم لهذه الناحية الاهتمام الصادق أمكن تنشئة ناشئة فاضلة سامية لا ميوعة فيها ولا انحلال ، محصنة من الآثام مستعدة بالقيام بواجباتها نحو الله ونحو الوطن ونحو الناس أجمعين وبالتالى أمكن بناء أمة جديدة قوية الروح والعزيمة والصبر والتضحية فى سبيل الدفاع عن الحق والعدل والواجب ، حين اعتصم المسلمون فى الصدر الأول بحبل الله ، حين اهتدوا بالقرآن الكريم واستمدوا منه إيمانهم وحيويتهم سادوا وسادت بهم الأمم .

وهذا القرآن سيظل فى كل زمان ومكان أقوى مؤثر فى حياة المؤمنين لأنه احتوى من الأسس والنظم والمبادىء والمثل العليا ما من شأنه أن ينهض بهم إلى ذروة الكمال فى كل

مجالات الحياة ، ولأن الدين الذى يمثله ليس دينا روحيا أو أخلاقيا فحسب بل هو دين ودنيا ، إيمان وعمل ونظام ٠٠ عقيدة وسياسة وواقع معاً ٠٠ ثم هو دين إنسانية كاملة ، إخاء عام يدخل فى نطاقه جميع الشعوب والأمم ٠

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ① ﴾ ٠ (أول سورة النساء)

إن على الآباء رعاية الأبناء وتربيتهم تربية أساسها الدين والخلق ٠ روى عمر ابن شعيب عن رسول الله ﷺ إذ قال : (**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع**) لذا يجب أن يعّود الأولاد بنين وبنات عند حداثتهم الصلاة فإذا دنا الطفل من مرحلة البلوغ وجنحت نفسه إلى الفرار من العبادة أو التهاون فى أدائها فعلاجه الضرب الرقيق ٠

وعلماء التربية وعلم النفس يرون أن بعض الأطفال كالوحوش الصغيرة تسيطر عليهم نزوات ، وتسيرهم نزعات فلابد من قمعهم بشىء من الشدة وعلى الوالدين أن يغلفا شدتهما بغلاف من رحمة ولين ، ولنا فى رسول الله أسوة حسنة فى تلقين الأبناء صالح العادات ومحامد الخصال ، روى أبوحفص عمر ابن أبى سلمة قال : « **كنت غلاما فى حجر رسول الله وكانت يدى تطيش فى الصفحة (أى تدور فى نواحيها) فقال ٠٠ ياغلام سمّ الله تعالى وكل بيمينك وكل مما يليك** » فما زالت تلك طعمتى وحالة أكلى ٠٠ وقد كان الرسول ﷺ يقول : (**من كان له ولد فليتصاب له**) أى يكون معه كما يكون الصبى مع الصبى ٠٠ ويحدثنا التاريخ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نزع الثقة من مرشح للولاية لايحنو على صغاره فقد عهد بالولاية لواحد من الناس فأقبل على مجلسه يشكره وفيما هم جلوس قدم صبى صغير فجلس على حجر عمر الذى هش فى وجهه وبش وأقبل على الصغير يداعبه مما استرعى انتباه ذلك المرشح للولاية فقال لعمر متعجباً : أتقبّل هذا يا أمير المؤمنين ٠

إن لى عشرة أولاد ما قبّلت واحدا منهم ولادنا أحد منى فأجابه عمر : وما جريرتنا نحن إن كان الله عز وجل قد نزع الرحمة من قلبك إنما يرحم الله من عباده الرحماء ثم أمر الكاتب أن يمزق كتاب الولاية وهو يقول : إنه لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية ،،

الإسلام عقيدة وعمل

ونعنى بالعقيدة هنا الايمان بمصدر الوجود وافراده تعالى بالعبادة والدعاء والاستعانة والتقديس لكى يشعر الإنسان بالعزة والرفعه فلا يذل لمخلوق ، ويضل باتخاذ الوسطاء والشفعاء من دون الله .

الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد ، القوى القاهر العليم الحكيم ، الخبير بدخائل النفوس المهيمن عليها المقدر لخيرها وسعادتها ، الايمان بأن له هداية يبعث بها من يشاء من عباده ليهديهم إلى الطريق الأقوم ويوجههم إلى الخير والفلاح وينهاهم عن الشر والفساد ..

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (سورة البقرة ـ ٣٨)

الايمان بيوم الحساب وبملائكته ورسله وكتبه .

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (١٧٧ من سورة البقرة)

إن جميع ماجاء به الإسلام من عقائد وعبادات بدنية ومالية وآداب وتشريعات على اختلاف أنواعها لايخرج عن دائرة رعاية حظّى الجسم والروح للإنسان .

فحظ الجسم نجد الإسلام يأمر بحفظ الصحة بالعلاج والوقاية ، لقد أباح الفطر فى رمضان للمريض والمسافر

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾

كما أباح للمريض العاجز عن الحركة الاكتفاء بحركة الرأس والعين أو القلب فى أداء الصلاة وأباح الطيبات فى المأكل والمشرب والمسكن والملبس دون إفراط وتفريط ، فى حديث الذين اثنوا على أخيهم بصيام النهار وقيام الليل حتى سألهم الرسول ﷺ عمن يعوله فقالوا : كلنا ـ أن النبى ﷺ قال لهم : (كلكم خير منه) والإسلام يعترف ببشرية الإنسان فهو بشر لا ملك ومن طبيعة هذا البشر الخطأ والنسيان والانحراف عن الصراط

القويم فإذا انحرف الإنسان أو أخطأ أو نسى أو أجبر على عمل ما فهو إنسان لاتهدر كرامته ، ولاتسقط إنسانيته ٠

(رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) وأمامه باب التوبة مفتوح ، ولديه وسائل التطهير من ذنوبه وخطاياه ٠٠ أمامه الصلاة والزكاة والصوم والحج وعمل الخير للإنسانية ، فليس أضيع للإنسان من أن يسقط فى مجتمعه بخطيئة يقترفهـا أو معصية يجترحها فذلك قد يحطم شخصيته أو يدفعه الى التمرد على النظم والقوانين وينطلق فى ارتكاب الموبقات إن لم تمسكه يد ترحمه فتمسح خطيئته وتنير له الطريق إلى الخير ٠

﴿ *قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ ﴾ ٠

أما حظ الروح فكتاب الله المفتوح أمامنا ، هذا الكون ـ وما يحـويه من نواميس وأسرار ـ أوجده الله لنفكر ونتدبر ونستكشف ونستخدم ما أودعه تعالى فيه من المنافع لصالحنا وصالح الإنسانية ونحمده على نعمه ونقدسه ونعبده وحده لا شريك له وقد فرض الإسلام الصلاة والصوم والزكاة والحج لتهذيب هذه الروح وتنقيتها من أدران الذنوب والخطايا وإعلاء شأنها وتوجيهها إلى الصلاح والخير ٠

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (١٣٨ من سورة البقرة)

الإسلام والعلم

أصبح العلم ثقافة جامعة ذات غرض تربوى كامل ، وقد أجمع اهل الرأى فى هذا الشأن على أن الغرض الذى يجب أن تسعى إليه الامم والحكومات من التعليم هو أن تيسر للأبناء طفولة سعيدة وتهيىء لهم أن يبدأوا حياتهم بدءاً حسناً وأن توفر للشعب كله أوفى قسط ممكن من الخير والنعيم وان تدبر جميع الوسائل لتنمية المواهب المختلفـة وحسـن توجيهها وأن تتاح للشباب كل الفرص الممكنة ليتعلموا ويتقدموا وأن تبذل الجهود التى تفتح لهم ابواب العمل تأمينا لمستقبل الفرد ورفاهية الجماعة ٠

ولقد وافق الشعور العام فيا يجب أن يكون عليه التعليم باعتباره أثمن رأس مال للأمة وأمضى سلاح تواجه به أحداث المستقبل ، فإن الناشىء الصغير فى المدرسة هو العامل غدا

فى المصنع وهو الأب فى الأسرة وهو المواطن الكبير فى الأمة ، فاذا ماعنيت الدولة بهذا الناشىء فى أوليته فقد ضمنت فى المستقبل الشعب كله وانشأت الدعامة القوية الثابتة التى تستند إليها حين تلتمس أسباب الخلاص من الشدائد حين تتحرج ومن الخطوب حين تتعقد ٠

ومن المقرّر أن العلم أقوى سلاح لمكافحة الفقر والمرض وأن الفقير الجاهل أضيق حيلة وأضعف وسيلة وأعجز عن مقاومة البؤس من الفقير المتعلم ٠

لذلك حثنا الإسلام على طلب العلم قال الرسول ﷺ : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** » وقال ﷺ : « **الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها** » ٠٠ والعلم فى نظر الإسلام يشمل علوم الدين والدنيا فى شتى أنواعها وفروعها والإسلام يعتبر العلم من أسمى العبادات وجعل أهله فى المرتبة الثانية بعد الله والملائكة « **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط** » ٠

وقد ذكر الحكمة مرات كثيرة ، وبلغ من إعزاز شأن العلماء فى الإسلام أن جعلهم الرسول ﷺ ورثة الأنبياء وقد نوه القرآن بشأن العلماء وماهم من منزلة رفيعة ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ أما العقل فقد ذكر باسمه وأفعاله زهاء خمسين مرة ولا غرو فالعقل آلة التفكير والعلم ثمرته ، ولا دين لمن لاعقل له ولا علم لمن لا عقل له ٠

لقد قامت دعوة الإسلام على تنبيه العقل البشرى وتوجيهه إلى النظر فى الوجود ٠ والرجوع إلى ماحواه هذا الكون من النظام والترتيب والتنسيق ليصل بهذه البراهين الواضحة إلى القول : إن للكون صانعاً عالماً قادراً حكيماً بل إن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح وإرسالها وإثارة السحاب لإنزال الماء وإحياء الارض وإنبات الزرع كل ذلك آيات بينات تدعو العقل إلى النظر فى الوجود

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا ﴾ (سورة آل عمران)

القرآن رفع شأن العقل فعبر عنه بالسلطان

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ (٥٦ من سورة غافر) ٠

وفى القرآن آيات كثيرة تحث على التفكير واستكشاف ماوراء هذا الكون من أسرار وسنن ، وإنا لنجد فى الحديث ما نجده فى القرآن الكريم من دعوة إلى استعمال العقل والفكر . ﴿ **الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له** ﴾ وقوله ﷺ : لعلى رضى الله عنه « **اذا تقرب الناس لخالقهم بأبواب البر فتقرب أنت اليه بعقلك** » .

لقد وردت آيات كثيرة فى ذم أولئك الذين سلبوا أنفسهم خاصة الإنسان ، خاصة العقل ، خاصة البحث والنظر والاستدلال ، فقلدوا آباءهم واجدادهم تقليداً أعمى .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾
(سورة المائدة ـ ١٠٤)

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾ (٢٨ من سورة الاعراف)

وكما حمل القرآن على التقليد حمل أيضا على الظن وحذر من اتباعه وجعل الحجة أساس الإيمان القويم .

﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (١٤٨ سورة الانعام) (وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ ﴾ .. (٢٨ سورة النجم)

لقد كان لدعوة القرآن على تنبيه العقل وتوجيهه إلى النظر فى هذا الكون الواسع العجيب أثر بالغ العمق بعيد المدى فى الفكر العربى ، أجل نشأت فرق فلسفية دعت إلى الاعتماد على سلطة العقل ومنحه الحرية الكاملة فى البحث والتنقيب واعتبروا العقل المحك الأخير للحقيقة ولقد أكثر أولئك الفلاسفة الكلام على العقل ومراتبه حتى جعلوه عنصراً مقدساً ، ويكاد يكون هذا التقديس أبلغ صفة تفردت بها الفلسفة العربية فلا إمام عند أصحابها سوى العقل وكل شيء ما خلا العقل باطل مردود ، وقد تأثر بعض علماء المسلمين بهذه الفلسفة واصطبغت أفكارهم بصبغتها الروحانية .

زعم بعض المغرضين أن صور الفكر العربى فى الأدب والفلسفة والفن لم تبلغ ما بلغته صور الفكر الأوروبى فى عصر النهضة من التماسك واليقين وأن اسلوب العرب فى البحث العلمى ظل اسلوبا غيبيا لاقتصاره على البحث فى طبيعة الأشياء وفى الأسباب الأولى والماهيات المجردة ، ومع أن الفكر البشرى مرّ كما يقول (أوجست كونت) بثلاث مراحل : الأولى لاهوتية والثانية غيبية والثالثة يقينية فإن الفكر العربى وقف عند الحاله اللاهوتية

والغيبية فقط وهذا خطأ فقد تجاوز الفكر العربى فى القرون الوسطى الحالة اللاهوتية والغيبية ودخل فى الحالة اليقينية أو الوضعية ٠

لقد اكتسب العرب من دعوة القرآن للنظر فى أسرار الكون الكامنة فى أطباق الأرض وأجواء السماء كثيرا من الميل إلى الملاحظة الحية والتجريب ، وأقوى برهان على ذلك هذه الكتب التى ألفها العرب وغيرهم من المسلمين فى الطبيعة والطب والكيمياء والفلك والجغرافيا ، فإنها لاتقتصر على الأحكام النظرية بل تشتمل على كثير من الملاحظات والتجارب ولولا اعتماد الرازى وابن سينا وعلى بن عمير وعلى بن عباس وابن نفيس وغير هؤلاء على الملاحظة والتجريب ، لما استطاعوا أن يضيفوا إلى علم الطب ما أضافوه من أمور مبتكرة فى الأغذية والأدوية والتوليد وعدوى الأمراض ودورة الدم ٠٠ وأمراض العين وغيرها وكلنا نعرف أن المأمون بنى مرصدا فلكياً فى بغداد ومرصداً آخر فى دمشق على جبل قيسون وبنيت بعد ذلك مراصد كثيرة ولولا هذه المراصد لما استطاع البتانى أن يصل إلى معرفة الكسوف وتحديد طول السنة والفصول ولما استطاع البيرونى أن يحدد خطوط الطول والعرض ويبحث فى دوران الأرض حول محورها ٠

ولم يكن فى وسع علمائنا أن يصلحوا التقويم وأن يضعوا قوانين المد والجزر لولا اعتمادهم على الملاحظة والاستقراء ، والاعتماد على الملاحظة والاستقراء هو الذى ساعد ابن خلدون على تأسيس العلم الجديد الذى سماه بعلم العمران ، فهو يلاحظ الظواهر الاجتماعية بالعوامل المؤثرة فيها كالبيئة والمناخ ، لقد كان العرب فى القرون الوسطى يمثلون التفكير العلمى الذى تمثله اليوم أوروبا الحديثة ٠ لقد ورثت أوروبا عنهم ما نسميه اليوم بالروح (البيكونية) التى تتخذ العلم وسيلة للسيطرة على الطبيعة ، والإحاطة بجميع العلوم على اختلاف أنواعها وفروعها وإقبال العرب على نقل جميع العلوم إلى لغتهم ، كل ذلك من نتائج توجيه القرآن للنظر فى الكون وعجائبه وأسراره وقد بدأ دور النقل فى عصر بنى أمية واتسع نطاقه فى عهد المنصور وبلغت الترجمة ذروتها فى العلوم اللسانية والتاريخ والجغرافية والطب والكيمياء والرياضيات والفلك والفلسفة فى عصر المأمون فقد كان حنين بن اسحاق العبادى (٨٠٩ ـ ٨٧٧ م) يدير أعمال الترجمة وكان المأمون يعطيه وزن الكتب التى كان يترجمها ذهباً ، كان نفسه طبيبا ، وقد درس العربية على الخليل بن أحمد ودرس اليونانية دراسة خاصة ، كان لحنين هذا الفضل فى ابتداع الطبيعة فى العربية أثناء ترجمته من اليونانية وقد ترجم من اليونانية شتى المواضيع بالإضافة إلى طب أبقراط وجالينوس ٠ وله

مؤلفات أصيلة فى الطب وهناك فريق آخر من كبار المترجمين كان لهم نصيب فى بناء النهضة جاءوا من حران وفى طليعة هؤلاء ثابت بن قرة الحرانى ·

ثم ولداه سنان وأبراهيم فحفيداه ثابت وابراهيم ، فولد حفيده سنان ، كانت المخطوطات تباع باثمان باهظة وكثيرا ماكانت الكتب العلمية القديمة مادة تهدى بين الملوك وغيرهم فامبراطور القسطنطينية توسل بإهداء الكتب القيمة للخليفة فى الأندلس ليكون ضد الخليفة فى بغداد ·

المكتبات

لقد كان فى كل مدينة مكتبة كبيرة عامة وعلى غرار دار الحكمة التى أنشأها المأمون فى بغداد ، أنشئت مكتبة حوت زهاء ربع مليون مجلد وكان للعديد من الحكام والأغنياء مكتبات خاصة فيها كتب قيمة ·

الطب

والطب من أكثر العلوم التى لاقت تشجيعا ونالت اهتمام الحكام والعلماء واكبر قسط من العناية وأعظم تقدير ورث العرب الطب عن الطبيب اليونانى (أبقراط) الملقب بأبى الطب وهو أول من فصل علم الطب عن أعمال الشعوذة ثم ما لبث الأطباء المسلمون أن أصبحوا فى طليعة الذين اتخذوا الطب علما يتميز عن العلوم الأخرى ·

وأطباء العرب هم الذين توصلوا إلى اكتشاف الطرق العلمية الممتازة التى تحفظ فيها سجلات المرضى وهذا ساعدهم إلى حد كبير على التوصل إلى معرفة أعراض عدد من الأمراض مثل الجدرى والحصبة والتهاب الغشاء السحائى والتهاب الرئة ولم تقتصر دراسات العرب على معرفة الامراض فحسب بل درسوا أيضا مسبباتها وأعراضها ·

العقاقير

والعقاقير فى ذلك الوقت تعرضت لدراسات من أطباء العرب تشبه إلى حد كبير نظام المختبرات فى القرن العشرين فكان إذا ظهر لهم بأن العقاقير الجديدة مُرة الطعم جعلوها

سهلة التناول ، بالحبوب الملبسة بالحلوى والكرات الملفوفة بالورق الفضى كل ذلك كان الأطباء العرب أول من استخدمها ، وقد مزج الصيادلة العرب ماء الورد بالأدوية كما اخترعوا الصبغات المنوعة ودهونات الجلد ٠٠ وقد وضعت الدولة الإسلامية أحكاما خاصة تحرم بيع السموم والعقاقير الضارة كما وضعت قانونا بمنع تدخل الصيادلة فى شؤون الطب ٠

وبنى العرب مستشفيات كانت فى ذلك الوقت أعجوبة طبية وكانت فى بغداد ودمشق والقاهرة وكان المرضى على اختلاف اجناسهم وأديانهم يعالجون فيها دون تمييز ٠

كان العرب يدرسون بعناية موقع المستشفى قبل تأسيسه ٠٠ ويحكى أن عضد الدولة استشار الرازى فى موقع المستشفى الذى سمى فيا بعد بالمستشفى العضدى فأرسل هذا غلمانه يعلقون قطع اللحم الطازج فى أمكنة عدة من بغداد واختار موقع المستشفى فى المكان الذى فيه تعفن اللحم أقل مايكون ٠

كانت المستشفيات أنواعا مختلفة : منها ماهو خاص بحالات معينة من المرض أو عمومى لشتى الحالات المرضية منها :

١ ـ مستشفيات المجذومين وهو أول مستشفى فى الإسلام من نوعه أسسه الوليد ابن عبدالملك سنة ٧٠٧ م ٠

٢ ـ مستشفيات الأمراض العقلية ٠

٣ ـ العيادات المتنقلة وكانت ترسل إلى أماكن مختلفة من البلاد ٠

٤ ـ المستشفيات العمومية ٠٠ كان فى كل مدينة من المدن الإسلامية مستشفى عام كان فى كل مستشفى هيئة من الأطباء والممرضين والممرضات ، وكان الأطباء ذوى اختصاصات مختلفة ٠٠ وكان بجوار كل مستشفى كبير صيدلية وكان يتصل بمعظم المستشفيات الكبرى مدرسة للطب يدرس فيها الطلاب ، وكانوا يتمرنون فى المستشفى وكان الطعام الذى يقدم للمرضى فاخرا ونحن هنا نروى هذه الطرفة للتدليل على مستوى الغذاء فى تلك المستشفيات ٠

« تمارض رجل فارسى يوما ، طمعا فى الغذاء الجيد فى المستشفى النورى بدمشق فلما فحصه الطبيب المسؤول أدرك حيلته وأمر للمريض بطعام شهى كالدجاج ونحوه وبعد ثلاثة ايام عاد الطبيب (مريضه) وأخبره أن ضيافة العرب ثلاثة أيام فقط وأمر بإخراجه من المستشفى » ٠

وفيما يلى ذكر سريع لأهم المستشفيات إبان العصر الذهبى :

(١) المستشفى العضدى ببغداد أنشىء فى عهد بنى بويه بناه عضد الدولة الذى حكم سنة ٩٤٩ و ٩٨٣ م كان ماؤه يجلب من دجله وكان أشبه بالقصر .

(٢) المستشفى الغورى بدمشق بناه نور الدين زنكى سنة ١١٤٥ م وقد ترأس هذا المستشفى ابن المطران الطبيب الخاص لصلاح الدين الأيوبى .

(٣) المستشفى المنصورى أسسه المنصور قلاوون على غرار المستشفى النورى وقد تم انشاؤه سنة ١١٨٣ م كان هذا المستشفى أعظم مستشفى فى العالم الإسلامى حينئذ ومن مشاهير الأطباء الذين عملوا فيه ابن النفيس وهناك مستشفيات أخرى منها مستشفى الرشيد ، وعلى بن عيسى ، والمقتدر ببغداد والناصرى وأحمد بن طولون وكافور الأخشيد والمؤيد فى مصر . والمستشفى القديم ومستشفى المجاذيب فى سوريا ، ويروى أن عدد المستشفيات فى قرطبة قد ربا على الخمسين ، وكما تقدم علم الطب على يد المسلمين وامتد عصره الذهبى من القرن التاسع الميلادى إلى القرن الحادى عشر تقدمت أيضا علوم أخرى كالكيمياء والفيزياء والفلك والجغرافيا والجبر والحساب .

هذه النهضة العلمية المباركة وهذا الإقبال الشديد على التهام المعرفة كانا كفيلين بإيجاد أطباء عرب أفذاذ ألفوا الكتب القيمة وشخصوا أمراضاً لم تشخص من قبل ووصفوا نظريات أثبتت الأيام صحتها وحللوا تحليلاً وقاموا بتجارب لم تُعرف من قبل .

ولم يكونوا ناقلين عن اليونان وغيرهم كما يزعم بعض المستشرقين بل كانوا أمناء على تراث الفكر الإنسانى ، حفظوا لكل من سبقهم حقه فنسبوا إليه ما أخذوا عنه . ثم أضافوا إلى ذلك الكثير مما أبدعوا ، قال المستشرق كمستون فى كتابه (ملخص تاريخ الطب) : ولقد أخذ العرب خلاصة مافى مؤلفات اليونان ونبذوا جانبا كل ما هو غث زائد . وما على المرء الا أن يقرأ جالينوس أولاً ثم يقرأ ابن سينا بعد ذلك ليدرك الفرق ، فالأول غامض والآخر واضح تماما ، والترتيب والنهج هما قوام الأخير بينما تبحث عبثا عن هذين الأمرين فى الأول .

هنا يجدر بنا أن نذكر بعض أعلام الطب فى العالم الاسلامى فى الفترة الواقعة ما بين القرنين الثامن والرابع عشر للميلاد ليرى القارىء ما أبدع أطباء هذه الفترة وما خلفوا من تراث عظيم استحق الإعجاب والتقدير .

جرجس بن بختيشوع (مات سنة ٧٦٩ م) كان رئيس الأطباء فى جنديسابور له مؤلفات منها (نصائح الرهبان) ويقال : إنه أول من كتب فى الطب بالعربية •

حنين بن اسحاق العبادى (٨٠٩ ـ ٨٧٢ م) كان طبيبا ومترجما وله مؤلفات مثل (كتاب المقالات العشر فى أمراض العين) ويعتبر هذا الكتاب نقطة البدء فى طب العيون عند العرب •

على بن عباس المجوسى (مات سنة ٩٤٤ م) كان طبيب بلاط عضد الدولة وتسميته بالمجوسى عائدة إلى أصله وديانته ألف كتباً أهمها (الكتاب الملكى) أو (كامل الصناعة الطبية) وقد وضع فى عشرين مجلدا العشرة الأولى منها تناولت النظرية فى الطب والأخرى تناولت العملية كان هذا الكتاب المعتمد فى الطب واستعانت به جامعة بالرنو فى القرن الحادى عشر الميلادى •

يوحنا بن ماسوية : ولد فى جند يسابور عام ٧٧٧ م ومات سنة ٨٥٧ م نشأ فى بغداد وكان مستشاراً للخليفة الواثق وكان ذكيا حاضر البديهة سليط اللسان يعتبر يوحنا أول من شرّح بين أطباء العرب ، فقد شرّح قردا ودوّن ملاحظاته عنه ، ألف عدة كتب بعضها مترجمة من اليونانية وأخرى أصيلة كان أول من كتب بنباهة عن أمراض العين وعن الجذام والحميات ، وعن العقاقير والسموم ، من مؤلفاته (الفصول) وكتاب (الحميات) وكتاب (السموم) •

ابن الهيثم (٩٦٥ ـ ١٠٣٩ م) ولد فى البصرة ومات فى القاهرة قال الدكتور جورج سارتون إنه أعظم فيزيائى مسلم كان طبيبا وفلكيا ورياضيا معا ، أهم مؤلفاته (كتاب المناظر) و (كتاب النور) •

الرازى (٨٥٠ ـ ٩٣٢ م) ولد فى بلاد فارس ولع بالموسيقى ثم درس الفلسفة وبدأ دراسة الطب بعد سن الثلاثين وهو يعتبر إمام المؤلفين فى الطب العربى انتخب من بين مائة طبيب فى بغداد ، ويمتاز الرازى بكثرة مؤلفاته وضخامتها فقد ألف نحو ٢٣٧ كتابا معظمها مفقود والرازى أول من ابتكر خيوط الجراحة من أمعاء الحيوانات وأول من أنشأ مقالات خاصة فى أمراض الأطفال وأول من عمل مراهم الزئبق واستخدمها فى علاج الإمساك كما أنه يعتبر أول من أدخل استعمال مراهم الرصاص الأبيض فى العقاقير الطبية وأول من اكتشف تأثير بؤبؤ العين بالضوء وأول من شرح مرض الجدرى وميزه عن الحصبة ، من

أشهر مؤلفاته (الحاوى) وهو أضخم كتبه وأعظمها فى الطب العربى و (المنصورى) ويقع فى عشرة مجلدات وقد ترجم إلى اللاتينية وأصبح كتاب التدريس فى أوروبا حتى القرن السابع عشر (وبرء الساعة) وفيه يسرد الأمراض التى يمكن شفاؤها فى وقت قصير و (الفاخر) و (الجامع) و (كتاب الأسرار) ورسالة الروماتيزم والنقرس ورسالة عن المغص ٠

ابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧م) يعتبر ابن سينا أمير الأطباء وفى العصر الذهبى اشتهر فى عالم الفلسفة كشهرته فى عالم الطب ، له مؤلفات تتجاوز المائة وقد كتب فى شتى المواضيع حتى فى علم طبقات الأرض ٠

أهم كتبه (القانون فى الطب) وضع فيه بشكل مبوب ومنظم خلاصة الطب اليونانى والعربى ويحتوى على نحو مليون كلمة ، وقد ترجم إلى اللاتينية وطبع نحو ٣٠ مرة على هذه الترجمة ٠

يعتبر ابن سينا أول من اكتشف ووصف عضلات العين الداخلية وهو أول من عرف بعض الأمراض التى تنقل بواسطة مياه الشرب وقد عزاها إلى حيوانات دقيقة لاترى بالعين تعيش فى الماء ، وهو أول من وصف الجلطة الناتجة عن كثرة الدم ٠

الزهراوى (١٠٣٠ ـ ١١٠٦ م) عاش فى الأندلس ذاعت شهرته فى الشرق والغرب لدرجة أن بعض الكاتدرائيات زينت بصورته ، كان أول من وصف علم الجراحة وصفا دقيقا شاملا أهم مؤلفاته ، كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) ويقع فى ثلاثين جزءا بحث فيه عن العمليات الجراحية وطرق البضع فى أمراض العين والأسنان والنساء وفى الحصاة والفتوق والخلوع والكسور وطرق معالجتها ٠

قيل : إنه أول من ربط الشرايين وأول من استعمل الحرير وأوتار العود على هيئة خيوط تربط فى الجراحة ٠ وأول من استعمل محلول الملح فى غسل الجروح وقد قام بعمليات ثقب الجمجمة والبتر وكان يستعمل الملقاط لاستخراج رأس الجنين عند تعسّر الولادة ٠

ابن النفيس : ولد فى دمشق ومات فيها سنة ١٢٨٨ م قضى معظم حياته فى القاهرة حيث كان عميد المستشفى المنصورى ألف كتبا أهمها (الموجز) و (شرح تشريح القانون) وأهمها ما جاء به اكتشافه الدورة الدموية الصغرى أو الرئوية وبذلك يكون ابن النفيس قد سبق سرفيتوس وهارفن إلى ذلك بزمان ، إن الذى ساعد العرب على هذا التقدم هو أنهم اخضعوا المعارف لمبدأين : المشاهدة والاعتبار أما المشاهدة أو الملاحظة فقد

حضهم عليها القرآن الكريم فامتزجت نفوسهم بوجوب رؤية الكون وأعاجيبه وآياته وحكمه •

واللغة العربية من أهم الأسباب التى دفعت العرب إلى هذا التقدم فهى غنية فى التعبير عن الأشياء وأحوالها وخصائصها والاختلاف فيا بينها ، إنها دقيقة فى تحديد الواقع وصوره المختلفة فالعربى لا يستطيع إلا أن يكون واقعيا ، أما الاعتبار فهو يقابل التجربة فى مفهوم عصرنا هذا ، لقد كان أثر المشاهدة والملاحظة فى علم الفلك عند العرب عظيما فليس من شعب لاحظ السماء ورصد حركاتها كالعرب فى القديم وشهد به بدقة ملاحظتهم لها مؤرخو العلم •

قال نلليتو الايطالى : (إن العرب فى أصول مشاهداتهم تفوقوا على اليونان تفوقا مجيدا ففى عدد مشاهداتهم وتتابعها المستمر وفى دقتها نجد التباين الصارخ بين الفلك اليونانى والفلك الإسلامى ، والعرب استطاعوا أن يرصدوا الأفلاك رصدا قاربت دقته دقة الأرصاد الحديثة •

وفى الطب برهن العرب على حسن إتقانهم لأمور المشاهدة ، كانوا يشاهدون الحالات المرضية بدقة عجيبة ، هذا أبو بكر الرازى خير مثل لإتقان هذه الطريقة فكتابه فى الجدرى والحصبة أول كتاب علمى فى العالم تتجلى فيه أصول المشاهدة ومتابعتها على المرضى • قال أونالديز وماسينيون الفرنسيان : (إن المؤرخين متفقون على الاعتراف بأن القيمة الأصيلة للطب العربى هى فى التسجيل الدقيق الصحيح للحالات الإكلينيكية • وإن الدراسات التفصيلية تكشف النقاب عن الفارق بين الطب العام الذى نقل عن اليونان وبين الطب الحسى الذى هو ثمرة من ثمار التجربة والفكر والذى يظهر فى المشاهدات الإكلينيكية عند العرب ومشاهدتهم فى الأعشاب بلغت حد الإتقان ، قال سارتون : (لقد كان التراث العربى والإسلامى فى حقل الأعشاب هو فى كل نواحيه تقريبا أعظم بكثير من تراث أية أمة أخرى فى هذا الحقل ذاته) ذلكم فى المشاهدة ، أما التجربة فقد بلغوا حد الاتقان فيها ، أفادتهم كثيرا وخاصة فى علوم الطب والطبيعة والكيمياء • وأقوى دليل على ذلك (كتاب الحاوى) الذى ألفه أبوبكر الرازى فى أربعين عاماً وضمنه علم الأولين والآخرين فى الطب وذكر فيه تجاريبه واختياره لصحة أقوال غيره وتحققه منها ، وكثرة تجاربه الخاصة ومتابعته جعلت ابن سينا يتهمه فيها ويهزأ به قائلا : (هو المتكلم الفضولى الذى من شأنه النظر فى الأبوال والبرازات) •

ولقد وصلت التجربة إلى قمتها مع محمد بن الحسن بن هيثم عالم العرب بلا نزاع ، وكتابه (النور) خير دليل على ما نقوله ٠٠ فقد كان أصيلا فى ملاحظاته وتجاربه وقد كان واثقا من نفسه كل الثقة ويكفى أنه رفض نظرية سابقيه القائلة بأن الرؤية تتم بصور أشعة من الدماغ إلى العين ومن ثم إلى الجسم المرئى وأثبت أن العكس هو الصحيح ٠

يقول أريك السويدى : ان الكيمياء وهى قبل كل شىء علم تجريبى وبواسطتها أدخل العرب التجربة كمنهج علمى ووسعوها ثم أضاف يقول : وهذه المساهمة من العرب هى كفيلة وحدها بأن تمنح العلم العربى مكان الشرف فى تاريخ البحث فقد كانت التجربة غير معروفة عند الباحثين القدماء ٠

لقد أدخل العرب إذن فى ميدان العلم أسلوبا جديدا فى البحث لم يكن معروفا قبلهم هو الاعتبار أو التجربة وبهذا الأسلوب أصبحت كتبهم تعليمية منظمة موضحة شفافة رائقة حتى الفلسفة اتضحت على أقلامهم وبانت وفصلت ورتبت ٠

ليس من شك أن نقل العلم من التعقيد إلى التبسيط ، ومن متناول الخاصة إلى متناول العامة لأمر على جانب عظيم من الأهمية فى تاريخ العلم ، أما الاتجاه الثالث الذى أدخله العرب فى تاريخ الفكر الإنسانى هو جعل العلم عمليا يفيد الإنسان فى حياته اليومية ويقدم له ما يحتاج إليه فى معيشته ومما لا شك فيه أن العلم اليونانى كان نظرياً ، أما العبقرية فهى عبقرية عملية تتصل بالحياة والعمل والحواس والمادة ٠

الخلاصة

لقد اتصف العرب فى العلم بما كان ينقص اليونانيين أن يتصفوا به ، وهو أنهم لم يخضعوا لأحكام العقل إلا إذا أتت الأحكام موافقةً للمشاهدة والتجربة ٠ إنهم أخضعوا المعارف للمشاهدة والاعتبار ٠ أما المشاهدة أو الملاحظة فقد حضهم عليها القرآن الكريم ، فامتزجت نفوسهم بوجوب رؤية الكون وأعاجيبه وآياته وأسراره ، أما الاعتبار فهو يقابل التجربة فى مفهوم عصرنا ، والاعتبار أن تعتبر مختلف حالات الأمر لتستقرىء منها رأيا شمل تلك الحالات فتأخذ به وتعول عليه ٠

ولقد كان للمشاهدة والاعتبار أثر كبير فى علم الفلك ، فليس من شعب فى الدنيا لاحظ السماء ورصد حركاتها كالعرب فى القديم وشهد بدقة ملاحظتهم لها مؤرخو العلم فقال الأستاذ نلليتو الايطالى : (إن العرب ٠٠٠ فى أصول مشاهداتهم تفوقوا على اليونان

تفوقا مجيدا ، ففى عدد مشاهداتهم وتتابعها المستمر وفى دقتها نجد التباين الصارخ بين الفلك اليونانى والفلك الإسلامى) ولقد استطاعوا أن يرصدوا الأفلاك رصداً قاربت دقته الأرصاد الحديثة مع أن الالات التى كانوا يستعملونها لاتقاس بشىء بالآلات التلسكوبية الحديثة ٠

وكذلك برّهن العرب على حسن اتقانهم لأمور المشاهدة فى الطب ، قال (أرنالديز وماسينيون الفرنسيان : إن المؤرخين متفقون على الاعتراف بأن القيمة الأصيلة للطب العربى هى فى التسجيل الصحيح للحالات الإكلينيكية ٠٠ وأن الدراسات التفصيلية تكشف النقاب عن الفارق بين الطب العام الذى نقل عن اليونان ٠٠ وبين الطب الحسى الذى هو ثمرة من ثمار التجربة والفكر والذى يظهر على المشاهدات الإكلينيكية عند العرب) وبرهن العرب على حسن إتقانهم للأعشاب الطبية ، قال سارتون : (لقد كان التراث العربى والإسلامى فى حقل الأعشاب هو فى كل نواحيه تقريباً أعظم بكثير من تراث أية أمة أخرى فى هذا الحقل ذاته) ٠

أما التجربة فقد قادتهم فى علوم كثيرة كالطب والطبيعة والكيمياء ٠

لقد أدخل العرب فى ميدان العلم أسلوبا جديدا فى البحث لم يكن معروفا قبلهم هو الاعتبار والتجربة وبهذا الأسلوب الجديد أصبح العلم الحديث على ما هو عليه اليوم ، للعرب أن يفاخروا بأنهم فى نزعتهم نحو المشاهدة وفى اعتمادهم على التجربة ، أدخلوا العلم فى عهد جديد هو عهد الحاضر ٠ فهم السباقون إذن فى النهج إلى العلم الحديث ٠

والعرب نقلوا العلم من الارستقراطية التى كان يرتع فيها زمن اليونان إلى الديمقراطية التى هو عليها الآن ٠

كان فلاسفة اليونان يبحثون ويكتبون للطبقات الخاصة من الناس تتلقاه فى حلقات خاصة لا يتجاوزها ٠

وجاء العرب فوضعوا هذا العلم بين يدى الناس عامة فيفهمونه ويتتبعونه دون عناء ، وليس من شك أن العرب إنما اكتسبوا هذه الروح الديمقراطية من الإسلام الذى يرى العلم حقاً مكتسباً للجميع وفرضاً أو واجباً على البنين والبنات ٠

لقد كان العرب فى تآليفهم أساتذة حقا ، فكتبهم تعليمية منظمة موضحة ، وإننا لندرك لماذا ظلت تراجم كتب العرب فى الجامعات الأوروبية مدة طويلة ، فقد كان يصعب

علينا أن نفهم لماذا لم يتجه الأوربيون فى أول نهضتهم إلى الكتب اليونانية مباشرة ؟ فيؤسسون علمهم ومعرفتهم عليها دون دراستها والتعليق عليها من قبل العرب ، أفلم يكن أسهل عليهم أن يترجموها مباشرة إلى لغتهم ؟ ومعرفتهم باللغة اليونانية القديمة التى هى من اللغات التى كتبت فيها التوراة والإنجيل أحسن من معرفتهم بلغة العرب ، ولماذا أداروا ظهورهم لكتب اليونان بلغة اليونان وتلقوا علم اليونان فى كتب العرب وظلوا على ذلك أكثر من قرنين ؟

السبب واضح فكتب العرب وعلومهم تعليمية بينة موضحة مشوقة لاتحتاج إلى شرح أو توضيح أو تعليم ، إنها تؤخذ سائغة جاهزة للفهم والتتبع ، ولو كان الأوربيون فى نهضتهم الحديثة بدأوا بكتب اليونان وأغفلوا الكتب العربية لتأخرت نهضتهم زمنا طويلا ، وذلك أنه كان عليهم أن يفسروا كتب اليونان قبل الاستفادة منها ، وليس من شك أن تفسيرها يطول أمره عليهم ، وإذا بالعرب يطلعونهم عليها مفسرة موضحة لا يرقى إليها التعقيد أو الغموض •

إن نقل العلم من التعقيد إلى التبسيط ، ومن أيدى المنقطعين إليه إلى أيدى الراغبين فيه ، ومن متناول الخاصة إلى متناول العامة لأمر رائع فى تاريخ العرب ، وتاريخ الفكر الإنسانى يحفظ للعرب الفضل أنهم جعلوا العلم عمليا يفيد الإنسان فى حياته اليومية ويؤدى الخدمة بين يديه ، وكان العلم اليونانى نظريا يتصدى للفكر والعقل •• كان يسير فى النظر دون العمل ، يناقش وينقد ، يرى ويظن ، يفترض ويبين ، فهو فلسفى قبل أن يكون عمليا •

أما العرب فيهمهم من الأشياء صلتها بالحياة ، والعمل والمادة والحواس ، ولذا اتجهت عبقريتهم نحو العلوم التى تظهر فائدتها العملية كالطب والكيمياء والرياضة والنبات وما إلى ذلك مما له صلة وثيقة بالحياة ، وليس من شك فى أن نقل العرب للعلم من اتجاهه النظرى إلى إتجاهه العملى هو أثر من آثار استجابتهم لقوله تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا ﴾ فالقرآن الكريم هو الذى وجههم هذا الاتجاه الذى يفيد الناس ويقدم لهم ما يحتاجون إليه فى حياتهم المادية •

وعلماء الغرب اعترفوا بميل العرب إلى الناحية العملية من العلوم ، يقول (ارناليز) و (ماسينيون) : إن ميل العرب نحو تنمية الفنون الصناعية والتطبيقات العملية ميل أفادهم أعظم الفائدة وهو ميل من ميول العصر الحديث ، وإنا لمدينون لهم فى الفلك

والميكانيك والكيمياء باختراعهم الآت مفيدة ، ونحن مدينون لهم فى الطب بانشائهم للبيمارستانات الكبيرة ، وهم أول من أوجدها وفيها تزدوج العناية بالمرضى مع تكوين الأطباء الشبان والملاحظات العملية الخالصة ٠

إنها حقا لثورة كبرى دفع العرب بها العلم فى اتجاهات جديدة فغيروا معالم المعرفة والحضارة ٠٠ ثورة عظمى من ثورات التاريخ الإنسانى الكبرى ، فهى قد فتحت للعلم آفاقه الحديثة الهائلة ٠





الثقافة في نظر الإسلام

كلمة ثقافة (Culture) الفرنسية أو الانجليزية تعنى فى الأصل الغرس والزرع والبذر وفى القاموس المحيط (ثقف صار حاذقا) إلا أن الثقافة تعنى الخدمة والمهارة ، ومن المعانى التى تحملها كلمة (ثقافة) الشحذ والتقويم ، فالعربى كان يثقف رمحه بأداة خشبية اسمها (الثقاف) بها يقّوم اعوجاج القناة ، والثقافة كما يعرفها البعض مزيج مركب من المعرفة الواعية واتساع أفق التفكير ونمو ملكة الفهم والشعور بالمسؤولية وحسن التصرف والنظام ، والثقافة فى الإسلام تكاد تكون تذوقاً للوجود قيماً سامية ومثلاً فاضلة ، ثقافة الغرب الحديثة أطلقت الجسم الإنسانى للعرى ، عبدت الجمال على حساب الخير ، أما الثقافة الإسلامية فالقيم فيها هى السيدة ، نحن روحانيون ما كانت الروحانية البحتة إيجابا ، ثورة حياة على عدم تكثيف إدراك لوحدة الإنسان ، الغاء تخوم قاتلة بين الوجود وما وراء الوجود ، ونحن ماديون ما كانت المادة إنسانية خلاقة ، موقفنا طبيعة تؤكد ما وراء الطبيعة ، تراب من ذلك التراب الذى مسته يد الله يوما وهو يقول للإنسان : أن كن فكان •

ثقافتنا إنسانية ، إنسانية من خلال الأصالة الإسلامية • ثقافة تقود إلى إنسانية أكثف وأغزر ، تفجر فى الإنسان إنسانية سامية صافية طاهرة يسود خيرها البشر ، وحين خلق الله الإنسان ونفخ فيه من روحه فانما أريد له أن يدرك إنسانيته ، أن يكتشف الكثير من أسرار هذا الكون ويستغلها لصالح أبناء جنسه من البشر •

إنسانية الثقافة فى الإسلام تعنى أن نمد جناح الظل والرحمة على الملايين أن تكون للجموع البعيدة كما للخاصة •

فالإسلام لايريد للثقافة أن تولد فى عزلة الصحراء ، أن تنكمش داخل التخوم فمن شروط الثقافة الحقة أن تنطلق لتعود أكثر خصبا •

ثقافة الغرب تجابه العدم اليوم أو تكاد ، قلق كلها حرب باردة حينا وحامية حينا آخر ، جعلت الإنسان غريبا ٠٠ المسخ أضحى ميزة القرن العشرين لقد غيرت الثقافة الغربية أبعاد الخير والسعادة وإنكمش الخلقى أمام الجمالى فما من قيمة تناط بها المثل الكبرى ولعل الشك أضحى هناك أهم من العقيدة والنقد أفضل من التقوى ٠

الصراع بين المادة والروح قائم فى أعماق ثقافة الغرب يمزقها مزقا ، أتستطيع الثقافة الاسلامية أن تتخلى مرة واحدة عن الدنيا ومتعها ؟ إذا تتمرد لتنهج طريقا آخر ، ما أرانى أعتقد ذلك أن كل إزدهار ثقافى لأمة من الأمم إنما ينبع من ذاتية هذه الأمة وأصالتها من عقائدها القويمة وأساليب تفكيرها السليمة كما أن كل تقهقر وانهيار فى كيانها إنما يرجع إلى فقدانها مقومات أصالتها وضعف إيمانها بعقائدها الفاضلة ومبادئها السامية ٠

ونحن ، نحن المسلمين لم تتدهور ثقافتنا اليوم وتهوى إلى الحضيض إلا حين أعرضنا عن مقوماتنا الأصيله وانحرفنا عن صراطنا المستقيم ، عن عقيدتنا الاسلامية التى تحثنا على طلب العلم وعلى الانطلاق فى مجالات المعرفة ، كثيرون هم الذين يعتقدون أن هجمات البرابرة هى التى قضت على الدولة الرومانية مع أن تلك الدولة تلقت قبل ذلك صدمات أشد هولا فصمدت لها ، ومازال بعضنا يؤمن بأن غزوات التترهى التى قضت على الخلافة العباسية كما أننا مازلنا نصر على أن شراذم الأفاقين من اليهود هى التى أرغمت جيوش العرب على الانسحاب فى حرب ١٩٦٧ م ولكن التفسخ الداخلى هو فى الواقع العامل الفعال الذى قضى على الامبراطورية الرومانية ثم الدولة العباسية وأخيرا على فلسطين مما أطمع العدوّ ، إذ وجد فيها لقمة سائغة فكانت ضربته شأن الجرثوم يتربص بالجسد حتى إذا آنس ضعفا انقضً عليه ٠

ثقافتنا الإسلامية الجديدة يجب أن تكون متصلة بالماضى العربى أو الاسلامى متصلة أقول : لا مكررة ، وما فى طوقنا التمرد على الماضى ، إنه نكران من نحن ، ولا فى طوقنا العبودية ، فلقد استنزف عطاء وابداعا ـ ولكنا سنعيشه تجربة جديدة ، سنعود إليه فى تمثيل جديد لنتجاوزه ، هذه النوسة الديالكتيكية بين الماضى والمستقبل هى المدى الخصب ، وكما عاش الغرب فى عصر النهضة ثقافة الإغريق فى تجربة كيانية جديدة لتكون هذه الثقافة الغربية القائمة كذلك يجب ان نعيش تراثنا الثقافى فى حركة ضمن التراث لا من فوق التراث ولا من وراء ظهره ٠٠ إنه ندب لذلك الماضى إلى قيم جديدة ، إطلاق له فى الفضاء ، تطور ذاتى لا تطور موضوعى ، تجديد فى فهمنا له ، لا فى كيانه ، فى تاريخ كل

أمة محامد ومثالب ، وليس دور المثالب بأقل شأنا فى عبرة التاريخ من الأمجاد والمآثر • قد تذكر الخصومات والمنازعات والاتجاهات المتضاربة لكن لا للتشفى والتحدى وإنما لبيان أثرها فى تفكيك الأمة الواحدة وتفتيت سلطانها ، نغالط التاريخ حين نقول : بأن الاستعمار الأجنبى سبب تجزئتنا وتفتيتنا •• لقد كان التفكك والتفتت أولا ثم تلاه الاستعمار ، ونحن نغالط التاريخ حين ننسب ضعفنا وتخلفنا إلى المستعمرين ، والحقيقة أننا ضعفنا وتخلفنا فاستعمرونا ثم بعد ذلك امعنوا فى إضعافنا وصدونا عن التقدم والرقى •

إن خير ما نستوحى من الماضى تلك الطاقة المعنوية التى دفعت المصلحين إلى الإصلاح والتجديد ، من ابطالنا الشجعان نستلهم شجاعتهم وإيمانهم بعقيدتهم لا أساليبهم فى القتال ، من علمائنا الأفذاذ نستمد قدرتهم على البحث لا ما وصلوا إليه بالفعل ••

الإسلام يحارب الأعداء الثلاثة

الجهل والفقر والمرض أعداء •• معاول تهد كيان الأمة وتدك صروحها وتدفعها إلى البؤس والشقاء فتهوى بها إلى الجحيم ، الجهل يهبط بالإنسان إلى الدرك الأسفل من الحياة •• يميت القلوب فلا تعطف ولاترحم ولاتفقه ، ويعمى الأبصار فلاترى السماء والنجوم ولا الأرض ولا البحار ، يطمس العقول فلا تفكر ولاتدرك ما أودعه الله فى هذا الكون من أسرار وعجائب وخيرات وبركات ، الجاهل يفقد الخصائص والمميزات التى انفرد بها الإنسان دون غيره من المخلوقات والتى تجعله خليفة الله فى أرضه ، الجهل يحجب تلك المعانى الرائعة التى يحويها كلام الله ويحول دون تفهم تلك الأهداف السامية التى شرعها الإسلام للحياة البشرية وجاء بها الرسول الأعظم خاتم النبيين ﷺ •

لذلك كله هاجم الاسلام الجهل بعنف وحاربه بقوة •

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (١٧٩ الاعراف)

والغفلة بنت الجهل أخطر داء يصيب الأمم وماذا ترى لقوم لهم قلوب غير انها لاتفقه كما يفقه الناس ولهم أعين ولكنها لاتبصر كما يبصر الناس ؟ ولهم آذان ولكنها لاتسمع

كما يسمع البشر • هكذا سلب القرآن الكريم عن الجاهلين صفة الانسانية وألحقهم بالانعام بل جعلهم أضل ؟

والفقر •• شر وأى شر يهين الرؤوس العالية ويذل النفوس السامية ، ويخمد القلوب الطامحة •• يشتت الأفكار ، ويحطم الآمال ويجلب الحسرات والآلام وكثيرا مايدفع الفقر الانسان إلى الخروج عن القيم الأخلاقية والمثل العليا فيقترف المنكرات ويجترح الآثام ••

والمرض معول من المعاول الهدامة ينخر الجسم نحافة ويخمد الفكر فلايستطيع النظر فى ملكوت السموات والأرض ، ويعجز عن استكشاف مافى الكون من أسرار لذلك كله حارب الإسلام الجهل والفقر والمرض •

كيف حارب الإسلام أعداءه الثلاثة ؟

حين كنت أعمل فى إذاعة هولندا عام ١٩٤٩ م سألت أحد المسؤولين : لماذا اهتمت الحكومة أولا بالسدود والترع والطرق والزراعة وتركت الكنائس مهدمة ؟ أجاب : كيف يعبد الإنسان ربه ومعدته خاوية ؟

اتخذ الإسلام في محاربته للجهل وسائل ثلاثًا

الأولى : محو الأمية وذلك بتعليم القراءة والكتابة فقد افتتح الله وحيه إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه بقوله تعالى :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾ •

وفى غزوة بدر أسر المسلمون عددا كبيرا من المشركين فأمر النبى ﷺ أن يعلّم كل واحد منهم ـ إذا كان يعرف القراءة والكتابة ـ عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة •

وليس من شك فى أن القراءة سلّم المجد والشرف وعنوان العلم والمعرفة •

الثانية : الحث على تحصيل العلوم والمعرفة والترغيب فى طلبها قال تعالى :

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾

ويقول الرسول ﷺ « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** » « **الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها** » ٠

الثالثة : تطهير النفوس من أدران الشرك بالتوحيد الخالص النقى من الخرافات والخزعبلات وتجريد العقول من الجمود والخمود بالنظر إلى الكون وأعاجيبه وآياته وحكمه ٠

المرض : واتخذ الإسلام طرقا مختلفة لمحاربة المرض فأمر بالوقاية وحذر من العدوى ، والوقاية أفضل من العلاج والقول المأثور يقول « درهم وقاية خير من قنطار علاج »

والوقاية من الأمراض تعود بالفائدة على الأمة وعلى الاقتصاد الوطنى ، إذ تجنى الدولة من ورائها ارباحا طائلة عن طريق زيادة الدخل ، ورفع المستوى الصحى والمادى للأفراد ٠ والإسلام يؤمن بالنظافة والوقاية لأن (النظافة من الايمان) وكما يقول المثل المأثور : (العقل السليم فى الجسم السليم) ٠

ولان تطبيق قواعد الصحة التى أهمها النظافة والوقاية بصورة منظمة وفعالة يساعد الأمة على التقدم والرقى ، إن امتلاك صحة جيدة حق أساسى لكل فرد من أفراد الأمة بقطع النظر عن دينه وتقاليده ومعتقداته ومهما كانت أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية ٠

تأمين صحة جيدة لكل فرد عامل أساسى للاستقرار والسلام ومسؤولية الصحة تقع على عاتق الدولة فعليها أن تتخذ الاجراءات الكفيلة لتحقيق هذه الغاية وعلى جمهور المواطنين المساهمة الفعالة لأن هذه المساهمة شرط أساسى لتحسين أحوال الصحة العامة ٠

الإسلام أمرنا بالتداوى ، وقد أباح للمريض والخائف من ازدياد المرض إذا توضأ أن يتيمم ، وأباح الفطر فى المرض والسفر والحيض والنفاس والحمل والإرضاع والشيخوخة ، كما أباح للمحرم إذا طرأ عليه مرض أو جدّ برأسه أذى أن يحلق رأسه مع إتمام إحرامه وأباح له استعمال ما يقيه من إصابات البرد أو ضربة الشمس كوضع قطعة من القماش على جسمه ولو كان مخيطا او استعمال شمسية أثناء اشتداد الحر ٠

والإسلام أمرنا بالوضوء للصلوات الخمس ٠ أمر بغسل الوجه والأيدى والأرجل والأنف ومسح الاذنين وهذه الأعضاء أكثر أجزاء الجسم تعرضاً للإصابات الجوية وخاصة

الغبار ، الذى كثيرا ما يحمل جراثيم ضارة ، وحفظاً لنظافة الأنف والفم والأسنان حثنا الدين على الاستنشاق والمضمضة والسواك .

وحرصا على النظافة ومنعاً لانتشار الأمراض نهى الرسول ﷺ عن قضاء الحاجة من براز أو بول فى الماء والطرق والظل ، وفى شواطىء الترع والأنهار « **اتقوا الملاعن الثلاث البراز فى المورد وقارعة الطريق والظل** » والقرآن سبق الطب فقرر أن فى دم الحيض أذى ضارا ، قال تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾
(٢٢٢ من سورة البقرة) .

والإرشادات النبوية تحذر من العدوى ، وتأمرنا بعزل المرضى عن الأصحاء ، ففى الحديث :

(اذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها) .

هكذا حارب الإسلام المرض حرباً لاهوادة فيها واهتم بالصحة كل اهتمام لانه لاعمل إلا بالصحة ولا جهاد إلا بالصحة ولا علم إلا بالصحة ولا سعادة إلا بالصحة .

الرياضة البدنية

ليس من شك فى أن للرياضة البدنية أثرا عظيما فى قوة الجسم ومناعته لذلك حث الإسلام على مزاولة الرياضة وخاصة الرماية والسباحة والجرى والمصارعة ، فقد فسر الرسول ﷺ قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾
(٦٠ سورة الأنفال) .

بقوله : **﴿ إلا أن القوة الرمى ﴾ حدث ذات يوم أن مر النبى ﷺ على نفر ممن « اسلم » يترامون بالنبال بالسوق فقال : « ارموا يابنى اسماعيل فان أباكم كان راميا ، ارموا وأنا مع بنى فلان ، فأمسك أحد الفريقين بايديهم فقال لهم الرسول مالكم لاترمون ؟ قالوا : كيف نرمى وانت معهم ؟ فقال : ارموا وأنا معكم جميعا »**

وعن السباحة قال النبى ﷺ : « **حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمى** » وقد ذكر نوعين مع السباحة وهما الكتابة والرمى مع فائدتها العظمى فى تقييد العلوم والمعارف فان فيها رياضة موضعية هى ترويض أصابع اليد على الحركة والسباحة مع فائدتها فى ترويض الجسم كله وتمرينه على سرعة الحركة فإنها أيضا مران على الجهاد البحرى .

أما الجرى فقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يرى أصحابه يتسابقون وأقرهم عليه ، وقد صح عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : سابقنى رسول الله ﷺ فسبقته ثم سابقنى فسبقنى ، فقال : هذه بتلك .

وعن المصارعة روى أن النبى ﷺ صارع رجلا قويا فصرعه النبى فقال : عاودنى فصرعه النبى فى الثانية فقال : عاودنى فصرعه النبى فى الثالثة فقال : الرجل ماذا اقول لأهلى ؟ شاة أكلها الذئب وشاة نشزت فماذا أقول فى الثالثة ؟ فقال النبى : « **ما كنا لنجمع عليك أن نصرعك فنغرمك خذ غنمك وانصرف** »

وعن المبارزة أو اللعب بالحراب (الشيش) قال ابوهريرة : بينا الحبشة يلعبون عند النبى ﷺ بحرابهم دخل عمر فأهوى إلى الحصباء فحصبهم بها فقال رسول الله ﷺ : « دعهم ياعمر » .

ومن أهم أنواع الرياضة ركوب الخيل وقد نوه القرآن الكريم بالخيل فى إعداد القوة للدفاع والجهاد قال تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(٦٠ من سورة الأنفال) كما جاء فيها قوله تعالى : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾

(٨ من سورة النحل) وقد صح عن النبى ﷺ أنه سابق بين الخيل وأعطى السابق ، وانه كان يتسابق على ناقته (الغضباء) .

والصلاة هى عماد الدين القصد منها التعبد للواحد الصمد والطاعة له تعالى والخضوع والخشوع فيها إلى جانب الرياضة الروحية رياضة بدنية ، فالوقوف ورفع اليدين تجاه المنكبين ، والركوع ونصب الساق وبسط الظهر والسجود والجلوس كل ذلك من صور الرياضة البدنية لها أثرها فى تقويم العضلات وقوة المفاصل ومرانها وقد فرض الإسلام الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة ليكسب المصلى قوة ومنعة ويكون على أهبة الاستعداد للدفاع والجهاد .

الفقر :

أما الفقر هذا العدو اللدود فقد حاربه الاسلام حربا شديدا ، حاربه من جوانب ثلاثة :

أولا : فرض الزكاة وهى حق مقرر شرعا بواقع ٢,٥٪ من الدخل بحسب ما إذا كان يجهد لقول الرسول ﷺ : « **ما سقته السماء ففيه العشر وما سقى بقرب ففيه نصف العشر** » ويلاحظ أن فائدة الضريبة المتعددة لاتشعر دافع الضريبة بالثقل ولا ترهقه بالدفع ، لأنها موزعة على جميع أنواع المال سواء كانت أموالا نقدية أو أموالا عينية .

والزكاة التى هى بالتعبير الحديث مؤسسة الضمان الاجتماعى ليست مجرد احسان فردى متروك لاختيار المسلم وتقديره الذاتى وإنما هى فريضة إجبارية تستوفيها الدولة وتقاتل عليها ولايجوز استعمالها أو توزيعها إلا على الفئات المنصوص عليها فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

ومن المتفق عليه أن ذلك القدر هو الحد الأدنى المفروض على الاموال النقدية والعينية لاستمرار مؤسسة الزكاة أو الضمان الاجتماعى أما إذا عجزت مؤسسة الزكاة فى حدود النصاب المقرر لها شرعا أن تقوم بالتزاماتها فإن للشارع أن يقدر حاجة المؤسسة ويحصل لها أموال المسلمين بالقدر الذى يمكنها من أداء رسالتها بكفالة كل العاجزين عن العمل والذى لايجد عملا أو الذى لايكفيه دخل عمله وذلك بقوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ ﴾ والمراد بالعفو هنا هو كل مازاد عن الحاجة ، وقول الرسول ﷺ : « **من كان له فضل ظهر فليعد به على من لاظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لازاد له** »

فى العهد الإسلامى الأول قامت مؤسسة الزكاة بأهم دور إنسانى هو ضمان حد أدنى لمعيشة كل فرد يسميه الفقهاء بحد الكفاية وبعضهم يسميه بحد الغنى بمعنى أن لكل مواطن أياً كانت ديانته أو جنسيته احتياجات ضرورية للمعيشة فإذا حال بينه وبين تحقيق هذا المستوى الملائم مرض أو شيخوخة أو تعطل عن العمل تكفلت له بذلك مؤسسة الزكاة ، وقصة عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع الضرير اليهودى معروفة فقد قرر حين

ثبت عجزه وحاجته الماسة مرتبا مستمراً من بيت المال عملاً بقول الرسول ﷺ : « **من ترك كَلاً فليأتنى فأنا مولاه** » أى من ترك ذرية ضعيفة فليأتنى فأنا مسؤول عنه وكلنا نعرف ما قرره عمر رضى الله عنه باعطاء كل مولود مائة درهم ويزيد العطاء كلما كبر الولد •

وليس هذا فقط فكثيرا ما قامت مؤسسة الزكاة بإعطاء الفقير إذا كان قادرا على العمل رأس مال ليبدأ تجارة يعيش منها •

لقد انفرد الإسلام منذ أربعة عشر قرنا بإنشاء مؤسسة الزكاة أو الضمان الاجتماعى وقرر لها ضريبة مستقلة تحصلها الدولة الإسلامية وهذا بخلاف الضرائب الاخرى التى كانت تحصلها لمجابهة التزاماتها المختلفة كضريبة الخراج وهى ضريبة على الأطيان وضريبة العشور وهى ضريبة جمركية إذا استدعى الأمر كما ورد فى الحديث النبوى « **فى المال حق سوى الزكاة** » •

والدول الغربية لم تعترف بحق الفقراء فى أموال الأغنياء إلا فى بداية القرن السابع عشر عندما اضطرت ملكة بريطانيا عام ١٦٠١ م أن تعترف بحق الفقراء فأصدرت قانونا سمته (قانون الفقراء) ثم اضطرت بعد ذلك أمريكا ودول أوربا أن تقتدى ببريطانيا فى هذا الطريق •

التكافل الاجتماعي

يختلف التكافل الاجتماعى عن الضمان الذى يقتصر على النواحى المادية كالنقود والطعام واللباس والسكن والرعاية الصحية فهو يشمل النواحى الأدبية والروحية كالتراحم والتعاطف والتساند والتعاون والدعوة إلى الرشاد والهدى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقد عبرت عن هذا التكافل آيات كريمة :

منها ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وقال النبى ﷺ « **المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا** » « **مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** » جاء فى وثيقة حقوق الإنسان التى صادقت عليها الأمم

المتحدة فى ديسمبر عام ١٩٤٨م مايلى « لكل فرد حق فى أن يعيش فى مستوى معقول من المعيشة بحيث يتوفر له ولأسرته الصحة والمعيشة الطيبة بما يضمن له الغذاء والكساء والرعاية الصحية والخدمات اللازمة وكذلك حق الضمان فى حالة التعطل والمرض والعجز والترمل والشيخوخة وغير ذلك من التكسب لأسباب لايستطيع التحكم فيها » .

والإسلام سبق الأمم المتحدة فى هذا المجال الإنسانى بأربعة عشر قرنا ولاغرو فالإسلام نظام عالمى خالد صالح لكل زمان ومكان .

حث القرآن الكريم على العمل والكسب ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾

ويقول الرسول ﷺ : « والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب إلى الجبل فيحتطب ، ثم يأتى به فيحمله على ظهره فيأكل خيراً له من أن يسأل الناس » .

وليس من شك أن فى هذا الحديث توجيها إلى التماس الرزق من العمل لا من الصدقة ، والرسول ﷺ يأمر بكفالة حق العامل بمثل قوله : (ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة .. (أحدهم) رجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره ، ولقد قدم مرتبة العاملين على الرهبان المتبتلين ففى حديث الذين أثنوا على أخيهم بصيام النهار وقيام الليل حين سألهم الرسول ﷺ عمن يعوله ، فقالوا : كلنا ، يروى أن النبى ﷺ قال لهم : (كلكم خير منه) ذلك لأن اليد العليا خير من اليد السفلى والمتوكل الآخذ بأسباب الرزق على أدب الله ليس كالمتوكلين التاركين للأسباب ، والآكل من كسب يده على مرتبة هى مرتبة الأنبياء والمرسلين ، والعاملون المجدون هم القائمون بحق استخلاف الله إياهم فى الأرض وهم الصالحون لوراثتها .

لقد كان أبوبكر الصديق رضى الله عنه يحمل الثياب على كتفه فيبيع ويشترى حتى إذا ماولى الخلافة خوطب فى ترك التكسب ليتفرغ لشؤون الخلافة فقال : فمن أين أطعم عيالى ؟ ففرضوا له مايكفيه . وكان من عادة عمر رضى الله عنه أن يسأل من يقدم عليه ما حرفته فإن لم يجد له حرفة سقط من عينه ، وقد كان هو نفسه يهنأ إبل الصدقة بيده (يطليها بالقطران علاجا للجرب) وكان سادة الصحابة التابعين يتجرون ويجمعون الأموال .

ثالثا :

أوجب الإسلام على الأغنياء معونة الفقراء والمساكين وسد حاجتهم وانتشالهم مما هم فيه من بؤس وشقاء

﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾

واستدر عطفهم بالترغيب فى البذل والعطاء

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ كما استدر عطفهم بالترغيب بقوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾

ويقول الرسول ﷺ : « **اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم** » .

وروى عن عمر وأبى هريرة وطاووس والشعبى إن فى المال حقوقا سوى الزكاة مثل برّ الوالدين وصلة الرحم وقِرَى الضيف ، وقال ابن جريج إمام أهل الحجاز فى القرن الثانى الهجرى : سأل المؤمنون رسول الله ﷺ ماذا ينفقون ؟ فنزلت الآية

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ .

حث الرسول الأعظم على وجوه الخير والتضامن الاجتماعى « **من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته** » . « **لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** » . « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا** » .

هكذا يتبين لنا بكل وضوح الطريق الذى رسمه الإسلام لمعالجة الفقر والحد من وطأته ، إن الرسول الأعظم يقرر بهذه الاحاديث دروساً كفيلةً أن تهيىء للمجتمع لبناته من طراز ممتاز كما يزرع الروح الاجتماعية فى نفس كل مسلم .

والإسلام إذ يدعو لتكافؤ الفرص لايقصر جهده على إشباع المعدة ولكنه يهيىء جميع حاجات الإنسان ، الإسلام جعل للانسان كياناً ذاتياً وأفسح له المجال ليرقى ويعيش

حياة حرة كريمة • لذلك أوجب الخصائص الفردية والجماعية والوحدة بين أبناء الأمة فى الحقوق والواجبات والتضامن فى المسؤوليات وإقامة العدل والمساواة بين الناس بغير تفرقة بين الأنساب والأحساب والأجناس والألوان •

الإسلام أقر الملكية الفردية ووضع النظم التى تحمى هذه الملكية وعاقب السارق بأشد العقوبات لأنه يعتدى على تلك الملكية •

والإسلام حين أقرّ الملكية الفردية رتب عليها حقوقاً ماليةً لمصلحة المجتمع وذلك كالزكاة والتكافل الاجتماعى وغير ذلك من النفقات ، المالية المفروضة على الموسرين للمعسرين

الإسلام شرط على المالك ألا يتصرف تصرفاً يلحق الضرر بنفسه وبالمجتمع ولذلك حرم الربا والميسر والاحتكار والوصية بأكثر من الثلث •

وروى عن ابن عباس وعبادة بن الصامت عن النبى ﷺ أنه قال : « **لاضرر ولا ضرار** » وقد اعتبر العلماء ورجال التشريع هذا الحديث قاعدة عامة شاملة مانعة لجميع أنواع الضرر ، وأجاز العلماء الحجز على السفيه لأنه يتصرف فى أمواله تصرفاً يلحق الضرر بالناس ، وهناك قيود جماعية فرضت على الملكية الفردية تعرض لها الفقهاء خلال بحثهم عن الضرر والنهى عن وقوعه ، وقد قيدوا نمو الملكية الفردية إذا كان هذا النمو يسير على طريق غير شرعى كالربا والاحتكار والإضرار بالناس ، وقديما حرم الربا الفليسوف سولون فى معرض ما قرره من وجوه الاصلاح ، وحرم أفلاطون الربا إطلاقا فقد جاء فى كتابه « القوانين » « لايحل لشخص أن يقرض بربا » أما أرسطو فقد هاجم الفائدة الربوية بقوله : « ليس هناك منطق أقوى من ذلك الذى يقرر أن أبغض الأشياء هو الربا الذى يستدر الربح من المال ذاته »

وقررت المسيحية أن الربا « إثم وكبيرة »

وجاء الإسلام وحرم الربا بنصٍ صريحٍ واردٍ فى القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾ •

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

جميع هذه النصوص لا تترك مجالا للشك فى حرمة الربا ، وقد شدد الله تعالى عقوبة من يخالف أمره بأن شهر عليه حربا من الله ورسوله ، هذا هو نظام الإسلام الاقتصادى وتشريعه فى معالجته للفقر وفى تخطيطه لحياةٍ أسمى وأفضل ومستقبل أنقى وأزهر ، وقد مضى على هذا النظام وهذا التشريع ألف وأربعمائة عام وهو حى قوى باقٍ على الدهر ناهض بالبشر إلى ما تستطيع قواهم أن تناله من مثالية وسمو ، إنه نظام متميز عن كل النظم الاقتصادية المعاصرة .

لقد اعترف بعظمة النظام الاقتصادى الإسلامى بعض الباحثين الغربيين المنصفين فهذا الباحث الفرنسى جاك اوسترى قال فى مؤلفه : « الاسلام امام التطور الاقتصادى » الذى صدر بالفرنسية عام ١٩٦١ م مايلى : « ليس هناك فى الحقيقة طريقة وحيدة وضرورية لابد منها للإنماء الاقتصادى كما تريد أن تقنعنا به المذاهب القصيرة النظر فى النظامين الاقتصاديين السائدين » وقد ألحّ هذا الباحث على ضرورة التماس المذهب أو النظام الاقتصادى الثالث فى الإسلام ثم دعا إلى دراسة قواه الكامنة فيه وقال : إن الإسلام يستطيع ان يتغلب على جميع الصعوبات الاقتصادية التى يقف الاقتصاد الحديث عاجزا عن معالجتها ودعا المسلمين إلى ضرورة العودة الى الاسلام كما حذّرهم من الأخذ بالنظام الاقتصادى المستورد من الخارج (النظام الماركسى) فإن هذا النظام فى تشريعه وتطبيقه الاشتراكى ينص على ما يأتى :

١) إلغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج (الأرض ورأس المال) التى هى حق مكتسب لكل فرد .

٢) مصادرة جميع الثروات ووسائل الانتاج .

٣) تأميم المعامل والمؤسسات التجارية والمالية .

٤) إخضاع جميع وسائل النشر والإعلام لسيطرة الحزب صاحب السلطة العليا .

٥) تحديد نوع العمل للعاملين ٠

٦) تشغيل الفلاح كأجير فى الأرض لقاء نسبة معينة من الإنتاج ليعيش ٠

٧) وأخيرا القضاء على جميع النظم القائمة لتسود الشيوعية العالم ، ومؤسس الشيوعية واشتراكيتها العملية هو كارل ماركس الذى ولد فى مدينة تريف الالمانية عام ١٨١٨م من أبوين يهوديين ، وقد تنصر أبوه ظاهرا لكسب المال والحصول على وظيفة فى الحكومة التى كانت خاضعة لنفوذ الكنيسة ٠

ومات كارل ماركس عام ١٨٨٣ م قبل أن ينتهى من تأليف كتابه « رأس المال » وهذا الكتاب يقوم على أساس المادة وعلى نكران كل الأديان ، ويعتبر كارل ماركس المادة هى كل شىء فهو لذلك لايؤمن بوجود الله خالق الكون ، كما يجرد الانسان من خصائصه ومقوماته الذاتية ، والشيوعيون يعتقدون أن كارل ماركس محيط بأسرار المادة والحياة ٠ والرجعية فى نظرهم ـ كما ورد فى دائرة المعارف الشيوعية ـ تطلق على جميع النظم التى لاترفع الشعارات الثورية المستمدة من النظام الماركسى وعلى كل متمسك بدينه وبتقاليده القومية ٠ والتقدمى من مفهوم الماركسيين هو الذى يدين بنظام كارل ماركس ويرفع شعاراته ويسهم فى هدم كل قديم ، حتى ولو كان هذا القديم مصدر خير ويرى هؤلاء أن تدمير الروابط الدينية والقومية والأسرية أمرٌ ضرورى ليسود نظامهم الماركسى ويسيطر على مقدرات الشعب وثرواته ٠

يقول فليسوف الشيوعية إنجلز : « إن كل القيم الاخلاقية هى فى حقيقة أمرها ناتجة عن خلق الظروف الاقتصادية » ويقول لينين فى خطاب ألقاه فى المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب الشيوعى فى اكتوبر عام ١٩٢٠م : « اننا لانؤمن بالإله ، ونحن نعرف كل المعرفة ، أن ارباب الكنيسة والاقطاعيين والبورجوازيين لايخاطبوننا باسم الإله إلا استغلالاً ومحافظةً على مصالحهم ، إننا ننكر بشدة جميع الأسس الأخلاقية التى صدرت طاقات وراء الطبيعة ، غير الانسان ، والتى لاتتفق مع أفكارنا ونؤكد أن كل هذا مكر وخداع ، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال ، لصالح الاستعمار والاقطاع ، ونعلن أن نظاما لايتبع إلا ثمرة النضال البروليتارى ، فمبدأ جميع نظمنا الاخلاقية هو الحفاظ على الجهود الطبقية البروليتارية » ٠ هذه هى فلسفة المذهب الشيوعى واشتراكيته : إلحاد ، نكران كل الأديان ، تجريد الإنسان من كل خصائصه ومقوماته الذاتية ، والمثل العليا التى يقدسها ، واعتباره آلةً صماء مسخّرة لخدمة النظام ، هذه هى المبادىء التى يقوم عليها

النظام الماركسى فى الحكم وتطبيقاته الاشتراكية ، ويقول لينين : « لكى تحقق الثورة الاشتراكية أهدافها يجب القضاء على الخصائص الفردية والتشريعات التى تبيح الملكية الخاصة والحجر على الحريات التى تعيق العمل الثورى وتطبيقاته » ٠

هذه هى الشيوعية واشتراكيتها ، تحطيم للمثل العليا ولفطرة الانسان ، قضاء على جميع النظم القائمة والمعتقدات المقدسة ٠

أما الإسلام فقد جاء بنظام غير مسبوق ولا ملحوق يتوافق مع فطرة الانسان ويصلح لكل زمان ومكان ، لقد نظم جميع جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وأقام قواعده على أسس فاضلة سامية ٠

أجل أقام العدالة الاجتماعية وساوى فى الحقوق والواجبات بين الناس ، قضى على الظلم والمرض والعبودية والعنصرية ، حرّم الربا والميسر والاحتكار والجشع والطمع ، فرض الزكاة بجميع أنواعها : نقدية وعينية لإسداء الخير للفقراء والمساكين ، حث على العمل والكسب ، أوجب على الأغنياء معونة ذوى العسرة والمعوزين ، جعل الشورى هى القاعدة الأساسية للحكم ، حمى الملكية الخاصة والقيم الروحية ، أمر بالتعاون بين الأفراد والجماعات لخيرهم وخير مجتمعهم ٠٠ الواقع أن الاسلام بمبادئه السامية يتصدى للشيوعية ، ويدعو لمقاومتها وحماية المجتمع البشرى من أخطارها الجسيمة لذلك يعتبر الماركسيون ومن على شاكلتهم من أصحاب المبادىء الهدامة ، يعتبر هؤلاء الإسلام عدواً لدوداً يجب تحطيمه بكل الوسائل الممكنة والقضاء عليه عن طريق ترويج شعارات الصراع الطبقى والدعاوى المشوهة لمعالم تاريخ الوجود للحضارة الانسانية ، وإثارة الحقد والبغضاء فى نفوس الناس ، والواجب على المسلمين فى جميع أقطارهم ، ان يعتصموا بحبل الله المتين ، أن يعملوا بمبادىء الإسلام ، أن يحرصوا كل الحرص على تطبيق تعليماته وإرشاداته ، أن يحققوا أهدافه وغاياته ليعيشوا أعزاء كراماً ، ويقفوا سداً منيعا أمام الخطر الأكبر ٠٠ أمام الغزو العقائدى الماركسى بايديولوجيته واشتراكيته ، هذا الغزو الذى أخذ يتسلل إلى أفريقيا وآسيا وينشب أظفاره وأنيابه فى هاتين القارتين ٠





الضمان الاجتماعي

فى ديسمبر عام ١٩٤٨ م صادقت الأمم المتحدة على وثيقة حقوق الإنسان وهى : « لكل فرد الحق فى أن يعيش فى مستوى معقول من المعيشة بحيث يتوفر له ولأسرته الصحة والمعيشة الطيبة بما يضمن له الغذاء والكساء والمسكن والرعاية الصحية والخدمات الاجتماعية اللازمة وكذلك حق الضمان فى حالة التعطل والمرض والعجز والترمل والشيخوخة ، وغير ذلك من العجز عن التكسب لأسباب لا يستطيع التحكم فيها » ٠

والإسلام سبق الأمم المتحدة منذ أربعة عشر قرنا بتقرير حقوق الإنسان بشكل أعدل وأفضل وأعمق أثراً ، أجل اهتم الإسلام بالتكافل الاجتماعى ممثلا فى مؤسسة الزكاة فهى أبرز صورة للتكافل والضمان الاجتماعى ، وأقوى صلة وضعها هذا الدين لتنظيم العلاقة ٠

بين المرء ونفسه أولا

بين الفرد وأسرته ثانيا

وبين الأغنياء والمصالح العامة ثالثا ٠

فالإسلام هو بحق دين الضمان الاجتماعى وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وقول الرسول ﷺ « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا** » ، وقوله عليه الصلاة والسلام « **مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** » ٠

لقد جعل الإسلام المرء مسؤولاً عن نفسه مسؤولاً أن يحررها من الرذائل ويصدها عن الخيانات ويوجهها إلى العمل للدنيا كأنه يعيش أبداً وإلى العمل للآخرة كأنه يموت غدا ٠

فالإسلام كما قلنا مراراً ليس ديناً روحياً يصرف المرء عن دنياه إلى أخراه وإنما هو منهاج كامل للحياة البشرية بكل مقوماتها ، هو دين ودنيا ، دين يرى أن سعادة الآخرة

من سعادة الدنيا وأن سعادة الآخرة تتطلب قوة فى الجسم والعقل ونهضة فى العمل الصالح ورغبة فى عمل الخير

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ .

والتكافل بين المرء ونفسه نظام تربوى قويم وهو تكافل فردى فى ظاهره ولكنه فى الحقيقة تكافل اجتماعى فى السلوك الاجتماعى والإنسانى فكل فرد صدقت نيته فى فعل الخير وصح قصده فى نفع مجتمعه يستطيع أن يغير شيئا من مجتمعه ، وليس البناء الاجتماعى إلا مجموعة من أبنية صغيرة وأحجار يرصف بعضها فوق بعض .

وينتقل الإسلام بالتكافل من الفرد إلى محيط الأسرة وفى الأسرة وهى تتألف عادة من أب وأم وأولاد نرى الأطفال يؤثر بعضهم فى بعض ويتأثر بعضهم ببعض وكل طفل يتعلم من إخوانه وأخواته مشاركة فى العواطف وتشابكا فى المشاعر كل واحد منهم يشارك إخوانه فى أفراحهم ويشعر بالحزن من أحزانهم ، وهكذا تتجلى فى الأسرة كل ما للجسم العضوى من مميزات فإذا سلمت الأعضاء سلم الجسد وإذا سقم واحد منها سقم الجسد كله .

والأسرة هى اللَّبِنَة الأولى فى بناء المجتمع فإذا أقيم هذا البناء على أساس التكافل والتضامن خفت الأعباء الاجتماعية على الدولة ، إن كل عضو فى الجسم ينفع سائر الأعضاء وينتفع بسائر الأعضاء ويضرها ويتضرر بها ، والعضو الذى ينفصل عن الجسد يموت كاليد تفارق الجسم والورقة تسقط عن الشجرة والفرد ينفصل عن المجتمع ، إن كل ماصح فى الأسرة يصح فى المجتمع ونسبة الفرد إلى الجماعة أنه عضو من أعضائها .

الإسلام يعتبر كل فرد مكلفا بأن يحسن عمله الخاص لأن ثمرة عمله عائدة على نفسه وعلى الأسرة والجماعة ، على الفرد أن يشعر أنه حين يقوم بواجبه نحو المجتمع فإنما يقوم بواجبه نحو نفسه . وعلى المجتمع أن يشعر أنه حين يقوم بواجبه نحو الأفراد إنما يقوم بواجبه نحو نفسه . ولكل فرد على الجماعة أو الدولة حق فى الإعداد للعمل علمياً وعملياً ، وفى كفالة العمل للقادرين عليه ، على الدولة أن تسوى بين جميع أفراد الأمة فيما تتيح لهم من فرص التعليم ، وهذه المساواة فى التعليم بين أبناء الشعب فرض لازم على كل حكومة تريد أن تحقق لكل فرد من أفراد أمتها كرامة الانسان الحر . فالمبدأ الأساسى للتضامن الاجتماعى القائم على الحرية والمساواة والعدالة يوجب أن يتساوى الجميع فى المعاملة وأن تهيأ الفرصة لكل فرد من أفراد الجماعة ، وما دام واجباً على كل فرد أن يبذل لبلاده أغلى ما يمتلك وهو دمه ونفسه ، فليس كثيراً أن تفرض الدولة على نفسها أن تبذل أغلى

ما عندها من غير تمييز بين طبقة وأخرى ، ودون نظر إلى الغنى والفقر ، والذكورة والأنوثة والسن والاتجاه السياسى ·

وبديهى أن المثل العالى فى الوطنية بل فى الإنسانية أن تتوثق الروابط بين الناس على أساس من المحبة والإيمان والتكافل والتضامن والأمل ·

انفرد الإسلام منذ أربعة عشر قرنا بإنشاء مؤسسة الزكاة أو مؤسسة الضمان الاجتماعى على حد التعبير الحديث باعتبار مسؤولية الدولة الإسلامية عن كفالة كل مواطن عاجز معسر وذلك عن طريق ما تحصله خصيصاً لذلك ممثلا فى الزكاة ·

والإسلام اعتبر الزكاة عبادة من العبادات وركناً مالياً من أركان الدين قصد به تنظيماً إجتماعياً له خطره فى حياة الأمم وأخلاق الأفراد والجماعات .ولقد اعتبر الاسلام إهمال هذه الزكاة أو هذا التكافل المادى بمثابة إنكار للدين ذاته ، فالزكاة فريضة إلزامية تستوفيها الدولة وتستعمل حصيلتها على الفئات المنصوص عليها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾·

الزكاة ليست مجرد إحسان متروك لاختيار المسلم وتقديره الذاتى وإنما هى حق تأخذه الدولة وتقاتل من امتنع عن أدائها ، وفى ذلك يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « **من أعطاها مؤتجرا قد أجرها ، ومن منعها فأنا آخذها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا** » (رواه أبو عبيد فى كتاب الأموال والشوكانى فى نيل الأوطار) ·

والإسلام شرع الزكاة فى الذهب والفضة وفى البضائع التجارية وفى المواشى وفى الزرع بنسب لاترهق الغنى ، وحق الزكاة مقرر شرعا بواقع ٢,٥٪ من الدخل ، بحسب ما إذا كان بجهد أو بغير جهد لقول الرسول ﷺ : « **ما سَقَتِ السماء فعليه العشر وما سُقِـىَ بقرب ففيه نصف العشر** » وليس من شك أن هذا القدر هو الحد الأدنى المفروض فى الأموال لاستمرار قيام مؤسسة الزكاة بواجباتها نحو المجتمع كمؤسسة الضمان الاجتماعى فإذا عجزت مؤسسة الزكاة فإن للشارع أن يحصّل لها من أموال المسلمين ما يمكّنها من أداء رسالتها السامية إعمالاً لقوله تعالى : ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ والمراد بالعفو هنا هو كل مازاد عن

الحاجة وقول الرسول ﷺ : « **من كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له** » وقوله عليه الصلاة والسلام : « **إن الله فرض على الأغنياء فى أموالهم بقدر ما يسع فقراءهم** » .

نظام الزكاة في صدر الإسلام

فى صدر الإسلام كان للزكاة نظام خاص يختلف فى بعض صوره عن ما هى عليه اليوم ، كانت مؤسسة الزكاة تقوم بأدوار هامة بعد سد حاجة الفقراء .

أولها : تجهيز الجيوش ودفع المغارم

ثانيها : إعطاء فرصة العمل للقادر عليه فكثيراً ما أُعطِىَ الفقير رأس مالٍ ليبدأ تجارة ينمو بها .

ثالثها : تخفيف الأعباء العائلية فقد قرر عمر بن الخطاب إعطاء كل مولود مائة درهم ويزيد العطاء كلما زاد الولد .

رابعها : ضمان حد أدنى لمعيشة كل فرد لم تسعفه ظروفه الخاصة كمرض أو شيخوخة أو تعطل عن العمل وإسعافه بالمال ليعيش فى المستوى الملائم له ، وقصة عمر بن الخطاب مع الشيخ الضرير اليهودى معروفة حيث ثبت له حاجته الشديدة إلى المال فقرر له راتباً مستمراً من بيت المال ، عملاً بقول الرسول ﷺ : « **من ترك كلاً فليأتنى فأنا مولاه** » أى من ترك ذرية ضعيفة فيأتنى بصفتى الدولة فأنا مسؤول عنها .

ابن حزم وابن تيمية من أبرز الفقهاء الذين أوضحوا سبب عناية الإسلام واهتمامه بالضمان الاجتماعى ممثلا فى مؤسسة الزكاة ، يرى الفقهاء الأعلام أنَّ ترك أحد أفراد المجتمع الاسلامى فريسةً للجوع والحرمان هو عدوان على حق الله سبحانه وتعالى ، فابن حزم يرى أن لكل فرد فى المجتمع الإسلامى أيًا كانت ديانته أو جنسيته الحق فى أن يحيا حياة حرة كريمة ، فإذا عجز بسببٍ خارجٍ عن إرادته أن يوفر لنفسه الحد اللائق اللازم لمعيشته فإنه يصير التزاما على الدولة أن تكفل له هذا الحد .

هذه هى مكانة الزكاة والصدقات من الشؤون الاجتماعية وموقف الإسلام من هذا التكافل الاجتماعى العظيم ، إنه موقف حكيم يسد منافذ الأفكار الهدامة ويبعث فى نفوس الفقراء الطيبة وينشر فى البلاد الهدوء والسكينة والأمن والاستقرار .

العدالة في الإسلام

وردت آيات قرآنية تقرر الوحدة الانسانية بين الناس أجمعين ٠ تقرر التراحم والتعاطف والتكاتف بين بنى البشر على اختلاف أجناسهم وأديانهم وأشكالهم وألوانهم

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

والله سبحانه وتعالى نظم العلاقة بين بنى البشر على أساس العدل والمساواة قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ (١٣٥ من سورة النساء)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٩٠ من سورة النحل)

العدالة فى ذاتها مطلوبة لأنها أقرب القربات إلى الله تعالى ، العدالة فى كل شىء وفى كل عمل ، والإعراض عن الحكم ظلم ، والسكوت عن رد العدوان ظلم ، المؤمن يجب عليه أن يقاوم الباطل وأن ينصر الحق بكل مرتخص وثمين ، وأن يؤيد الحق حيثما كان ، وليس فى الإسلام طبقية فلا يكرم الغنى لغناه ، ولا يذل الفقير لفقره ٠ لاتفرقة بين العناصر فى تحقيق العدالة ٠ فلا يصح أن يظلم زنجى للونه ولا يحابى أبيض لشقرته ٠ قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ (١٣ من سورة الحجرات) ٠

فالعدالة بين الأجناس واجبة لأن الأصل واحد وهو الأب والأم ، كما قال النبى ﷺ : « **كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى** » والاختلاف فى الشعوب والأجناس يوجب التعارف والتعاون على الخير ، ولا يسوغ التنافر والتخالف ، والفضل لايكون بالحسب والنسب بل يكون بالعمل الصالح والسعى لخدمة الانسانية .

الإسلام حارب التعصب القبلى والتعصب الجنسى ، والتعصب الإقليمى وجعل الناس أمة واحدة لا فرق بين عربى وغير عربى .

ومن العدالة المعاملة بالمثل ، فمن اعتدى علينا قاومناه بكل مالدينا من قوة قال تعالى :

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (١٩٤ ـ البقرة)

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾

(١٢٦ من سورة النحل)

والصابرون هنا هم أولئك الذين لا تضعف نفوسهم ، ولا تتضعضع قواهم ، ولا تلين عزائمهم ولا يستسلمون .

وأمرنا الإسلام عند المعاملة بالمثل أن نتمسك بالأخلاق السامية ، فإذا كان العدو يقتل الذرية لا نقتلها ، وإن كان يدمر ديار الآمنين لا ندمرها ما وسعنا إلى ذلك ، وإذا كان ينتهك الأعراض لانتنهكها نحن ، وهكذا ، والوفاء بالعهد عدالة لأنه فى ذاته قوة ، ولأن العهد فيه حد للحقوق . قال تعالى :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ .

والعهد هنا هو الذى يوثق بيمين الله أو بإشهاد الله تعالى عليه ، فمن ينقض هذا العهد فإنما ينقض عهد الله تعالى الذى وثّقه بكفالته .

العقاب أو القصاص

لعل من الأجدر بنا أن نتحدث عن الجريمة ومراحلها التاريخية قبل البدء فى الحديث عن العقاب أو القصاص .

الجريمة مشكلة اجتماعية خطيرة واغلة فى أغوار القدم ، والحديث عنها يهتك الستر عن ناحية من نواحى الضعف البشرى وتعود بالذات الإنسانية إلى مصادر نقصها الأزلى الدائم ·

فقد رافقت الجريمة الخلية الاجتماعية الأولى ، ولازمت نشوء المجتمعات وتطوراتها · وقد غالى بعضهم فاعتبرها شرطاً من شروط الحياة الاجتماعية وضرورة من ضروراتها ·

ها هى الكتب المقدسة افتتحت التاريخ الإنسانى بالخطيئة والألم بين الدماء والدموع ، أو ليست خطيئة آدم هى التى عوقب عليها بالهبوط ؟ أو لم يرو القرآن الكريم عن قصة ابنىْ آدم وكيف قتل أحدهما الآخر ؟

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(٢٧-٣٠ من سورة المائدة) ·

والنظام الاجتماعى يحمل فى صلبه صوراً من الإجرام تتبدل أشكاله وتتناقض بتعدد البيئات والمجتمعات ، وليست الجريمة إلا نتيجة للصراع القائم بين الفرد والمجتمع ·

والإنسان ذاتٌ مستقلة لها كيانها المنفرد الخاص بها ، يسعى الإنسان وراء تقوية شخصيته واشباع حاجاته وعواطفه وميوله ، ولكنه لايقوى على مجابهة أخطار الكون إلا إذا انضم إلى أخيه الإنسان وقرن جهده بجهده ·

فالحياة الاجتماعية إذن تفرض نفسها على الإنسان بنفسها ، وهكذا يتولد هذا الصراع أو هذا التناقض السرمدى بين الجريمة التى تعتبرها الذات الانسانية (الأنا) قوام كينونتها وارتقائها ، وبين الضرورة التى يفرضها العالم الخارجى على الأفراد والجماعات معا ·

ولم يكن ثمة مناص من التفكير بوضع القواعد أو الضوابط للتوفيق بين الحرية التى تعتصم بها الذات الإنسانية والضرورة التى تتجلى فى سلطان المجتمع ولا يمكن بأى حال أن يستقيم أى نوع من أنواع التنظيم الاجتماعى إلا بقيام هذه القواعد التى تعين مدى

الصلات القائمة بين الذات واللاذات ، وتحدد الحقوق والواجبات بين الفرد والمجتمع ٠

وليس من شك أن هذه القواعد أو الضوابط لاتقوم بعملها خير قيام إلا إذا اقترنت بمؤيدات تضمن مراعاتها وتعاونها حية نشطة ٠

وهذه المؤيدات قد تستمد قوتها من الوجدان الإنسانى وتبنى التزامها على مفاهيم خلقية يحتل فيها الشرف والنبالة والاستقامة المكان الأسمى ، وكثيراً ما تقترن هذه المؤيدات الخلقية بالمؤيدات التى تستمد قوتها من العقيدة ، من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ٠

وقد تشتق القواعد أو الروادع الأخلاقية كذلك مما تعارف عليه الناس من تقاليد وآداب ، ولكن هذه التقاليد والآداب والضوابط الأخلاقية والدينية قد لاتكفى وحدها فى حماية المصالح الكبرى ، فى الذود عن القيم والحرمات أو فى منع الفرد من الاعتداء على حقوق الغير أو اغفال الواجبات الملقاة على كاهله أو اقتراف ألوانٍ من السلوك تضرّ بالمجتمع ومؤسساته ونظمه ، فقد يظل كثير من الناس ممن ضعفت عزائمهم ، ومالت موازينهم الخلقية والدينية فهم لايحسون وصمة العار ولا يخشون تأنيب الضمير ولا دينونة العدل الإلهى ، أعطوا نفوسهم كل هواها واتبعوا الشهوات وانحرفوا فى سلوكهم عن سواء السبيل ٠

لهذا كان لابد من وضع قواعد أشد خطرا وأقوى أثراً وأبعد مدىً فى خدمة الضوابط الاجتماعية وصيانة القواعد التى تهدف إلى تنسيق علاقات الأفراد بعضهم بين بعض ، وترمى إلى التوفيق بين سلوك الفرد ومقتضيات الحياة فى المجتمع ٠

ومنذ عهود واغلة فى القدم اهتدى الإنسان إلى أن أقوى مؤيد للقواعد والسنن الموضوعية هو أن يلقى من يقدم على اقتراف المنكرات جزاءً وفاقا ٠

كان هذا الجزاء الأليم فى صورته البدائية حقاً من حقوق الفرد يمارسه انتقاماً لنفسه ٠ ومن هنا نشأت فكرة الانتقام الخاص أو العدالة الخاصة على حد تعبير رجال القانون ، ولكن هذا الانتقام الخاص لم يستمر طويلا فعندما ثبت أن الجريمة شر لايقتصر على الفرد المجنى عليه ، وانما يتناول بأذاها الجماعة بأسرها أصبح من حق الجماعة أن تتولى هى ايقاع العقاب بمن آذاها ، ومن هنا نشأ حق الدولة فى العقاب ٠

الجريمة والعقاب عبر التاريخ

فى العهود البدائية الأولى كان الإجرام محدودا عنيفا ، كان لايتجاوز سرقة المواشى وشن الغارات والاغتصاب ، والقتل وخطف النساء والعبيد ، فما أن تقع الجريمة حتى يبادر المعتدى عليه إلى الانتقام والتأثر لنفسه ، وهذا الانتقام كان مباشراً لايقف فى طريقه حائل غير القوة ، وكانت المسؤولية جماعية والانتقام كان جماعيا كذلك ، فالفرد فى الزمن الغابر لم يكن مستقلا عن الخلية الاجتماعية التى ينتمى إليها ولا يقام له وزن إلا كعضو فى جماعة ، وأعضاء القبيلة أو العشيرة أو الأسرة متضامنون جميعا ، الجريمة التى يقترفها أحدهم يُسأل عنها جميع أعضاء الخلية على السواء ، والضرر الذى يصيب أحد أفرادها يعد كأنما أصيبت به القبيلة كلها ، فالقبيلة هى التى تجرم وهى التى تثأر ، والأخذ بالثأر كان فى عصور البدائية واجبا موروثا يتوارثه الأبناء عن الآباء ، والأحفاد عن الأجداد ، وكانت المسؤولية فيه تبنى على النتيجة ، ولم يكن يميز الجرم الذى ارتكبه الفاعل قصدا من الجرم الذى ارتكبه خطأ ، لأن المجتمعات القديمة لم تكن لتعتد بالنية ولم تكن العقلية البدائية لتقوى على التجريد ، ولذا فقد كانت الجريمة تقتصر فى نظرها على الركن المادى ، أما الركن المعنوى فلم يكن ليعنى لها على خاطر ٠

وليس من شك أن نظام التأثر لم يقف حائلا دون استمرار العداوة والقتال بين القبائل ، لأن المنتقم كان فى الأغلب يبطش فى ثأره ويتجاوز حد الاعتداء الذى دفعه إلى الانتقام ، فيغدو هو من جديد هدفاً لاعتداء أو انتقام جديد ، وهكذا تتوالى حروب الثأر ٠

القصاص

والقصاص أو قانون العين بالعين والسن بالسن عدالة وهو يعتبر خطوة حازمة فى طريق تقييد حق الانتقام الخاص والتخفيف من حدة التوتر ، وأنه أى القصاص يمثل فى تاريخ تطور العقاب مرحلة تقدم حقيقى لأنه يشكل أول بادرة من بوادر الاهتمام بإقامة التوازن أو التعادل بين الفعل ورد الفعل فى العلاقات البشرية ، أو بين الضرر الذى ولدته الجريمة والعقاب الذى ينبغى أن يحل بالمجرم ٠

يقول العالم بنتام فى كتابه (روح الشرائع) : « اذا أخذ المقنن العقوبة من طبيعة

الجريمة ، فقد انتصرت العدالة وارتفع الهوى فى العقاب وصار العقاب غير آت من الواضع ، بل من الجناية نفسها » ·

ويقول : « إن العقاب وإن كان واحداً فى الاسم يختلف فى الحقيقة باختلاف النوع والسن والمنزلة والثروة وغير ذلك من الأحوال التى لاتحصى ، فمثلا لو عوقب على الضرب بغرامة لكانت العقوبة بالنسبة للغنى عبثاً ، وبالنسبة للفقير تكون ظلماً ، وكذلك العقاب إن كان مخلا بالكرامة بطبيعته يكون قاسيا بالنسبة لذى المكانة ولا يصيب الطبقة التى دون ذلك من الناس بشىء والحبس خراب لذى متجر وإعدام لشيخ هرم ، وعار أبدى للنساء ولا يكون فيه شىء من ذلك كله بالنسبة لقوم آخرين » (ص ٢٣٣ من روح الشرائع) ·

والشريعة الإسلامية قد سبقت علماء القانون بوضعها عقوبات فى جرائم القصاص منذ أربعة عشر قرنا ، هذه العقوبات لوحظ فيها المماثلة بين ماارتكبه الجانى وما يوقع عليه من عقوبات نظير ما ارتكب من إثم على النحو الذى سوف يرد ، ويكون الشارع الإسلامى قد طبق أحدث النظريات الجنائية فى العقاب ، قال تعالى :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وقال تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ·

وقال الرسول ﷺ : « **كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه** » ، وهذه الصورة من صور القصاص هى التى تتبادر إلى الذهن عند الحديث عن القصاص ·

ويحدثنا التاريخ أن أنس بن مالك طلب من الرسول ﷺ عدم القصاص من عمته الربيع التى كسرت ثنية خادمتها بعد أن لطمتها فقال الرسول مصمماً على القصاص : « **يا أنس كتاب الله القصاص** » ، والقصاص فى الاسلام نوعان : قصاص صورة ومعنى ، وقصاص معنى فقط ·

فالقصاص صورة ومعنى هو الأصل فى القصاص ويكون عن طريق أن يوقع المجنى عليه بالجانى عقوبة بمثل ماوقع عليه من اعتداء قال تعالى :

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ·

أما القصاص معنىً فقط فهو يكون عند تعذر تطبيق القصاص صورة ومعنى كجرحٍ أحدث شللا عند المجنى عليه فإنه لاشك يتعذر فى القصاص إحداث الشلل بالجانى • فى هذه الحالة تستبدل العقوبة إلى الدية أو العقوبة المالية •

وهذا النوع من العقوبة ثبت بالقرآن الكريم والسنة ، قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ ﴾ •

وقال الرسول ﷺ : « **من أصيب بخبل فهو بالخيار بين إحدى ثلاث فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه ، أن يقتص أو يعفو أو يأخذ الدية » والرابعة التى حذر منها الرسول هى الإسراف فى القتل •**

وفى القصاص فائدة لاتحصى ، فيه إزالة للفساد والفاسدين من المجتمع ، فيه خطوة حازمة فى طريق تقييد حق الانتقام الخاص والتخفيف من حدة الثأر ، وقد قال تعالى مصداقا لذلك : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ •

قد يكون المجنى عليه ضعيفا فيذهب دمه هدراً وقد يكون المجنى عليه قوياً فيسرف فى أخذ حقه ، وهذا واقع فعلا فى العالم اليوم فكم من الجرائم تقيد ضد مجهول ، نظراً لأن المجنى عليه نكرة فى المجتمع ، والإسلام تدارك هذه الأخطاء ، فنص على القصاص •

والإسلام اكتفى بالنسبة للقصاص من تمكين المجنى عليه من القصاص ولكنه شجعه على العفو ، قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ •

قال أنس بن مالك خادم الرسول ﷺ ما رفع إلى رسول الله ﷺ أمر فيه قصاص إلا طلب فيه العفو •

وهناك جرائم الحدود ، الحد فى الفقه الجنائى الاسلامى هى العقوبة المقررة ، حق الله تعالى ، وحق الله هو حق المجتمع ، الجناية الشخصية فيه تنطوى على الإضرار بالكيان

الاجتماعى العام والخلقى ، هو ما يتعلق بالنفع العام من غير اختصاص بأحد بذلك تعد العقوبة حقاً لله .

لقد حدد الله جرائم الحدود على لسان رسوله بأنواع أربعة :

١) حدّ الزنى الذى تثبت عقوبته بقوله تعالى :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ ﴾ .

٢) حد القذف فى قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ .

٣) حد السرقة بقوله تعالى :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ﴾ .

٤) حد الردّة بقول الرسول ﷺ : « **من بدّل دينه فاقتلوه** » .

٥) حد قطع الطريق ثبت بقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

٦) جريمة البغى قال تعالى :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ .

٧) حد الشرب ، والقرآن خلا من حد الشرب رغم وجود النهى عن الشرب فيه إلا أن الرسول ﷺ قال فى شاب أُتِىَ به وقد شرب خمراً : « اضربوه » .

والإسلام إنما قصد من العقوبات المنصوص عليها فى جرائم الحدود استتباب الأمن

والنظام والعدالة والطمأنينة بين أفراد المجتمع وانتشار الفضيلة بين الناس .

وقصد الإسلام من وراء تلك الشدة فى إثبات جريمة الزنى بتطلبه أربعة شهود إلى عدم انتشار الفساد فى المجتمع لأن إعلان هذه الجرائم يؤدى إلى انتشارها ، وهى جريمة تتسم بأنها خفية ، ولذلك قال الرسول ﷺ : « **أيها الناس من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فاستتر فهو فى ستر الله ، ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد** » .

وبالنسبة لحد السرقة فإن الله سبحانه وتعالى أمرنا باحترام ملكية الغير ورتب عقوبة على السارق وهى قطع اليد حماية لهذه الملكية وحتى يطمئن الناس على أموالهم ، وعقوبة قطع يد السارق قد تبدو شديدة ولكن هناك مايبرر هذه الشدة وهو أن السارق الذى تقطع يده لايسرق مرة أخرى ولهذا تقل السرقات إلى أقصى حد فى البلاد التى تقطع فيها يد السارق ، ففى المملكة العربية السعودية مثلا كثيرا ماتترك بعض المتاجر مفتوحة من غير حراسة وخاصة فى الظهيرة ويعود إليها أصحابها بعد العصر فيجدون كل شىء فى مكانه بينما نجد فى البلاد التى يعاقب السارق فيها بالسجن عصابات للنهب والسلب والسرقة تعبث بالأمن وتنشر الرعب فى قلوب الآمنين وتتحدى السلطات وحماة الأمن .

بكاريا أبو العلوم الجزائية فى أوربا :[1]

والإسلام سبق بكاريا فى أن أساس حق العقاب هو النفع العام أو حق الجماعة فى المحافظة على كيانها وصيانة النظام الاجتماعى ، ويترتب على ذلك أن العقوبة يجب ألا تظل بمثابة رد فعل على فعل قضى ومضى ، وإنما ينبغى أن نعمل للمستقبل ، يجب أن تكون غايتها الأساسية منع وقوع جرائم جديدة فى المستقبل ، ومقياس العقوبة يقاس بمقدار الضرر الناجم عن الجرم فإذا كان الضرر جسيما وجب أن تكون العقوبة جسيمة والعكس بالعكس ، والمنفعة العامة تظل فى نظر بنتام كما كانت فى نظر بكاريا هى أساس مشروعية العقاب ، أما مقياس العقاب فيجده بنتام فى المقارنة بين الفائدة التى يتوخاها المجرم من ارتكاب الجريمة ، والأذى الذى سيحل به من جراء تنفيذ العقاب . ولذا فحينا تعمد

(١) أخرج بكاريا كتابه الشهير فى (الجرائم والعقوبات) فى عام ١٧٦٢ م فى ميلانو وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ولقد أحدث نشر هذا الكتاب على صغر حجمه ووضوح عباراته ضجة كبرى فى جميع أنحاء أوربا ويعتبر ظهوره بدء إنطلاق جديد فى تاريخ تطور الفكر الجزائى وسرعان ما فرضه فلاسفة فرنسا فور صدوره وكالوا له ولمؤلفه الثناء الكبير .

الجماعة إلى تحديد مقدار العقوبة المترتبة على اقتراف جريمة من الجرائم ينبغى أن تكون من الجسامة بحيث يرى المجرم أن الإحجام عن ارتكاب الجريمة وتفادى هذه العقوبة المترتبة عليها أوْلى له وأجدى لمصلحته من الإقدام عليها ، واحتمال أذى عقوبتها ، والإسلام دين الفطرة يرى أن المنفعة أو المصلحة هى المهماز الحقيقى للإنسان فى جميع أنواع سلوكه وأفعاله ، وانه لايقدم على عمل مهما قلّ شأنه أو علا إلا مسوقا بعامل المنفعة ، فلتكن المنفعة إذن أساس حق العقاب فى المجتمع ولتكن أيضا الضابط أو المقياس فى تحديد مقادير العقوبات •

إن سياسة الإسلام الجنائية هى أن نعيد المجرم الى حظيرة الحياة الاجتماعية وأن نجعل منه عضوا اجتماعيا صالحا فنحن إذن نقول بضرورة اللجوء إلى أساليب الوقاية الخاصة أو المنع الخاص وأساليب الوقاية العامة أو المنع العام •

إن عودة المجرم إلى الحياة الاجتماعية لاتتم إلا إذا بعثنا فيه الثقة بنفسه وأحيينا فى كيانه القيم الإنسانية واحترمنا فيه الحرمات والحقوق اللاصقة بشخصيته بصفته إنسانا • وإذا لم يكن المجتمع إنسانيا فى تصرفاته حيال الفرد المجرم ولم يكن له قدوة حسنة فكيف يطلب من هذا الفرد ذاته احترام القيم والحقوق الإنسانية والامتناع عن الاعتداء عليها ؟

الجرائم التعزيرية

للإسلام سبق الفضل قبل علماء القانون فى ترك الشارع الاسلامى تقدير الجرائم أو العقوبات التعزيرية لأولى الأمر بحسب مايرى به دفع الفساد ومنع الشر •

الفقه الإسلامى أطلق لفظ تعزير على تلك الجرائم التى لم ينص الشارع على عقوبة مقدرة لها بنص قرآنى أو حديث ، وعرّف الإمام الشافعى فى كتاب الأم التعزير بأنه أدبٌ لاحدٌّ من حدود الله وقال أيضا إن الأدب (أى التعزير) يكون بمقتضاه للوالى أن يضع العقوبات التعزيرية للتأديب •

واستعمل ابن تيمية فى كتاب (الحسبة والسياسة الشرعية) كلمة جنح فى التعبير عن الجرائم التعزيرية ، وجَنَحَ معناها مَالَ • ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ، وكلمة جناح معناها الإثم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ وأطلق رجال القانون لفظ جنحة على الجريمة ، لقد

ذكر ابن تيمية فى السياسة الشرعية بعض الجرائم التعزيرية بأنها المعاصى التى ليس فيها حد مقدر ولا لها كفارة ، كالذى يباشر المرأة الاجنبية بلا جماع أو يأكل مالا لايحل كالدم والميتة . أو يسرق من غير حرز أو يقذف فى الناس بغير الزنى أو يخون أمانته كولاة بيت المال . أو الوقف أو مال اليتيم أو يغش فى معاملته أو يشهد بالزور أو يرتشى فى حكمه وما إلى ذلك من أنواع المحرمات فهؤلاء يعاقبون تعزيراً وتنكيلاً وتأديباً بقدر مايراه الوالى على حسب كبر الذنب وصغره ، فيعاقب من يتعرض لنساء الناس بما لايعاقب به من لم يتعرض إلا لأمرأة واحدة . (صفحة ١٢ من السياسة الشرعية لابن تيمية) .

والجرائم التعزيرية تستند إما إلى نص قرآنى أو حديث نبوى فى النهى عنها وإما أن هذه الافعال منهى عنها حسب القواعد العامة للشريعة الاسلامية ، فمثلا نهى الله تعالى عن الغش فى الميزان بقوله :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ .

ونهى عن الرشوة بقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٨٨ ﴾

كما قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٧ ﴾ .

ونهانا الله عن السخرية والسب والتنابذ بالألقاب . قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١ ﴾ .

ويقول الرسول ﷺ : « **إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه** » قيل كيف يلعن الرجل والديه يارسول الله ؟ قال « **يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه** » والأمثلة فى القرآن والسنة كثيرة وهما المصدر الأساسى للعقوبات التعزيرية .

ورجال الفقه الاسلامى قسموا الجرائم التعزيرية إلى قسمين :

أولا : جرائم تتضمن اعتداء مباشرا على المجتمع لما تؤدى إليه من أضرار بالكيان الاجتماعى العام كالرشوة والغش والتزوير وغير ذلك من الجرائم ٠

ثانيا : جرائم تتضمن الاعتداء على آحاد الناس كالسب والادعاء الباطل ومطل الغنى وما إلى ذلك من الأمثلة ولكل من القسمين آثار هامة ٠

فالقسم الأول يتميز بأمور ثلاثة :

١ ـ لايجوز فى العقوبة العامة العفو أو الإبراء أو الصلح ٠

٢ ـ يفوض استيفاء العقوبة لولى الامر ٠

٣ ـ اذا تعددت الجرائم من جنس واحد فلا يطبق على الجانى إلا عقوبة واحدة وإذا لم تكن من جنس واحد طبقت العقوبة الأشد ، فإذا لم تكن هناك عقوبة أشد طبقت عقوبة كل جريمة على حدة بالنسبة للجرائم التى تتضمن اعتداء على الجماعة ٠

أما بالنسبة لجرائم النوع الثانى فهى كما يأتى :

١ ـ يجوز العفو والإبراء والصلح ٠

٢ ـ يكون طلب استيفاء العقوبة من المجنى عليه ٠

٣ ـ لاتتداخل العقوبات فيها بل تتعدد بتعدد الجرائم ٠ والحاكم يجب أن يكون رحيما فيما يضعه من قواعد قانونية عادة فى أحكامه وليس معنى الرحمة الشفقة بالمجرمين وانما الرحمة المقصودة هنا هى الرحمة بمفهومها العام ففى حد الزنا يقول تعالى ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ (النور)

وعلى المشرع ألا يترك الباب مفتوحا على مصراعيه أمام المجرمين ، عليه أن يراعى فيما يسنّه من عقوبات تيسير الوسائل للتوبة ، فالإسلام لم يضع ماوضع من أحكام جنائية انتقاما من المجرمين بل قصد من هذه العقوبات إصلاح الآثمين وتوجيه سلوكهم إلى الطريق السوى والمنهج القويم ٠ قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ ، وقال الرسول ﷺ : « **التائب من الذنب كمن لاذنب له** » ٠ وهنا يجب أن نشير إلى أن على المذنب التائب أن تتوفر فيه شروط التوبة وهى ألا يكون من ذوى السوابق ومعتادى الإجرام وأن يكون مدعيا للتوبة للتخلص من

العقوبة وعلى الحاكم أن يتأكد من هذه الشروط حتى لاتكون التوبة وسيلة لإعفاء بعض المجرمين من العقاب ٠

والإسلام إنما يهدف من فتح باب التوبة إلى عدم غلق جميع أبواب الحياة أمام المجرمين فيزداد خروجهم على الجماعة ٠

وهناك مبدأ هام يقوم عليه التشريع الإسلامى الجنائى وهو عدم تعيير المجرمين بالجرائم التى يرتكبونها لكى يترك الفرصة لهم للتوبة وحتى لايكون فى نبذهم أو تعييرهم وسيلة لتثبيت الإجرام فى نفوسهم وهذا يعد سبقا للإسلام على القوانين الجنائية الحديثة الخاصة بمعاملة المذنبين ٠

وللتشريع الإسلامى الجنائى سبق آخر هو عدم نشر الجرائم وإشاعتها بين الناس ٠ قال الرسول ﷺ : « **من ستر على مسلم ستره الله تعالى فى الدنيا والاخرة** » ويقول ﷺ : « **إن من أبعد الناس منازل عند الله يوم القيامة المجاهرين** » قيل ومن هم يارسول الله ؟ « **قال ذلك الذى يعمل عملا بالليل وقد ستره الله عليه ، فيصبح يقول فعلت كذا وكذا يكشف ستر الله** » ، والله سبحانه وتعالى وصف فى كتابه العزيز المجاهرين ووعدهم بالعذاب الأليم فى الدارين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ وللإسلام سبق آخر هو عدم التجسس لاكتشاف الجرائم بوسيلة غير مشروعة كالنظر من ثقب باب لكشف جريمة فى داخل المنزل ، أو غير ذلك مما يعد تعرضا لحرمات المساكن وحريات الناس ٠

وهذا المبدأ الهام هو ما تأخذ به قوانين الإجراءات الجنائية الحديثة قال تعالى :
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ .

وعن أبى هريرة ان رسول الله ﷺ قال : « **لو أن رجلا اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فلا دية ولا قصاص** » وتأيد هذا المبدأ العام بقوله ﷺ « **ادرأوا الحدود بالشبهات ما استطعتم** » وإذا كان هذا التجسس يعد شبهة تسقط الحد فمن باب أولى العقوبات التعزيرية ، ولاشك أن هذا المبدأ سبق آخر للإسلام ٠

والإسلام وضع قاعدة قانونية هامة وهى أنه لاعقاب على كل ما توسوس به نفس الإنسان ، وهذا الاتجاه من المشرع أبلغ ما تصل إليه العدالة الحقة ويتجلى هذا المبدأ فى قول الرسول ﷺ : « **ان الله تعالى تجاوز لأمتى عما وسوست أو حدثت به أنفسها مالم يعمل به أو يتكلم** » يقول ﷺ فى حديث آخر : « **من همّ بحسنة فلم يفعلها ، كتبت له حسنة ، ومن همّ بسيئة فلم يفعلها ، لم يكتب له شىء** » .

الرحمة

جعل الله الرحمة صفة من صفاته الحسنى وسنّة من سنن الكون ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ . والرحمة هنا مرادفة للعدالة ولذلك قرن سبحانه وتعالى الحديد بالعدل بين الناس مشيرا سبحانه وتعالى على أن العدالة لايمكن لها الاستقرار إلا إذا كان معها الحديد يدعمها ويحميها من الاندثار . قال تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ .

فالرحمة هى العدالة الحقة بين الحاكم والمحكوم والقوى والضعيف ، وقف عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فى حضور بعض الولاة والناس وخطب قائلا : « إلا أنى والله ماأرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى فوالذى نفسى بيده لأقصنّه منه » فوقف عمرو بن العاص قائلا : « ياأمير المؤمنين ، إن كان رجل من المسلمين على رعيته فأدب رعيته ائنك لتقصن منه . قال : « أى والذى نفسى عمر بيده ، إذن لاقصنّه منه . كيف ، لاأقصنّه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقتص من نفسه ، ألا لاتضربوا أبشار المسلمين فتذلّوهم ، ولاتمنعوهم حقوقهم فتكفروهم »

حدث أن أباموسى الأشعرى ضرب رجلا أربعة وعشرين سوطا فذهب إلى عمر فأرسل عمر إلى أبى موسى قائلا « سلام عليك أما بعد فإن فلانا أخبرنى بكذا وكذا فإن كنت فعلت ذلك فى ملأ من الناس فعزمت لما قعدت فى ملأ من الناس حتى يقتص منك ، وان كنت فعلت ذلك فى خلاء من الناس فأقعد له فى خلاء من الناس حتى يقتص منك » فقدم الرجل ، فقال الناس : أعف عنه فقال : والله لاأودعه لأحد من الناس ، فلما قعد

أبوموسي ليقتص منه رفع الرجل رأسه إلى السماء ثم قال اللهم قد عفوت عنه « كان عمر اذا جاءه الخصمان برك على ركبتيه وقال : « اللهم أعنى عليهما فإن كل واحد منهما يردنى عن دينى »

حضر إليه يهودى يشكو على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو ابن عم النبى ﷺ وزوج ابنته وأحد المرشحين للخلافة من بعده قال له « قم ياأبا الحسن ، فاجلس أمام خصمك ففعل ، ولكن مع تأثر لاح على وجهه فلما انتهت القضية سأله عمر قائلا : أكرهت ياعلى أن تجلس أمام خصمك ؟ قال : لا ولكننى تكدرت لقولك ياأبا الحسن ٠

الرحمة تحمل صاحبها على أن يتألم لآلام الناس ويفرح لفرحهم ٠ وشركة الألم والفرح هى التى تضم أفراد الأمة فى جسم واحد وقلب واحد وروح واحدة ، فيفرح جميع أفرادها معاً أو يحزنون معا ٠

هناك شبه عظيم بين الجسم وبين الأمة المحكومة أفضل حكم ، فإذا أصابت أحد أفراد الأمة أذية أو حظى بنعمة هبّت المدينة جمعاء تشعر معه فرحاً وحزناً لأنه عضو فى جسمها فتفرح معه كلها أو تحزن كلها ٠

إذا سادت هذه الروح بين أفراد الأمة ، فجميع المشاكل تحل بسهولة وإن لم تسد هذه الروح أو شيء منها فإن أرقى النظم فى العالم لاتجدى وإن أكثر القوانين عدالة لاترضى ٠

لقد أيد الله فى كتابه هذا المعنى السامى النبيل ، حض على إغاثة الملهوف وسد حاجة الفقير والمسكين ، وتفريج كربة المنكوب واليتيم ٠

قال تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ① فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ② وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ③ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ⑥ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ⑦ ﴾ (سورة الماعون)

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ⑪ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ⑫ فَكُّ رَقَبَةٍ ⑬ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ⑭ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ⑮ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ⑯ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ⑰ ﴾ (البلد ١١ ـ ١٧)

لقد كان الرسول ﷺ خير مثال للرحمة والرأفة ، كان يصل الرحم ويعطف على الفقير ويرأف باليتيم ، وليست رحمته قاصرة على الإنسان فحسب وانما كان عليه الصلاة والسلام يرحم الحيوان ويوصى أصحابه بالعطف عليه والرأفة به ٠

روى عنه أنه قال ما معناه : « إن امرأة دخلت النار بسبب هرّة حبستها حتى ماتت فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » ٠

وروى أنه حدث أصحابه يوما فقال : بينا رجل يمشى بطريق ، فاشتد عليه الحر ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفمه حتى رقى فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، فقالوا يارسول الله : إن لنا فى البهائم لأجرا ؟ قال : « **فى كل كبدٍ رطبةٍ أجر** » ٠

بمثل هذا حث الرسول ﷺ أمته على الشفقة والرحمة والإيثار ، وإغاثة الملهوف وتفريج كربة المنكوب ٠

يروى أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله ، إنى مجهود فارسل النبى إلى بعض نسائه يسألها ، هل عندك طعام ؟ فقالت : لا والذى بعثك بالحق ، ما عندى الا ماء ، ثم أرسل إلى أخرى من زوجاته فقالت مثل ذلك حتى قلن كلهن مثل ذلك ٠ لا والذى بعثك بالحق ما عندى الا ماء ، فقال النبى ﷺ : من يضيف هذا الليلة ؟ فقال رجل من الانصار : أنا يارسول الله ، فانطلق به إلى رحلهِ فقال لأمرأته : اكرمى ضيف رسول الله ٠ سألها هل عندك شيء ؟ فقالت : لا إلا قوت صبيانى قال : فعلّليهم بشيء وإذا أرادوا العشاء فنوميهم وإذا دخل ضيفنا فاطفئى السراج وأريه انا نأكل معه ٠٠ ثم قعدوا فأكل الضيف وباتا طاويين ٠

هكذا اقتدى الصحابة رضوان الله عليهم بالرسول ﷺ فى مثله العليا فى الإيثار ، فى الرحمة ٠



من أقضية عمر ..

اشتهر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالعدل ، ولذلك سمى بالفاروق ·
وعلى الرغم من أن مدة خلافته كانت قصيرة فإنه ـ بثاقب فكره وبعد نظره ـ وضع قواعد قانونية سبق بها علماء القانون ·

وليس من شك فى أنه يعد فى طليعة الفقهاء المقننين فى الإسلام ، ولست مبالغا إذا قلت إنه أعظم فقيه ومقنن فى العالم بالقياس إلى العصر الذى عاش فيه · ولقد حرص كل الحرص على استتباب العدل فى أرجاء العالم الإسلامى ، كان يتولى ذلك وهو فى مكانه فى المدينة ، وإذا أصدر أمراً حرص على تنفيذه مهما قامت فى طريقه العقبات ·

وإلى جانب هذه الصفات الفاضلة أضاف صفة الزهد والتقوى والورع ، فقد كان يأكل فى اليوم إحدى عشرة لقمة إلى مثلها فى الغد ، ويلبس ثوبا فيه أربع عشرة رقعة منها ما قد خيط بعضه على بعض ، وكان فى مقدوره أن يأكل أطيب المأكولات ويلبس فاخر الملابس ولكنه أراد أن يضع بذلك المثل العليا للحاكم العادل ·

كان عمر إذا عرض عليه الخصوم ليقضى بينهم ، نظر فى كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضى بينهم قضى ، وإن لم يكن فى الكتاب وعلم من رسول الله ﷺ حكماً قضى به ، فإن لم يجد نظر هل كان لأبى بكر قضاء فإن وجد أبابكر قضى فيه بقضاء قضى ، وإلا جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فإن أجمع أمرهم على شىء قضى به ·

كان رضى الله عنه إذا جاءه الخصمان ، برك على ركبتيه وقال : اللهم أعنى عليهما فإن كل واحد منهما يردنى عن دينى ·

يحدثنا التاريخ أن يهوديا حضر إليه يشكو عليا رضى الله عنه قال له : قم يا أبا الحسن ، اجلس أمام خصمك ففعل ، ولكن مع تأثر لاح على وجهه ، فلما انتهت القضية ، سأله عمر قائلا : أكرهت يا على أن تجلس أمام خصمك ؟ قال : لا ، ولكنى تكدرت لكونك لم تلاحظ المساواة بيننا لقولك لى يا أباالحسن ·

كان رضى الله عنه مشرعا وفقيها ، إذ تضمن عهده من المبادىء القانونية التى جمعت روح التشريع القضائى الشىء الكثير وقد اتخذه فقهاء وقضاة المسلمين أساسا لنظمهم القانونية والقضائية ، يتضح ذلك فى الرسالة التى بعثها الى عبدالله بن قيس ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس ، سلام عليك ٠ أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع ، تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من أدعى واليمين على من انكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ، الفهم الفهم فيما يتلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الاشياء والامثال ، فقس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد إلى أقربها إلى الله واشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقا غائبا أن يبينه أمدًا ينتهى إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء فإن ذلك أنفى للشك ، وأجلى للعمى ، وأبلغ للعذر ٠ المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا فى حد أو مجربا عليه شهادة زور ، أو ظنينا فى ولاء أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان ٠ وإياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ، ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته ، وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله انه ليس من نفسه هتك الله ستره ، وأبدى فعله والسلام »
كان مصدر التشريع فى عهد الرسول ﷺ القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وحين اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وامتدت أطرافها شرقا وغربا ظهرت جرائم جديدة ، وأقضية لم يرتكبها العرب فى حياتهم الأولى فظهر أصل ثالث من أصول التشريع الإسلامى ، وهو الرأى الذى نظم بعد وسمى (القياس) وقد طبق عمر رضى الله عنه هذا الأصل فى الأقضية التى عرضت عليه ٠ من هذه الاقضية ٠٠

١ ـ قضية قتل ـ قال الليث بن سعد : أتى عمر بن الخطاب يوما بفتى أمرد ، وقد وجد قتيلا ملقى على وجه الطريق فسأل عمر عن امره واجتهد ، فلم يقف له على خبر ،

فشق ذلك عليه • فقال : اللهم اظفرنى بقاتله ، حتى إذا كان على رأس الحول وجد صبى مولود ملقى بموضع القتيل ، فأتى به عمر فقال : ظفرت بدم القتيل إن شاء الله • فدفع الطفل إلى امرأة ، وقال : قومى بشأنه ، وخذى منا نفقته ، وانظرى من يأخذه منك ، فإذا وجدت امرأة تقبله وتضمه إلى صدرها فاعلمينى بمكانها • فلما شب الصبى جاءت جارية فقالت للمرأة : إن سيدتى بعثتنى إليك لتبعثى بالصبى لتراه وترده إليك • قالت : نعم ، اذهبى به إليها وأنا معك •

فذهبت بالصبى والمرأة معها ، حتى دخلت على سيدتها فلما رأته أخذته فقبلته وضمته إليها فإذا هى ابنة شيخ من الانصار من أصحاب رسول الله ﷺ •

فأتت عمر واخبرته فاشتمل على سيفه ثم أقبل إلى منزل المرأة ، فوجد أباها متكئا على باب داره •

فقال له : يافلان مافعلت ابنتك فلانه ؟

قال : جزاها الله خيرا يا أمير المؤمنين هى من أعرف الناس بحق الله وحق أبيها مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها •

فقال عمر : قد احببت أن أدخل إليها فأزيدها رغبة فى الخير وأحثها عليه •

فدخل أبوها ودخل عمر معه ، فأمر من عندها فخرج وبقى هو والمرأة فى البيت فكشف عمر عن السيف وقال : اصدقينى وإلا ضربت عنقك • وكان لايكذب •

فقالت : على رسلك فوالله لأصدقن ، إن عجوزا كانت تدخل على فأتخذها أما وكانت تقوم من أمرى بما تقوم به الوالدة ، وكنت لها بمنزلة البنت حتى مضى لذلك حين ثم إنها قالت : يابنيتى إنه قد عرض لى سفر ولى ابنة أتخوف عليها فيه أن تضيع ، وقد أحببت أن أضمها إليك حتى أرجع من سفرى فعمدت إلى ابن لها شاب أمرد فهيأته كهيئة الجارية ، لا أشك أنها جارية ، فكان يرى منى ماترى الجارية حتى اغتفلنى يوما وأنا نائمة فما شعرت حتى علانى وخالطنى ، فمددت إلى شفرة كانت إلى جنبى فقتلته ، ثم أمرت به فألقى حيث رأيت ، فاشتملت منه على هذا الصبى وألقيته فى موضع أبيه • فهذا والله خبرهما على ما أعلمتك •

قال : صدقت ، ثم أوصاها ودعا لها وخرج وقال لأبيها : نعمت الابنة ابنتك •• ثم انصرف(١)

---

(١) الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية لأبن القيم الجوزيه •

٢ ـ قتل الزوج من يزنى بزوجته :

أسقط عمر رضى الله عنه الحد عن رجل قتل من يزنى بزوجته بعد أن شاهدهما متلبسين بجريمة الزنا ، إذ روى أن عمر رضى الله عنه بينما هو يتغذى إذ جاءه رجل يعدو وفى يده سيف ملطخ بدم ووراءه قوم يعدون ، فجاء الآخزون فقالوا : يا أمير المؤمنين إن هذا قتل صاحبنا ، فقال عمر رضى الله عنه : (ماذا تقول ؟ قال : يا أمير المؤمنين إنى ضربت فخذى امرأتى ، فإن كان بينهما احد فقد قتلته ، فقال عمر : ماتقولون ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين إنه ضرب بالسيف فوقع فى وسط الرجل وفخذى المرأة فأخذ عمر رضى الله عنه سيفه ، فهزه ، ثم دفعه إليه ، وقال إن عادوا فعد .

٣ ـ الاشتراك فى القتل :

روى أنه رفعت إلى عمر قضية رجل قتلته امرأة أبيه وخليلها فتردد عمر ، هل يقتل الكثير بالواحد ؟ فقال له على : أرأيت لو أن نفرا اشتركوا فى سرقة جذور فأخذ هذا عضوا ، وهذا عضوا ، أكنت قاطعهم ؟

قال : نعم .

قال : فكذلك .. فعمل عمر برأيه وكتب إلى عامله .. أن اقتلهما ، ولو اشترك فيه أهل صنعاء كلهم لقتلتهم .

ومن هنا هذه القضية نرى كيف وضع عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل مشرعى العصر الحديث ، مبدأ هاما وهو من اشترك فى جريمة فعليه عقوبتها .

٤ ـ القسامة :

أخذ عمر رضى الله عنه بالقسامة وهى أنه فى حالة اكتشاف جريمة قتل فى بلد من البلدان ولم يعرف المتهم يجمع خمسون شخصا من أهل الحى أو البلده التى عثر بها على القتيل ، ثم يحلف كل منهم إنه لم ير الحادث ولم يعرف مرتكبه فإذا نكل الشهود عن اليمين ولم يعرف القاتل تحملت البلده أو الحى دية القتيل .

وقد روى أن رجلا من بنى سعد بن ليث أجرى فرسا فوطىء على إصبع رجل من

جهينة فنزف منها الدم فمات فقال عمر للذين ادعى عليهم : اتحلفون خمسين يمينا ، ما مات منها ؟ فأبوا وتحرجوا من الأيمان •

فقال للآخرين : احلفوا انتم •• فأبوا ، فقضى بشطر الدين على السعديين •

يتضح من هذا أن عمر رضى الله عنه سلك طريقا لجمع المعلومات فى الجرائم التى يكون فيها المتهم مجهولا ، وهو نفس الطريق الذى يتبعه رجال الشرطة فى العصر الحديث عن طريق جمع التحريات من البلدة التى عثر فيها على القتيل •

٥ ـ الجريمة السلبية :

روى عن الحسن رضى الله عنه أن رجلا أتى أهل ماء فاستسقاهم فلم يسقوه حتى مات عطشا ، فأغرمهم عمر بن الخطاب ديته[١] •

من هذه القضية يتضح أنه رضى الله عنه قد وضع قاعدة عقاب الجرائم بالترك مسترشدا بقول الرسول ﷺ فيما رواه أبوسعيد الخدرى : (**من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لازاد له**) ثم أخذ رسول الله ﷺ يعد أصناف المال حتى ظننا أن ليس منا حق فى فضل أموالنا وكان ذلك فى سفر •

من هذه القضية يكون عمر قد وضع عقوبة يختلف حتى الآن فقهاء القانون والقضاء فيها ، إذا ذهب الفقه الألمانى إلى وجوب معاقبة المجرم الذى ارتكب جريمته بطريق سلبى كالمجرم الذى ارتكب جريمته بطريق ايجابى ، وخالفه فى ذلك الفقه الفرنسى •

٦ ـ جرائم التسبب :

روى أن عمر أرسل إلى امرأة ففزعت فأجهضت ، فاستشار عليا ، فأشار عليه أن يديه (أى يدفع الديه) • ومن هذا يتضح أن عمر رضى الله عنه قد تحمل الديه ، لأنه قد تسبب عن طريق غير مباشر فى إجهاض السيدة بارساله إليها فى طلبها رغم عدم وجود

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب بقلم أبى الفرج ابن الجوزى طبع الدار القومية للطباعة والنشر العدد الأول من مذاهب وشخصيات ص ٧ •

مايوجب ذلك بدليل قطعى ، وقد فعل ذلك رضى الله عنه ليكون مثلا يقتدى به الآخرون ٠

٧ ـ الانتحار والشروع فيه :

فقال الشعبى : أتى عمر بن الخطاب ، رجل وقال : إن ابنة لى قد كنت وأدتها فى الجاهلية فاستخرجناها قبل أن تموت ، فأدركت معنا الإسلام فأسلمت فأصابها حد من حدود الله ، فأخذت الشفرة لتذبح نفسها وأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برئت ، ثم تابت بعد توبة حسنة وهى تخطب إلى قوم فاخبرهم بالذى كان ؟ فقال عمر رضى الله عنه : أتعمد إلى ماستره الله فتبديه ؟ والله لئن أخبرت بشأنها أحدا من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار ، انكحها نكاح العفيفة المسلمة[١] ٠

يتضح من هذا الحكم كيف رأى عمر عدم معاقبة المتهمة التى شرعت فى قتل نفسها وهو ماقضت به القوانين الحديثة ٠

٨ ـ قضية استغلال :

حدث أن أحد اعيان الفرس ، وكان ذميا ، وكانت لى ضيعة تلاصق أحد ولاة عمر بن الخطاب ، فرأى هذا الوالى أن يغتصب من هذا الفارسى ضيعته فشكا إليه ذلك فزجره ، وأهانه ، فأشارت عليه زوجه يستعدى (يستعين) عليه عمر رضى الله عنه ففعل ، وارتحل إلى المدينة وسأل عن بيت عمر وأرشد إليه ٠٠ فإذا عمر جالس على عباءة ممزقة ، فشكا إليه الفارسى ما لقيه من عامله ، فطلب عمر صحيفة ، وكتب فيها بعض الشىء وأراد خيطا ليلفها به فلم يقدر عليه ، فمزق قطعة من عباءته ، ولف بها الصحيفه وناولها الرجل ، فأخذها وارتحل إلى بلده ، وأبدى أسفه إلى زوجته ، لأنه ذهب إلى رجل لايقدر على خيط يشد به صحيفته فكيف يستطيع أن يلزم الفارسى أمره ؟ فقالت زوجته : وما عليك أحمل الصحيفه إليه ، فحملها فلما فكها الوالى وقرأها تصبب عرقا ، وقال للفارسى : ماذا فعلت ؟ خذ الضيعة ٠٠ ثم روى الفارسى بعد ذلك قائلا : قرأت الصحيفة فإذا فيها ٠٠ (انصف فلانا الفارسى من نفسك وإلا فأقبل والسلام)[٢]

(١) ابن الجوزى (سيرة عمر بن الخطاب) ص ١٦٩

(٢) عناصر القوة فى الاسلام للشيخ سيد سابق ص ١٥٦

٩ ـ عدم جمع الموظف بين عمله وعمل آخر :

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول من سن مبدأ منع الموظف بالقيام بنشاط خاص ليتحصل منه على ربح مستغلا فى ذلك أعمال وظيفته ، وحتى يتفرغ الموظف لعمله ليستطيع أن يتقنه • وهذا المبدأ جرى الآن فى كافة أنظمة العالم ، فمنع رجال القضاء من إبداء الاستشارات القانونية ، وأساتذة الجامعات من إعطاء الدروس الخاصة إلى غير ذلك من الصور ، وقد منع عماله من الاتجار منعا باتا ، وكان يأمر عماله بدخول بلادهم نهارا إذا عادوا إليها من مقار أعمالهم ليظهر مامعهم •

١٠ ـ رشوة :

عن أبى حريز الازدى قال : كان رجل لايزال يهدى لعمر فخذ جزور الى أن جاء ذات يوم يختصم فقال : يا أمير المؤمنين اقض بيننا فصلا كما يفصل الفخذ من سائر الجزور •

قال عمر : فما زال يرددها على حتى خفت على نفسى ، فقضى عليه عمر وكتب إلى عماله ٠٠ اما بعد فاياكم والهدايا فإنها من الرشا •

١١ ـ جرائم الاخلاق :

جاء فى كتاب الأم للامام الشافعى[١] حدثنا الربيع أخبرنا الشافعى أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة عن عباس أنه قال : سمعت عمر ابن الخطاب يقول الرجم فى كتاب الله على من زنى من الرجال والنساء إذا قامت عليه البينة أو كان الحمل أو الاعتراف •

هنا نجد أن عمر بن الخطاب قد أوجد قرينة على الزنا وهو ظهور الحمل على من لازوج لها •

وروى أنه شاهد رجلا يمشى مرخيا يديه ، طارحا رجليه يتبختر ، فقال له عمر : دع هذه المشية • فقال : ما أطيق ٠٠ فجلده • ثم تبختر ، فجلده فترك التبختر • فقال

(١) ص ٢٥٠ صادر من كتاب الشعب الجزء السابع •

عمر : إذا لم أجلد مثل هذا ففيم أجلد ؟ فجاءه الرجل بعد ذلك فقال : جزاك الله خيرا ·· إن كان إلا الشيطان أذهبه الله بك[1] فما أشد حاجتنا إلى مثل هذه العقوبة فى الوقت الحاضر لعدم اكتراث الشباب بقواعد الأخلاق !

١٢ ـ قص شعر المتشبهين بالنساء :

عُرفت عقوبة قص الشعر فى عهد عمر رضى الله عنه للشباب الخارج عن نطاق الأدب والاحتشام ، فقد روى أنه بينما يطوف بالطرق سمع إمرأة تهتف من خدرها وتقول :

هـل من سبيل إلى خمـر فاشربهـا   أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

فقال عمر : لا أرى معى رجلا تهتف به العوائق فى خدورهن ·· علىّ بنصر ابن الحجاج ، فأتى به ، فإذا هو أحسن الناس وجها وأجملهم شعرا ، فقال : على بالحجّام فجز شعره ·

فما أشد حاجتنا إلى قصر شعر هؤلاء المتشبهين بجماعة (الهيبيز) فى شعورهم وملبسهم ! وهذه عقوبة من شأنها أن تصلح من أمرهم وتقوم أخلاقهم بعد أن عجزت النظم والقوانين عن إصلاح شأنهم ، وإنه مما يشرف الإسلام والمسلمين أن رسول الله ﷺ قد ذكر هذه الفئة المتشبهة بالنساء منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ·

١٣ ـ رجم المحلّل :

سن عمر بن الخطاب عقوبة تعزيرية هى رجم المحلّل ·· وزواج التحليل هو أن يتزوج المطلقة ثلاثا بعد انقضاء عدتها ، ويدخل بها ثم يطلقها ليحلّلها للزوج الأول ·· فقد روى عن ابن المنذر وأبى شيبيه وعبدالرازق أن عمر الخطاب قال : (لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما)[2] ·

١٤ ـ زواج المطلقة فى عدتها :

وضع عمر رضى الله عنه عقوبة لمن تتزوج فى عدتها ، وهو الزواج المنهى عنه بنص

---

(١) اخبار عمر وعبدالله بن عمر لعلى وناجى الطنطاوى ·

(٢) موطأ الأملم مالك ـ مع شرح الزرقانى · ص ٣

القرآن الكريم ، فضرب الزوجة ضربات وفرق بينهما ، وقال : أيما امرأة نكحت فى عدتها ، فإن زوجها الذى تزوجها إذا لم يدخل بها فرق بينهما واعتدت بقية عدتها من الأول ، ثم كان خاطب من الخطاب وإن كان قد دخل بها فرق بينهما ثم اعتدت عدتها من الآخر ثم لاينكحها أبدا[1] . وأخذ عمر بقاعدة الزجر والتأديب معاقبة للزوجين على مخالفة أمر الشارع .

١٥ ـ تزين الزوج لزوجته :

جاء فى كتاب (مناهج الاجتهاد) للشيخ سلام مدكور (ص ١٢٩) ان امرأة أتت بزوج لها أشعث أغبر فقالت : يا أمير المؤمنين لا أنا ولا هذا خلصنى منه ، فنظر عمر فعرف ماكرهت منه ، فأشار إلى رجل فقال : اذهب به فحمه وقلم أظفاره وخذ من شعره وائتنى به ، فذهب ففعل ذلك ثم أتاه فأومأله عمر ان خذ بيدها وهى لاتعرفه فقالت : ياعبدالله سبحان الله أبين يدى امير المؤمنين تفعل هذا فلما عرفته ذهبت معه فقال عمر : هكذا فاصنعوا لهن فوالله انهن ليحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزين لكم[2]

١٦ ـ قضية زنا :

روى أن امرأة رفعت إلى عمر رضى الله عنه أنها قد زنت ، فسألها عن ذلك ، فقالت : نعم يا أمير المؤمنين ، وأعادت ذلك وأيدته .. فقال على : رضى الله عنه إنها لتستهل به استهلال من لايعلم أنه حرام .. فدرأ عمر عنها الحد ومن هذه القضية يتضح كيف أبرأ عمر المرأة لانتفاء القصد الجنائى لديها .

وهذا القصد هو ماتتطلبه القوانين الحديثه لمعاقبة المتهمين .

١٧ ـ التسول :

روى أن مرّ بعمر سائل وعلى ظهره جراب مملوء طعاما فأخذه ونثره للبعير ثم قال : الآن سل مابدالك[3] وهذا الحكم له السبق عن أحكام القوانين الحديثة التى يقضى فيها

---

(١) مناهج الاجتهاد لسلام مدكور ص ٢٧

(٢) مناهج الاجتهاد للشيخ سلام مدكور ص ١٢٩

(٣) الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية لابن قيم الجوزية ص ٢٢

بمصادرة كل ماتحصل من الجرائم وقد صادر عمر الطعام وألقاه للبعير ليأكله ٠

١٨ ـ النائحة :

سمع عمر صوت بكاء فى بيت فدخل وبيده الدرة فمال عليهم ضربا حتى بلغ النائحة فضربها حتى سقط خمارها ، ثم قال لغلامه : اضرب النائحة ويلك اضربها فإنها نائحة لاحرمة لها لأنها لاتبكى بشجونها ، إنما ترسق دموعها على اخذ دراهمكم ، انها تؤذى أمواتكم فى قبورهم ، وأحباءكم فى دورهم ، إنها تنهى عن الصبر وقد أمر الله به وتأمر بالجزع وقد نهى الله عنه[١] ٠

وقد أكد عمر رضى الله عنه هذا المبدأ وهو منع الندب على الميت وهو فى سكرات الموت ، فروى عن المقدام بن معد يكرب قال : لما أصيب عمر دخلت عليه حفصة وهى ابنته فقالت : ياصاحب رسول الله ﷺ وياصهر رسول الله ويا أمير المؤمنين ٠٠ فقال لها عمر اجلسى فلا صبر لى على ما أسمع ٠ فأسندته إلى صدرها فقال : لها إنى أحرج عليك بما لى عليك من الحق أن تندبينى بعد مجلسك هذا ، اما عينك فلن املكها إنه ليس من ميت يندب بما ليس فيه إلا الملائكة تمقته[٢] ٠

وهذا النهى من جانب عمر هو مصداق لحديث رسول الله ﷺ عندما قال : إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه ٠

١٩ ـ قص شعر شارب الخمر مع إقامة الحد :

كان الحكم فى عهد عمر فى شارب الخمر هو قص شعره بالإضافة إلى الحد ٠٠ فقد روى عن ابن عمر أن عمر قد حلق رأس شقيقه عبدالرحمن وأبى سروعة وأقام عليهما حد الشرب عندما اقرا بالسكر من شراب شرباه أثناء وجودهما فى مصر ٠[٣]

٢٠ ـ بيع الخمور :

حرق عمر بن الخطاب حانوت خمار بما فيه وحرق قرية يباع فيها الخمر فحرق بيت

---

(١) شرح البلاغة لابن أبى الحديد ص ١١١

(٢) سيرة عمر بن الخطاب ـ لابن الجوزى ص ١٥٨

(٣) الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية لابن قيم الجوزيه ص ٢١٦

رويشد الثقفى ، لأنه كان يبيع الخمر وقال له : أنت فويسق ، ولست برويشد .

٢١ ـ قضية شرب خمر :

اعتمد عمر رضى الله عنه على قرينة ظهور رائحة الخمر من فم الرجل أوقيئه خمرا لإثبات جريمة شرب الخمر وتطبيق حد الشرب[١] عليه .. ومن هذا يتضح كيف أن عمر يعتمد على القرائن القوية لتأييد التهمة .

٢٢ ـ قضية سرقة :

من اعتياد عمر بن الخطاب على القرائن قضاؤه بالقطع إذا وجد المال المسروق مع المتهم ، إذ أن وجود المال مع السارق قرينة قوية .. ويلاحظ أن عمر لم يأت بجديد فى هذه القضية فقد اعتمد القرآن على القرائن لتأييد أو نفى التهمة . قال تعالى :

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ . من ذلك يتضح كيف استدل على قرينة قطع القميص من الأمام أو الخلف على نفى الجريمة أو إثباتها .

٢٣ ـ عدم تطبيق حد السرقة بالقطع فى عام المجاعة !

لم يقطع عمر بن الخطاب يد السارق أو السارقه[٢] فى عام المجاعة لأنه رأى أن هذه السرقة قد ارتكبت لحفظ الحياة ، وحفظ الحياة مقدم على حفظ المال مع أن الآية صريحة فى الأمر بقطع يد السارق دون قيد ، وليس من شك فى ان هذا التصرف من جانب عمر رضى الله عنه يتفق مع قواعد العدالة الحقة .

---

(١) الطرق الحكمية ص ٦

(٢) المصلحة فى التشريع الاسلامي رسالة الاستاذ مصطفى زيد ص ٣٢

٢٤ ـ اسقاط حد السرقة للضرورة :

لقد شرع الله فى كتابه الكريم حدودا فى القتل والسرقة والزنا والقذف وقطع الطريق ، إلا أن عمر درأ الحد للضرورة استنادا إلى قوله تعالى :

﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [1]

فقد روى أن غلمانا لحاطب بن أبى بلتعة سرقوا ناقة لرجل من قبيلة مزينة ، فأتى بهم عمر فأقروا فأمر كثير بن الصلت بقطع أيديهم ، فلما ولى ردّه ثم قال : أما والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى أن أحدهم لو أكل ماحرم الله عليه حل له لاقطعت أيديهم ٠٠ ثم وجه القول إلى عبدالرحمن بن حاطب بن أبى بلتعه فقال : وأيمن الله إذ لم أفعل ذلك لأغرمنك غرامة توجعك ٠٠ قال عمر لابن حاطب : اذهب فاعطه ثمانمائة واعف الغلمان السارقين من الحد ، لأن حاطبا اضطرهم إلى السرقة لجوعهم ٠ يتضح من هذا كيف كان اجتهاد عمر رضى الله عنه لدرء الحد للضرورة قاصدا من ذلك التيسير على الناس استنادا لقول الرسول ﷺ (**يسروا ولا تعسروا**) وعمر اجتهد برأيه وذلك لأن رسول الله ﷺ كان يدعو أصحابه إلى الاجتهاد ، فقد روى عن عمرو ابن العاص أنه قال : (جاء خصمان يختصمان إلى الرسول فقال لى : ياعمرو اقض بينهما ٠ فقلت: انت اولى بذلك منى يانبى الله ٠٠ قال : وإن كان قلت : على ماذا اقضى ؟ قال : إن أصبت القضاء بينهما فلك عشر حسنات وإن اجتهدت،فأخطأت فلك حسنة)[2]

٢٥ ـ التبديد :

كان عمر بن الخطاب أول الناس حرصا على أموال الدولة التى فى عهدته ، ويتضح ذلك فى جميع تصرفاته ، فى المال العام ٠٠ فقد روى عن سلام أنه قال : سمعت الحسن يقول : جىء إلى عمر بمال ، فبلغ ذلك السيدة حفصة أم المؤمنين وزوجة رسول الله ﷺ وابنة عمر رضى الله عنه فجاءت وقالت : يا أميرء حق أقربائك من هذا المال ، فقال :

---

(١) عناصر القوة فى الاسلام لشيخ سيد سابق ص ١٥٧

(٢) عمر بن الخطاب قاضيا ومشرعا ـ للاستاذ محمد عارف مصطفى ص ١٢١

يابنية حق أقربائى فى مالى ، وأما هذا ففيء المسلمين ٠٠ غششت أباك ونصحت أقرباءك قومى فقامت والله تجر ذيلها ٠[١]

يبدو من هذا الحكم حرص أمير المؤمنين على المال العام من التبديد والعمل على إنفاقه فى وجهه الصحيح وقد روى عن حارثة أنه كان يصف المال وسلطته على المال بقوله : (انى انزلت نفسى من هذا المال بمنزلة ولى اليتيم ، إن استغنيت استعففت وإن احتجت استقرضت فإذا أيسرت قضيت)

٢٦ ـ اول قراض فى الاسلام :

القراض هو من يدفع مالا إلى شخص ليتجر فيه ، ويكون الربح بينهما على الشروط التى يتفقان عليها ٠ وقد أجاز عمر بن الخطاب ذلك ، فقد روى مالك فى الموطأ ، أنه خرج عبدالله وعبيدالله إبنا عمر بن الخطاب فى جيش إلى العراق فلما قفلا مرا على أبى موسى الأشعرى ، وهو أمير البصرة فرحب بهما ، ثم قال : لو أقدر لكما على أمر انفعكما به ٠ ثم قال : بلى ههنا مال من مال الله ، أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين فأسلفكماه فتبتاعا به متاعا من متاع العراق ، ثم تبيعانه فى المدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح ٠

فقالا : وددنا ذلك ٠٠ ففعل ، وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال ، فلما قدما باعا فأربحا ، فلما دفعا ذلك إلى عمر قال : أكل الجيش أسلفه ؟ قالا : لا فقال عمر ٠٠ ابنا أمير المؤمنين فأسلفكماه ، أديا المال وربحه ٠

فأما عبدالله ، فسكت ، وأما عبيدالله فقال : ماينبغى لك هذا ياأمير المؤمنين لو نقص هذا المال أو هلك لضعناه ٠ فقال عمر ٠٠ ادياه ٠

فسكت عبدالله ، وراجعه عبيدالله ، فقال رجل من جلساء عمر : ياأمير المؤمنين ، لو جعلته قراضا ، فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه ، وأخذ عبدالله وعبيدالله نصف ربح المال ٠ لذلك قالوا عنه : هو أول قراض فى الاسلام ٠

وهذا التصرف من أمير المؤمنين يعتبر تطبيقا للحديث (الخراج بالضمان)[٢] أى أن

---

(١) مناقب امير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن الجوزية ص ٩٧

(٢) نظرية الضمان فى الفقه الاسلامى ـ لعلى الخفيف ص ١

مايخرج من المال من فائدة تستحق لمن يتحمل تبعة الضمان (أى الهلاك) • وهذه القاعدة ما اتبع الآن فى القوانين الحديثة •

٢٧ ـ الحرمان من الميراث :

روى أن غيلان بن سلمه أسلم وله عشر نسوة فقال له النبى ﷺ : اختر منهن أربعا ، فلما كان فى عهد عمر رضى الله عنه طلق نساءه وفرق ماله بين بنيه قاصدا حرمان الزوجات ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فقال : إنى لأظن الشيطان فيما يسترق السمع سمع بموتك ، فقذفه فى نفسك وأجلك ألا تمكث إلا قليلا ، وأيم الله لتراجعن ولترجعن فى مالك أو لأورثهن منك ، أو لأمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبى رغال •[١]

٢٨ ـ قطع المياه :

سَنَّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه قاعدة منصوصاً عليها فى القوانين الحديثه ، وهى عدم جواز قطع المياه عن الناس وذلك لما يترتب على هذا القطع من آثار على الناس وعلى الزرع وغير ذلك • وجريمة قطع المياه شائعة فى الوقت الحاضر ، وتتمثل فى قطع المالك المياه عن مستأجرى العقارات أو عن الأراضى الزراعية التى تروى من مصدر واحد • وقد سن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه عقوبة تعزيرية وهى إزالة هذا التعرض عن طريق إعادة الحال إلى ما كان عليه قبل ذلك • فقد روى عن يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب عن أبيه قال : قدمنا مكة مع عمر فأقبل أهل مكة يقولون له:إن أباسفيان حبس مسيل الماء علينا ليهدم منازلنا فأقبل عمر ومعه الدرة فإذا أبوسفيان قد نصب أحجاراً ، فقال : ارفع فرفعه ثم قال : وهذا وهذا حتى رفع أحجارا كثيرة خمسة أو ستة ، ثم إستقبل عمر الكعبة فقال : الحمد لله الذى جعل عمر يأمر أباسفيان ببطن مكة فيطيعه[٢] •

ويحدثنا التاريخ أن قوما من الأنصار مروا بحى من العرب ، فسألوهم القِرَى فأبوا ، فسألوهم الشراء فأبوا ، فضبطوهم فأصابوا منهم ، فأتوا عمر رضى الله عنه فذكروا له ذلك ، فهمّ بالأعراب ، وقال : ابن السبيل أحق بالماء من القانىء (المقيم عليه) •[٣]

(١) سيرة عمر بن الخطاب ـ لابن الجوزى ـ ص ١٣٥

(٢) اخبار عمر وعبدالله بن عمر ص ٢١٧ الجزء الثانى •

(٣) اخبار عمر ، المرجع السابق ص ٢٢٩

٢٩ ـ حكم اللقيط :

سَنَّ عمر بن الخطاب قاعدة لتربية اللقطاء تربية صالحة ، فقد فرض من بيت المال مائة درهم لكل لقيط حتى يمكن أن ينشأ فى تربة صالحة ، وخاصة وأنه كان ثمرة خطيئة لا ذنب له فيها •

وهذه القاعدة التى سنها الفاروق قد بدأت الدول الراقية تتبعها ، وهى إنشاء دور للتربية يربى فيها هؤلاء اللقطاء •

٣٠ ـ تكليف العمال بعمل زائد عن طاقتهم :

سَنَّ عمر رضى الله عنه عقوبة الدية على من يتسبب فى قتل عامل نتيجة إرهاقه فى عمل ليس فى طاقته •

وهذه العقوبة تشبه التعويض المقرر للعمال بموجب أحكام قوانين العمل إذا كانت الإصابة أثناء أو بسبب عملهم • فقد روى عن زيد بن وهب •• خرج عمر بن الخطاب ذات يوم إلى سوق المدينة فجاء رجل يقول له واعمراه • فسألناه عن خبره فقال : إن عاملا من عماله (عمال عمر) أمر رجلا أن ينزل فى واد فقال الرجل : إنى أخاف •• فعزم عليه فنزل •• فلما خرج كز (انقبض) فمات ونادى •• ياعمراه فبعث عمر الى عامله (أما لولا أنى أخاف الله أن تكون سنة بعدى لضربت عنقك ، ولكن لاتبرح حتى تؤدى ديته)[١]

٣١ ـ كشف الجرائم :

اتبع عمر بن الخطاب رضى الله عنه طرقاً فى كشف الجرائم تدل على قوة فراسته ومقدرته الفائقة على كشف الجريمة وإثباتها أو نفيها •• فقد قال جعفر بن محمد : أتى عمر بن الخطاب بامرأة قد تعلقت بشاب من الأنصار ، وكانت تهواه فلما لم يساعدها احتالت عليه ، فأخذت بيضة فألقت صفارها ، وصبت البياض على ثوبها وبين فخذيها ، ثم جاءت عمر صارخة ، فقالت : هذا الرجل غلبنى على نفسى ، وفضحنى فى أهلى وهذا أثر المنى • فسأل عمر النساء فقلن له : إن بيديها وثوبها أثر المنى ، فهمّ بعقاب الشاب ،

(١) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٦٥

فجعل يستغيث ويقول : ياأمير المؤمنين ، تثبّت فى أمرى ، فوالله ماأتيت فاحشة وما هممت بها ، فقد راودتنى عن نفسى فاعتصمت ، فقال عمر : ياأبا الحسن ما ترى فى أمرها ؟ فنظر علىٌّ إلى ما على الثوب ، ثم دعى بماءٍ حارٍ شديد الغليان ، فصب على الثوب فجمد ذلك البياض ، واشتمّ وذاقه فعرف طعم البيض ، وزجر المرأة فاعترفت .

٣٢ ـ إسقاط السابقة الأولى :

لقد سَنَّ عمر رضى الله عنه مبدأ آخر ، وهو عدم الأخذ بالسابقة الأولى ، وذلك لكى يترك للمذنب الفرصة للتوبة ، ولكى لاتتكون فى نفسه عقدة ضد المجتمع ، وأيضا لكيلا تكون هذه السابقة عقبة فى طريق مستقبله ، وهذا المبدأ أخذت به القوانين الحديثة ، ومنها القانون فى جمهورية مصر العربية ، فقد روى أنه تفقد رجلا يعرفه فقيل له : إنه يتابع الشراب ، فكتب إليه .. (إنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير) فلم يزل الرجل يرددها ويبكى حتى صحت توبته ، وأحسن النزع وبلغت توبته عمر ، فقال لمن حضروا عليه : هكذا فاصنعوا . إذا رأيتم أخاً لكم زلّ زلة فسدّدوه ووفّقوه وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولاتكونوا أعوانا للشيطان عليه .[1]

٣٣ ـ عدم تطبيق الحد إذا كان المتهم مكرها :

روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى بامرأة زنت ، فأقرت فأمر برجمها فقال علىٌّ كرم الله وجهه : لعل لها عذراً .. ثم قال لها : ما حملك على الزنا ؟ قالت : كان لى خليط وفى إبله ماء ولبن ، ولم يكن فى إبلى ماء ولا لبن فظمئت فاستقيته فأبى أن يسقينى حتى أعطيه نفسى فأبيت عليه ثلاثاً ، فلما ظمئت وظننت أن نفسى ستخرج أعطيته الذى أراد ، فسقانى . فقال على :

الله اكبر ، وتلا قوله تعالى :

﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ أرى أن تخلى سبيلها ففعل عمر بن الخطاب ذلك .[2]

---

(١) عبقرية عمر لعباس محمود العقاد ص ٣

(٢) الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ص ٥٤ لابن القيم الجوزيه .

٣٤ ـ اشتراط نشر القانون قبل تنفيذه :

لعل أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أول فقيه قانونى وضع مبدأ أن لاجريمة بغير قانون ، ولا قانون من غير نشر • يروى فى ذلك عن إبراهيم النخعى أنه قال : (إن عمر رضى الله عنه نهى الرجال أن يطوفوا مع النساء ، فرأى رجلا يصلى مع النساء ، فضربه بالدرة ، فقال الرجل : والله إن كنت أحسنت لقد ظلمتنى وإن كنت أسأت فما علمتنى) فقال عمر : أما شهدت عزمتى ألا يطوف الرجل مع النساء •• فقال : ما شهدت لك عزمة فألقى عمر إليه الدرة ، وقال له : اقتص • قال : لااقتص اليوم •

قال : فاعف عنى •

قال : لا اعفو •

فافترقا على ذلك ، ثم لقيه عمر فى اليوم التالى ، فتغيرّ لون عمر ، فقال الرجل : ياأمير المؤمنين كأنى ارى ما كان منى قد أسرع فيك •

قال : أجل •

قال : فأشهد الله أنى قد عفوت عنك[١]

من هذه الرواية يتضح كيف أن عمر بن الخطاب طلب أن يقتص الرجل منه عندما طبق عليه الحد دون أن يعلم الرجل بمنع عمر طواف الرجال بالنساء أو الصلاة معهم •

٣٥ ـ دفاع شرعى :

أسقط عمر رضى الله عنه الحد عن المتهم إذا كان قد ارتكب جريمة دفاعا عن العرض أو المال أو النفس • وهو نفس المبدأ الذى أخذت به القوانين الحديثة •

فقد روى أن رجلاً أضاف أناسا من هذيل ، فخرجت لهم جارية واتبعها ذلك الرجل ، فراودها عن نفسها فتعافا فى الرمل (تصارعا) فرمته بحجر ففضت كبده فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ، فقال :

(ذلك قتيل الله والله لايؤدى أبدا)[٢]

ورفع عمر رضى الله عنه جارية كانت تحتطب فأتبعها فراودها عن نفسها فرمته بصخر

---

(١) الجريمة فى الفقه الاسلامي الشيخ محمد ابوزهرة ص ٢١٠

(٢) روضة المحبين لابن القيم الجوزية (دمشق) ص ٣٢٤

فقتلته فقال عمر : هذا قتيل الله والله لايؤدى ابدا .[1]

من هذا يتضح كيف أن عمر بن الخطاب قد أقر حالة الدفاع الشرعى ولم يحكم على المتهمة لأنها كانت تدافع عن عرضها .. بهذا المسلك يكون عمر قد وضع هذا المبدأ قبل مشرّعى العصور التالية عليه .

٣٦ ـ اعتراف المكره أو الخائف :

قال حنظلة قال عمر رضى الله عنه : ليس الرجل بمأمون على نفسه إذا أوجعته أو حبسته أن يقر على نفسه[2] . من هذه الرواية نرى أن الاعتراف الصادر تحت ضغط أى نوع من أنواع الإكراه سواء كان هذا الإكراه ماديا بالجوع أو الحبس ، أو كان معنويا عن طريق تخويف المتهم لايؤخذ به .

وهذه القاعدة القانونية التى وضعها عمر بن الخطاب وهى نفس القاعدة التى وضعها فقهاء القانون فى العصر الحديث فى طرح مثل هذا الاعتراف .

٣٧ ـ عزل الولاة والقضاة كعقوبة لهم :

لقد بلغ حرص الفاروق رضى الله عنه لتحقيق العدل حد تطبيق عقوبة العزل للقضاة والولاة إذ اكثرت فى شأنهم الشكليات حتى أنه قال : (هان شىء أصلح به قوما أن أبدلهم أميرا مكان أمير . ومن هؤلاء الولاة سعد ابن أبى وقاص .

ومن وسائله فى رقابة عماله رصد العيون والرقباء حولهم ليبلغوه ماظهر وما خفى من أمرهم .

وهذا ـ لاشك ـ يتفق مع أحدث النظم العصرية لرقابة الموظفين فى الدولة ووضع تقارير دورية عن سلوكهم تمهيدا للعمل على بقائهم فى مناصبهم أو عزلهم منها .

---

(١) الام للامام الشافعي الجزء الخامس ص ١٧٩

(٢) اخبار عمر وعبدالله ص ٣٣٢

التسامح في الإسلام

الإسلام دين سمح يشجع على الحرية فى التفكير والحرية فى الرأى ويدعو إلى تبادل المودة والتعاون والتكافل والتضامن والتراحم بين بنى البشر ٠

لقد كان الفقيه والنحوى والفلكى والمهندس والمحدث والفيلسوف يجلسون للتدريس فى المسجد أو فى المدرسة التابعة للمسجد ، فينتقل الطالب من بين يدى الفقيه ليجلس بين يدى الفيلسوف ، ومن مجلس الحديث إلى مجلس الأدب ٠ وإذا دار الحديث بين العلماء عن مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها فى المناظرة والإقناع وأخذ التسامح بينهم مأخذه ٠ وكثيرا ماتقع مجادلة بين المسلمين وغير المسلمين فى جو فسيح من الحرية والتسامح ٠ لقد كانت البصرة فى المائة الثانية من الهجرة عاصمة حركة فكرية عظيمة يجتمع فيها العلماء لينازعوا الثانوية والدهرية فى أمور التوحيد ويناظروا الجبرية فى الجبر والاختيار والثواب والعقاب ويردوا على المشبهة فى صفات الله والتجسيم ٠ وكانت بغداد وخاصة فى عصر المأمون مسرحا للمناظرات الفكرية الحرة وكان الخليفة يشجعهم على ذلك ويشاركهم فى المناظرة ٠

يروى أن المأمون قال لحاجبه يوما : من فى الباب من أصحاب الكلام فخرج وعاد إليه فقال : بالباب أبو هذيل العلاف وهو معتزلى وعبدالله بن أباض الخارجى وهشام ابن الكلبى فقال المأمون : مابقى من أعلام جهنم أحد إلا وقد حضر ٠

فانظروا إلى هذا الخليفة كيف يجالس العلماء على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم ويصغى إلى مناظرتهم وهو يعتقد أنهم من أعلام جهنم ٠ ومما يدل على التسامح وحرية الفكر وتقدير العلم والعلماء أن الخلفاء والأمراء كانوا يقدمون العلماء على اختلاف نحلهم ومذاهبهم واتجاهاتهم ويولونهم أعلى الدرجات ، ويحيطونهم بكل رعاية واحترام لست فى حاجة إلى أن أذكر هنا ما أحيط به العلماء المسلمون من رعاية ، ولكنى أذكر هنا بعض

العلماء المسيحيين الذين قربتهم الدولة الاسلامية وشملتهم برعايتها ولتهم أعلى المناصب .

هذا جورجس بختيشوع الجند يسابورى اشتهر بالحظوة على المنصور ، كان هذا العالم طبيبا وفيلسوفا معا ، فعلت منزلته عند المنصور لعلمه وفضله وصدقه وإخلاصه ، يحدثنا التاريخ أنه كانت له زوجة عجوز فأشفق عليه المنصور وأمر له بثلاث جوار حسان فردهن وقال : إن دينى لايسمح لى بأن أتزوج غير زوجتى مادامت حية . فأعلى المنصور مكانته . ولما مرض أمر المنصور بحمله إلى دار العامة وخرج إليه ماشيا يسأل عن حاله . فاستأذنه الطبيب فى الرجوع إلى بلده ليدفن مع آبائه . فعرض عليه المنصور الإسلام ليدخل الجنة فقال : رضيت أن أكون مع أبائى فى جنة أو نار فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار وأوصى من معه بحمله إذا مات فى الطريق إلى مدافن آبائه .

وهذا يوحنا بن ماسوية ولاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة ووضع جميع المدارس تحت إشرافه . وممن حظى بالمكانة العليا عند المأمون يوحنا البطريق الذى أقامه هذا الخليفة أمينا على ترجمة كتب الطب والعلم والفلسفة وهناك غير هؤلاء كثيرون منهم حنين ابن اسحاق ومتى بن يونس وقسطا بن لوقا ويحى بن عدى .

واختار المعتصم أخوين من المسيحيين وعينهما وزيرين من الوزراء تولى أحدهما بيت المال أى وزارة المالية . وذات يوم مرض إبراهيم فزاره المعتصم فى بيته ولما مات حزن لوفاته حزنا شديدا وأمر بإحضار جثته إلى قصر الخلافة حيث صلى عليها بحسب التقاليد المسيحية وشيعت جنازته من قصر المعتصم . وفى عهد عضد الدولة بن بويه تولى نصر بن هارون وهو مسيحى رئاسة الوزراء الإسلامية واستطاع نصر بن هارون أن يشيد كثيرا من المعابد والكنائس للمسيحيين وهذا لاشك مثل واضح لروح التسامح فى الإسلام .. لقد شهد بهذا التسامح الذى امتاز به الإسلام بعض الغربيين وعلى رأسهم المستشرق السير توماس ارنولد الأستاذ بمعهد اللغات الشرقية بلندن .

قال فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام) : حقا إن الكنيسة المسيحية قد قويت وتقدمت فى رعاية المسلمين وحكمهم فلم يمنعها الحكم الإسلامى عن التقدم والرقى بل إن النسطوريين من السريانيين لم تظهر فيهم الحماسة والغيرة الدينية إلا بعد أن كانوا فى حكم المسلمين فنشروا المسيحية تحت الراية الاسلامية ووصلوا بدعوتهم إلى بلاد الصين والهند

تحت رعاية الخلفاء ، وإذا لم يكن لغير النسطوريين من النصارى ماهؤلاء من النشاط والحمية فى نشر دعوتهم الدينية ، فليس هذا ذنب المسلمين ولاذنب حكامهم فقد كان المسيحيون بمذاهبهم المختلفة يتمتعون بحسن الرعاية والتسامح من الحكام المسلمين بل كان هؤلاء الحكام هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسلمين لبعض المسيحيين ويكفلون لهم جميعا الحرية الدينية •

وفى موضع آخر قال السيد توماس ارنولد : « تحت نظام من الأمن يضمن الحرية فى الحياة والملكية والعقيدة الدينية قد تمتع المسيحيون وبخاصة فى المدن بثروات كبيرة ونجاح عظيم فى العصور الأولى للإسلام فكان منهم ذوو النفوذ الكبير فى قصور الخلفاء » •

وقد وضح السير توماس فى موضع آخر من كتابه تسامح المسلمين بقوله : « وإن بقاء الكنائس المسيحية ومن يتبعها من الكاثوليك والارثوذكس والبروتستانت فى الشرق الإسلامى من تلك القرون الطويلة • لاشك أن هذا التسامح الذى امتاز به الإسلام هو من أعظم الأسباب التى جذبت إلى أحضان هذا الدين عددا كبيرا من المسيحيين حتى القرن الثانى عشر الميلادى •

لقد جاء الصليبيون للقضاء على الإسلام والمسلمين ولكنهم بهتوا لما رأوه فى المسلمين من التسامح والعدل كما أعجبوا أيَّما إعجاب بشجاعة صلاح الدين الايوبى وأخلاقه الفاضلة فترك كثير من الناس دينهم وخاصة المسيحيين واعتنقوا الإسلام وفى ذلك يقول السير توماس ارنولد : « لقد اطمأنوا إلى الحكم الإسلامى فأسلموا راضين مستبشرين • واستمر الحكماء من المسلمين على عاداتهم القديمة من التسامح وسعة الصدر لأهل الملل الأخرى » ويقول ألاَنْ بيرنز فى كتابه « التفرقة بين الأجناس والألوان » « إن من المقرر أن الإسلام كان أكثر تسامحا من الدين المسيحى فى الفخر والمباهاة بالأصل والعنصر والتعصب للفكرة القومية وهو لايبالى بألوان البشرة والطوائف ويحطم الحواجز التى تقام بين الناس وشوهد أن الغزاة العرب تزوجوا بمحض إرادة الطرفين نساء من بلاد وأصول غير عربية كما زوجوا بناتهم المسلمين من السود وهذه حقيقة بعيدة المدى » •

والقرآن الكريم يأمرنا بالعفو عن المخطىء والصفح عنه والإعراض عن الجاهلين كما يأمرنا أن نصل من قطعنا ونعطى من حرمنا قال تعالى :

﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٨٥ من سورة الحجر)

وقال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (١٩٩ من سورة الأعراف) ، وقال عز وجل ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

ويصف الله الذين يضبطون شعورهم وقت الغضب قائلا ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾ (٢٣٧ من سورة البقرة) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : « كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية فأدركه أعرابى فجبذه (أى جذبه) بردائه جبذة شديدة فنظرت إلى صفحة عاتق النبى ﷺ وقد أثرت بها حاشية البردى من شدة جبذته ، ثم قال : يامحمد مرلى من مال الله الذى عندك . فالتفت إليه النبى فضحك ثم أمر له بعطاء . رواه البخارى ومسلم .

إن هذه الصفات الخلقية التى يحثنا الإسلام على التحلى بها هى من المثل العليا التى تربط الإنسان بأخيه الإنسان .

بالتسامح والحلم والتحلم تدوم الأخوة الصادقة وتقوى الروابط والصلات بين الناس . والمؤمن عزيز النفس يدرك كل الادراك متى يقابل الإساءة بالعفو ومتى يقابل الإساءة بمثلها . وقد وصف الله المؤمنين بقوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

والمؤمن يدرك متى يجب أن يقابل الظلم والعدوان بالدفاع بكل مالديه من قوة . قال تعالى :

﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ .



الحضارة الإسلامية

فى حوالى قرن واحد بين وفاة محمد عليه السلام سنة ٦٣٢ ميلادية وبين معركة بواتيه عام ٧٣٢ م استطاع الإسلام أن يقيم دولة هى أوسع من إمبراطورية الاسكندر وإمبراطورية الرومان • ولم تكن وقعة بواتيه حاسمة فى تاريخ الإسلام ، فالزحف العربى لم يتوقف لأن يوسف بن عبدالرحمن استولى على مدينة أرل ، وبسط المسلمون نفوذهم على مجرى نهر الرون ، وتقدمت طلائعهم حتى وصلت مدينة سانس التى تبعد عن باريس حوالى مائة كيلومتر •

وفى الشرق وصل المسلمون إلى حوض الاندوس وبسطوا سلطانهم فيه وفتحت لهم بخارى أبوابها سنة ٧١٩ ميلادية •

انتشر الإسلام بسرعة خاطفة وامتدت الإمبراطورية الإسلامية من أقاصى الهند شرقا إلى المحيط الاطلسى غربا ومن بلاد القوقاز شمالا إلى أواسط أفريقيا جنوبا ولم تكن هذه الفتوحات عسكرية زائلة الأثر كفتوحات التتار والمغول وإنما كانت تحمل رسالة سامية وتبشر بعقيدة قوية تتوافق مع طبيعة الإنسان وتكوينه وتتلاءم مع كل زمان ومكان • وفى ظل الإمبراطورية الإسلامية عاشت شعوب وديانات مختلفة عيشا كريما • ولاغرو فالعرب لم يفكروا ان يخمدوا بالقوة الأديان السماوية الأخرى بل هم على العكس أبدوا لها كل احترام وتقدير •

لقد كان هذا التسامح جديدا على أهل العصور الوسطى وله فى سرعة الفتح وتقدم المسلمين الفكرى مايعادل أهمية أى عامل آخر فقد شجع الطوائف على أن تسهم فى إقامة صرح تلك النهضة الثقافية الكبرى فى حواضر العالم الإسلامى • وقد استطاع المسلمون أن يقضوا على المنازعات الدينية والاضطهادات العديدة التى مزقت الشعوب الخاضعة

للحكم البيزنطى وأن يحرروا تلك البلاد من جميع هذه المنازعات والاضطهادات وأن ينشروا العدل والأمن والسلام .

وببساطة الإسلام وتأثير ثقافته السامية انتشرت اللغة العربية فى الأقطار التى دخلها المسلمون . ففى فارس أصبحت العربية لغة حكومية ولغة العلم والأدب ، وفى سوريا قضت لغة القرآن على اللغات السريانية واليونانية والآرامية ، وفى مصر حلت محل اللغة القبطية وفى الهند أصبحت العربية أساس اللغة الأوردية كما كان لها أثر فى تطوير اللغة التركية وكذلك الشأن فى المغرب فقد حلت العربية محل البربرية والرومانية ، وفى أوربا دخلت مفردات عربية بحوالى ٢٥ بالمئة من اللغة الأسبانية ولاتزال فى هذه اللغة وفى لغة البرتغال ألوف من الكلمات العربية حتى اليوم .

كان من الطبيعى أن تجوب قوافل التجار المسلمين فى أواسط أوربا وشمالها كما تدل على ذلك العملة الإسلامية التى ترجع إلى القرون الخمسة الأولى للهجرة والتى عثر عليها فى المناطق الشمالية كالسويد والنرويج وفنلندا مما يشهد بما كان للمسلمين من نفوذ تجارى فى تلك البلاد .

كان هؤلاء التجار يحملون إلى أوربا أصنافا من التوابل والمسك والكافور والبخور وأنواعا من التحف والمنسوجات وكانوا يعودون منها بالفراء والسيوف والدروع والأغنام .

وكان من الطبيعى أن يعنى المؤرخون والجغرافيون المسلمون بشؤون بلاد الغرب ، فيسافروا إليها للوقوف على أحوالها وأوضاعها كما هى قائمة ويكتبوا عنها فى مؤلفاتهم فكانوا يعتمدون على الرحلة والمشاهدة ولقد صارت كتبهم مراجع قيمة تستقى منها أخبار شعوب أوربا وما كانت عليه فى تلك العصور المظلمة .

وكان من أبرز الرحالة المسلمين ابن رستة صاحب كتاب الأعلاق النفسية فقد تحدث عن أحوال روسيا وأوربا سنة (٩٠٢ م) وتلاه ابن فضلان الذى سافر سنة (٩٢١ م) مبعوثا من الخليفة المقتدر بالله إلى ملك البلغار وكان قد أسلم وبعث إلى الخليفة يطلب من يفقهه ويعلمه شرائع الاسلام . وطاف الشريف الادريسى فى الأندلس وشمال افريقيا وآسيا الصغرى وألف كتاب (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) بطلب من روجر الثانى ملك صقلية وقد انتهى من تأليف هذا الكتاب فى سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٤ م) وقد ظل هذا الكتاب مرجعا هاما يعتمد عليه فى الدراسة فى أوربا حتى القرن الثامن عشر .

وكانت خارطته العالمية الوحيدة حتى عصر النهضة ، وقد رسم فيها نهر النيل وهو ينبع من هضبة البحيرات الاستوائية التى لم يكتشفها الغربيون إلا فى القرن الماضى وكان الشائع أن النيل ينبع من الجنة ، ثم تلاه القزوينى صاحب كتاب عجائب المخلوقات وقام برحلة فى فرنسا وألمانيا وهولندة فى القرن السابع الهجرى (١٣ م) وألف كتابا سماه (آثار البلاد فى أخبار العباد) ويقول بعض المؤرخين : إن كرستوف كولومب قد اصطحب جغرافيا غربيا فى رحلته لاكتشاف الهند الغربية وكذلك فعل فاسكودى جاما حين دار حول أفريقيا .

وأسهم المسلمون فى وضع أصول البحث العلمى وقواعد التنقيب وعلى رأس واضعى هذه الأصول ابن الهيثم الذى يقول : إن الحقيقة وليدة الملاحظة والتجربة وقد كانت أصول البحث العلمى التى وضعها العرب أساس النهضة العلمية فى أوربا الحديثة . وكان للعرب باع كبير فى الطب والكيمياء والطبيعة .

أنشئت المستشفيات وجهزت بالمخابر والأدوات والآلات وكان الأطباء والكيماويون يقومون بدراسات تنظيمية على أيدى أساتذة ماهرين كابن سينا والرازى وابن زهر وابن رشد وغيرهم ممن ترجمت كتبهم إلى اللاتينية مرات عديدة وبقيت مؤلفاتهم المرجع الرئيسى لجامعات أوربا حتى القرن السابع عشر الميلادى .

وفى جامعة السربون التى أنشئت فى القرن الثالث عشر الميلادى نشأت مدرسة فلسفية تنتسب إلى ابن رشد وتعتبر نظريات أرسطو كما أولها وشرحها ابن رشد علما قائما بذاته .

وليس هذا فقط فقد وضع علماء المسلمين قواعد التجربة لعلوم الطبيعة وقواعد المنطق والمحاكمات الفلسفية . ولقد نتج عن ذلك الازدهار العلمى العظيم الذى أثار إعجاب أوربا فأخذت تترجم الكتب العربية منذ القرن الحادى عشر الميلادى . وراح علماؤها يتسابقون إلى جنوبى ايطاليا وصقليه وأسبانيا لدراسة اللغة العربية والاطلاع على مؤلفات العرب .

ليس من شك أن هذه الوثبة الحضارية الكبرى كان الدافع إليها الإسلام الذى حض على التفكير وطلب العلم ودعا إلى البحث والتنقيب

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ ﴾ (١٩١ من سورة آل عمران)

وقد سخر الله للإنسان الكون وأقدره على استخراج أسراره ٠

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (٢٠ من سورة لقمان)

ومن أسلوب القرآن فى الحث على التفكير وطلب العلم أقسم الله ببعض المخلوقات ذات الشأن فى الحياة

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ ﴾

(١ ـ ٨ سورة الشمس)

وليس من شك أن التفكير فى هذه المخلوقات لاينتج إلا بالعلم ٠

نشاط العرب البحري

يرجع النشاط البحرى للعرب إلى القرنين السابع والثانى عشر قبل الميلاد فقد كانت للدولة (المعينية) باليمن سفن تجارية تجوب البحار وخاصة المحيط الهندى ٠ كان مركزهم التجارى ممتازا بالمحيط الهندى لايقل رواجا عن مركز الفينيقيين فى البحر الأبيض المتوسط ٠ ولقد حدثتنا مؤلفات القدامى أمثال (استرابون) و (بطليموس) وغيرهم عن مدى ماكان للملاحين العرب من نفوذ وسلطان فى البحار المحيطة بهم ٠ وكانت مدينة الشحر ميناء هاما تلتقى فيه السفن التجارية القادمة من الهند وفارس ومصر محملة بالسلع الثمينة ٠

وذكر (نيارك) الذى أرسله الاسكندر المقدونى للطواف فى بحر الهند أن للعرب صلات وثيقة بسواحل جنوب آسيا حتى أن بعض الموانىء الهندية كانت تطلق عليها أسماء عربية ٠ وأثبتت الروايات المتواترة ، والنصوص القديمة أن جموعا من العرب قدمت إلى جزيرة مدغشقر واتخذتها موطنا لها كلما أقامت دولة دامت حينا من الدهر ثم اندمجت فى أهل الجزيرة وقد بقيت ملامحهم وطباعهم وبعض كلمات من لغتهم القديمة ٠

وقد ألف (السيد عمر) كتابا بالسواحلية وهو من سكان جزيرة (فومور) الواقعة على مقربة من مدغشقر ذكر فيها أن لدى بعض أهالى مدغشقر عرباً يعتزون بأنسابهم

العربية وفدوا على الجزيرة قبل الإسلام وهاجروا إليها بأسرهم وعبيدهم وتبعهم أقوام آخرون ممن كانوا مستعمرين لشواطىء زنجبار ٠

تطور الملاحة عند العرب

لقد دفعت الفتوح الإسلامية الحكومات الإسلامية لصناعة السفن وتنظيم الأساطيل وتطوير المعارف البحرية ، فأخذ الرواد البحريون يوجهون جهودهم البحرية الجبارة نحو التجارة والضرب فى شتى الآفاق بحثا عن السلع واكتشاف موانىء وأسواق جديدة تتوفر فيها السلع الأكثر ربحا وأكثر جودة ورواجا ٠ وكان من نتائج ذلك أن تضاعفت ثقافتهم البحرية واتسعت مداركهم فى فن الملاحة ٠ استطاعوا أن يتعرفوا على مواطن الهلاك فى ظلمات البحار ويحكموا تحديدها ويحذروا غيرهم منها ٠ اكتشفوا أسلم المسالك والموانىء التى تعاملوا معها ، وربطوا بين الظواهر الفلكية والطبيعية وفق تجاربهم ومشاهداتهم فى تلك البحار ٠ وليس هذا فقط بل صححوا المعلومات القديمة التى لاتنطبق على الحقائق البحرية المستقيمة عندما شاهدوا مايثبت بطلانها ٠

لقد اكتفى الملاحون العرب بتداول تلك المعارف وتوارثها وتبادلها للانتفاع بها شفاهة ، ولما دعت الحاجة إلى دراسة فن الملاحة ألف بعض الربابنة كتبا على جانب من البساطة والسذاجة ولكنها عامرة بالحقائق البحرية الصادقة ٠ ولعل أبا القاسم بن خرذابة أول من ألف دليلا للمسافرين يصف فيه الطريق البحرى من مصب دجلة حتى موانىء الصين ٠

ومن الكتب البحرية الهامة التى شاع تداولها فى ذلك العصر مؤلفات محمد بن شادان ، وسهل بن أبان ، وأحمد بن طروبة وخواشير بن يوسف الأركى وسليمان المهدى ٠

وأشهر من كتب فى فن الملاحة هو الربان أحمد بن ماجد النجدى الذى عاش فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وترك مؤلفات فى فن الملاحة قيمة منها (الفوائد فى علم البحر والقواعد) ويشمل معلومات قيمة عن تاريخ الملاحة فى الخليج العربى والمحيط الهندى وشواطىء الجزيرة العربية والسواحل الشرقية لأفريقيا وجزائر سرنديب وبورنيو وسومطره وغيرها ٠

وعلى ضوء معارف العرب البحرية بدأ علماء الجغرافية يعيدون النظر فى الخرائط التى توارثوها فصححوا موقع الجزيرة وانحناءات الشواطىء ورسموا خطوط الطول والعرض ٠

وقد وضع الشريف الإدريسى للملك روجر الصقلى خريطة للأرض على هيئة كرة ، وكان ذلك فى أواسط القرن السادس الهجرى ٠

وكذلك رسم شمس الدين بن الوردى المتوفى فى أواسط القرن التاسع خريطة على جانب من الدقة أظهر فيها الأرض على شكل دائرة ٠

وإذا كان للعرب الفضل فى إحياء نظريات جغرافية فلكية قديمة فإليهم يرجع الفضل فى اكتشاف حقائق لم يسبقهم إليها أحد ٠ فهم الذين حققوا الاعتدال الشمسى وعينوا مدة السنة تعيينا دقيقا ٠ يقول (سيديو) : إن رسائل الفونس العاشر القشتالى الفلكية تثبت بما لايحتمل الشك سبق العلماء العرب (كبلر) و (كوبيرنكس) فى اكتشاف حركات الكواكب السيارة على شكل بيضى ٠

الإبرة المغناطيسية

والعرب عرفوا خواص الإبرة المغناطيسية واستخدموها فى أسفارهم لتحديد الجهات قبل الثانى عشر للميلاد ٠ ليس صحيحا ماينسبه البعض من أن (فلافيوجيوجا) الإيطالى اخترع البوصلة عام ١٣٢٠ ميلادية ، والحقيقة أنه ابتكر طريقة تعليق البوصلة وتثبيت الإبرة فى لوحة بينما كان الشرقيون يكتفون بتعليقها وتثبيتها فى عمودين متقاطعين ، ثم يضعونها فى حوض به ماء ويجنبونها أثر الرياح ٠

قال (دوزى) ٠ إن الملاحين العرب استخدموا السمكة (الإبرة) الممغنطة وكانوا يسمونها (قرميط) نسبة إلى سمك القرموط ، وقرر أن هذه الكلمة وردت فى شعر عربى يرجع إلى سنة ٨٥٤ ميلادية ، وقد أخذ الأسبان هذا الاختراع عن العرب وسموه (كالانيدا) كما سماه البرتغاليون (كالانيتا) ٠

جاء فى كتاب (كنز التجار فى معرفة الأحجار) صحيفة ٦٨ لبيلق القيجاقى الذى توجد منه نسخة فى مكتبة باريس « جاء أن رؤساء بحر الشام إذا أظلم عليهم الجو ليلا ولم يروا من النجوم مايهتدون به على تحديد الجهات الأربع يأخذون إناء مملوءا بالماء ويحترزون عليه من الريح بإنزاله إلى بطن السفينة ثم يأخذون إبرة وينفذونها فى جسم ويلقونها فى الماء الذى بالإناء المعد لها فتطفو على وجه الماء ويحركون أيديهم دورة إلى اليمين فعندها

تدور الإبرة على صفحة الماء ثم يرفعون أيديهم على غفلة وسرعة فإن الإبرة تستقبل بجهتيها جهة الجنوب والشمال •

ليس من شك أن (كريستوفر كولومب) قد أفاد إلى حد بعيد بمؤلفات العرب وخاصة ماجاء بكتاب (صورة الأرض) وبما أثارته قصة الشباب العربى الثمانية الذين أنشأوا سفينة فى لشبونة حملوها بالماء والزاد واقتحموا بها المحيط الاطلسى نحو الغرب ، ثم اتجهوا بها نحو الجنوب حتى بلغوا أرضا مسكونة عادوا يصفونها بعد شهور ويقصون عنها الأعاجيب • وقد كان لهذه المغامرة هزة عظيمة فى أوربا وكان من رأى العلامة (دانزاك) أنهم وصلوا بلا شك إلى جزائر (ماديرا) كما رأى آخرون إنهم وصلوا إلى بعض جزر (برمودة) وساحل المكسيك •

اتسعت اكتشافات العرب البحرية بعد ذلك ووصلوا إلى جزائر لم يصل إليها قبلهم أحد من البشر ، وأقاموا جاليات عربية فى شتى الموانىء التى حلوا بها ، ونقلوا إليها دينهم وحضارتهم وصاروا خير رسل لبلادهم فيها •

فقد وجدت فى الصين وثائق تثبت وصول النشاط التجارى العربى إلى مرافئها منذ القرن الثامن الميلادى ، وكان أولئك التجار المغامرون يفدون إلى بلاط الإمبراطور لتحيته ولتقديم بعض الهدايا والنفائس إليه • ولقد توطدت العلاقات بين العرب والصين وقد بدأ الإسلام ينتشر فى تلك البقاع فى سهولة وبساطة ، وعندما قامت ثورة ٧٥٥ م استنجد الإمبراطور بالخليفة وطلب حمايته من الثوار •

وفى عهد أسرة (سونج) بين ٩٦٠ ـ ١٢٧٠ م) كان يتوارث رئاسة الجمارك مسلمون من العرب وقد استدعى الإمبراطور (كوبلاى) العلماء العرب ليستفيد من ثقافتهم وخبراتهم الواسعة •

وورد فى رحلة ابن بطوطة أن بعض وكلاء السفن الصينية فى موانىء آسيا كانوا من العرب •

وعلى لسان سائح عربى وهو التاجر سليمان ورد ذكر الشاى لأول مرة ولهذا التاجر العربى مؤلفات عن رحلاته البحرية طبعت فى باريس سنة ١٨٤٥ م باللغة الفرنسية ترجمها (رينو) ونشرها تحت عنوان (أخبار قديمة من الهند والصين أوردها اثنان من المسلمين الرحالة فى القرن التاسع الميلادى) وقد ذكر السائح أن إمبراطور الصين يحتفظ لنفسه بالدخل الناتج من نبات يشربونه مع الماء الساخن ويسمونه (ساخ) أى شاى •

وابن بطوطة كشف فى رحلته عما كان للجاليات العربية فى شواطىء الهند من امتيازات قضائية وإدارية وكانوا لايخضعون فى معاملاتهم لغير أحكام الشرع الإسلامى ، وكان لكل جالية رئيس يشرف على شؤون ابناء جنسه .

ويقول (بلاشير) : إن الاكتشافات العربية قد امتدت شرق الصين حتى بلغت شواطىء اليابان .

وكانت شواطىء أفريقيا الشرقية مقصدا لطوائف المهاجرين من اليمن وحضرموت ومسقط وقد أسسوا دولتى مقديشو وممبسا دامتا ردحا من الزمن ثم انهارتا وانساح بعض أولئك المهاجرين فى أفريقيا كما قصد آخرون إلى جزيرة مدغشقر وأقاموا فيها . وقد عثر أحد رجال الآثار الإنجليز سنة ١٩٠٣ م على قبر عربى فى شمال روديسيا عليه كتابة بخط عربى حميرى يثبت أن ذلك المغامر يدعى سلام وأنه توفى سنة ٩٥ هجرية (٧١٤ م) . وفى جزائر الفليبين كشفت رحلة (ماجلان) عن نفوذ العرب هناك ، وقد كان لبعضهم منزلة سامية لدى الملك (هومابون) .

ومنذ أكثر من سبعمائة عام اندفع كثير من التجار العرب من حضرموت يقتحمون جزائر اندونيسيا تجارا ودعاة وقد ملكوا زمام التجارة وكان لهم عشرات السفن التجارية تشق بحر جاوى . واستطاعوا بجهودهم المتواضعة أن يقضوا على الوثنية وينشروا راية الإسلام وقد ساعدهم على ذلك طهارة قلوب الاندونيسيين واستعدادهم لقبول دعوة الإسلام .

ولاتزال هناك فى جزائر أندونيسيا وخاصة فى جزيرة جاوى جالية كبيرة منهم لايقل تعدادها عن مائة ألف نسمة تحتفظ بلغتها العربية وتقاليدها الأصيلة .



حضارة الغرب

بلغ الغرب الذروة فى الرقى والحضارة ، فانطلاق العقل فى آفاق الكون ينقب ويدرس ويكشف الغطاء عن نواميسه وأسراره أدى إلى تسخير الإنسان الحديث لهذا الكون وإلى اختراع أمور تكاد تكون خارقة ، كما أدى إلى استثمار طاقات مختلفة من حرارة وبرودة وكهرباء وحركة وضوء • أجل أدى ذلك إلى توسيع نطاق الصناعة ، إلى اختراع الآلة وتفجير الذرة ، وابتكار القنبلة الهيدروجينية وغيرها من القنابل الجهنمية وإرسال الصواريخ والأقمار الصناعية لغزو الفضاء الكونى وأخيرا وصل الإنسان إلى القمر وسار على سطحه بقدميه •

وتفجير القنبلة الذرية على عظم خطره وهول أثره ليس المظهر الوحيد لانطلاق الطاقات فى عصرنا الحاضر فالحياة البشرية فى شتى الجوانب تتفجر • وهانحن نرى انبثاق قدرات عجيبة رهيبة تنبىء بمستقبل يختلف جوهريا عما عرفناه فى الماضى والحاضر •

إن هذه الفتوحات العلمية الكبرى والابتكارات الرائعة تحتل لاريب المكان الأسمى فى التاريخ ولكن دعونا نتساءل هنا هل هذه الحضارة التى يحمل الغرب مشعلها اليوم قامت على أساس ارتقاء كل جوانب الحياة الانسانية أم على ارتقاء البعض دون الآخر ؟ هل هى مغانم خالصة من المغارم ، وكمال منزه عن النقصان • ليست حضارة الغرب خيرا كلها ولا مغانم كلها ففيها السمين والغث ، والنافع والضار ، والصالح والطالح • فيها ما يتوافق مع ديننا وتقاليدنا ، وفيها ما يتناسب مع ملهماتنا ومنابعنا وروحنا وعاداتنا ، وما يعرقل ما نتوخاه من التكامل والانسجام ، وفيها ما يضعف فينا التضامن والتماسك تجاه الطامعين والكائدين من أبناء الغرب • هناك فى حضارة الغرب ثغرات أربع :ـ

الثغرة الأولى هى : أنها آمنت بالعلم إيمانا لاحدود له وقطعت جميع الوشائج التى تربط بين الإنسان وخالقه عز وجل وأصبحت الآلة هى كل شىء • تحطمت أمامها شخصية

الإنسان وأصبح هو أقرب إلى الآلة توجهه الصحف والإذاعة ووسائل الإعلان المختلفة ٠

وضعفت روابط الأفراد بالأسرة والحى والمدينة وحل محلها روابط جديدة تعتمد على مصالح وهوايات كرابطة الحزب السياسى والنقابة والنادى الرياضى والجمعيات الأدبية وما إلى ذلك ٠

والآلة وما أدراك ما الآلة لقد أتت على ما تبقى من ماء الينبوع فأنضبته ٠٠ أفقدتهم أعز ما يملكون وأغلى مايباهون به ، أعنى المحبة ٠ وجهتهم إلى حياة مريرة وجو ما حل قاحل من العواطف والانفعالات ٠

الثغرة الثانية هى : تعصيب الاوربى الأبيض على الرغم من الشعارات الحديثة التى يلوح بها الغربيون بأن الإنسان أخو الإنسان بقطع النظر عن جنسه ولونه ودينه ٠

الثغرة الثالثة هى : تسخير الإنسان لخدمة الاوربى وهذا المبدأ كان من الدوافع الأساسية للحربين العالميتين فقد وزعت تلك الدول المتحاربة الغنائم فيا بينها بعد أن وضعت الحرب أوزارها وفتحت لها أسواقا لتصريف منتجاتها ووضعت تحت تصرفها مواد أولية وطاقات بشرية هائلة ٠

الثغرة الرابعة هى : الاستغراق فى الإباحية الخلقية والاستهتار بالمثل العليا والتحلل من كل التقاليد والتكاليف واستحلال كل وسيلة فى سبيل الغاية ٠ الأمر الذى أخذ يضج منه علماء الغرب ومفكروه ويرون فيه خطرا جسيا وشرا مستطيرا ٠

يقول برتراند رسل : « إن عناصر الحياة ثلاثة الغريزة والعقل والروح وأن هذه الحضارة الحديثة قد اهتمت بالعنصرين الأولين وهما الغريزة والعقل ولكن لم تهتم مطلقا بالروح ٠٠ إن العقل يرينا أن من الخير أن نفعل كذا ولكن عنصر الروح وحده يمكننا من أن نشعر شعورا إنسانيا عاطفيا قلبيا وأن نحس باحساس الآخرين ٠ فالعقل والغريزة لايحلان المشكلة ولابد من انسجام العناصر الثلاثة الغريزة والعقل والروح وتنميتها تنمية قائمة على الانسجام حتى تسير الحضارة على طريقها السوى » ٠

ويرى الدوس هكسلى أن أكثر شعوب الأرض بدلا من أن تقترب نحو المثل الأعلى تتباعد عنه بسرعة وهو يرى أن التقدم الحقيقى هو التقدم فى الخير والإحسان وأن ما يقابل به الرأى العام فى القرن العشرين من أخبار الوحشية والتقتيل والصور والأفلام الممثلة لذلك هو شاهد على أن هذه الحضارة لم تكتمل ٠ ويقول هكسلى : إن الفضيلة والخير لايمكن أن ينموا ويعما إذا لم تكن النظرة العامة السائدة قائمة على التوحيد ، إذا لم يكن

ثمة عقيدة يكون فيها البشر عباداالله • ويقول : إن السنين الخمسين الأخيرة تمثل تقهقرا كبيرا للتوحيد واتجاها نحو الوثنية • لقد انصرف الناس عن عبادة إله واحد لعبادة آلهة موضعية كالطبقة الاجتماعية أو الفرد أو الأمة • إن عصرنا إذا قسناه بمقياس الرقى الوحيد وجدناه فى تأخر واضح فإن تقدم الآليات سريع ولكنه دون تقدم الخير ، غير مفيد بل أقبح من ذلك انه يقدم أدوات ووسائل ناجحة ولكن للتأخر •

وذكر الفيلسوف برجسون : « إن البشرية قد استكملت أدواتها خلال القرن الأخير بأحسن مما عملت خلال ألوف السنين الغابرة ولكن روحها أقول : الروح الفردية والروح الاجتماعية لما تكتسب شيئا من القوة تمكنها من حكم الجسد هذا الجسد ازداد سعة وحجما بصورة مباغتة • إنما على علومنا العلوم الأخلاقية يقع عبء الرسالة رسالة إعادة الاتزان » •

أما اندره جيد وكان الرئيس الفخرى للهيئات الشيوعية فى فرنسا فيقول بعد زيارته لروسيا : « أبرز الناس فى السلم الاجتماعى من أعلاه إلى أسفله هم أكثرهم عبودية وأدناهم نفسا وأشدهم انحناء • وأما الذين ترتفع جباههم فيحصدون أو ينفون واحدا بعد واحد » •

وجملة القول : إن أسس الحضارة الغربية تتطور نحو مستقبل مجهول باعتبار أن القيم المعنوية التى تؤلف مضمون هذه الحضارة تحطمت وذابت إلى التحليل والتجزىء وإعراضها عن البناء •

إننا اليوم نجابه الحضارة الغربية بمظاهرها المختلفة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية وليس من شك فى أن الغرب يثير إعجابنا لأنه اقتحم أسرار الكون وسخر اليابسة والمحيطات والأجواء لمصالحه الاقتصادية ونقل الصوت والصورة بسرعة البرق إلى أى مكان من الأرض وفجر الذرة وصعد إلى السماء حتى هبط على سطح القمر •

ومما يؤسف له أن بعض بيئاتنا وأفرادنا فى الشرق أخذوا يدعون إلى الاستغراب • إلى تحبيذ واحتذاء كل ما عليه الغرب من مظاهر مدنية واجتماعية ووسائل وأساليب دون قيد ولا شرط • وليس من شك أن ذلك يرجع إلى ضعف الوازع الدينى وناموس تقليد الأقوى وإلى الدعايات والإغراء والمدارس الأجنبية التى يلتحق بها كثير من الأبناء والبنات •

الواجب الدينى يملى علينا التفريق بين الغث والسمين والطالح والصالح ومن الحكمة عدم

الاندفاع مع الريح كيفما هبت • الواجب القومى يدعونا إلى الاحتفاظ بطابعنا فيما لنا من تقاليد وعادات وثقافة وأدب وفن وخلق وسجايا ، المروءة والغيرة والنجدة ، وتقاليد الضيافة والجوار ، وروابط الأسرة والحياء ، وقوامة الرجل على البيت ، ومـا إلى ذلك من مكارم الأخلاق ومحامد الفعال •

أما مسائل اللباس والطعام والشراب والأثاث فهى أممية ولم يعد لها طابع قومـى خالص ، فلسنا نرى بأسا فى اقتباس ماليس فيه مغيرة للحظورات الدينية •

إننا فى الواقع لم نستورد من الغرب إلا الوسائل الفنية ولكن الفكر العلمى الذى أنشأ تلك الوسائل الفنية وصدرت عنه لم نتمثله بعد • فنحن الشرقيين باستثناء اليابان والصين لم نسهم إلى الآن فى استقصاء البحث العلمى الذى هو قائم على قدم وساق فى جميع بلاد الغرب ، ولم تتوفر لدينا الإمكانيات الفكرية التى تحملنا على اقتحام الطبيعة واكتشاف أسرارها •

مع أن الإسلام يزكى العقل وكفاحه فى مجالات النظر والبحث ، ويطمئن إلى النتائج التى يصل إليها فى تلك المجالات لأنها جميعا تتجه إلى غاية واحدة هى الوصول إلى الحقيقة الكبرى والتعرف إلى الخلاّق العظيم الذى أحسن كل شىء خلقه • والطريق إلى الله هو العقل وكلما ارتقى العقل واتسعت آفاق نظراته كلما وضحت للإنسان معالم الطريق وتكشفت له الحقيقة الكبرى فأمتلأ بها صدره يقينا واطمئنانا •

قلنا : إننا لم نستورد من الغرب إلا وسائله الفنية ولكن لم نتحل بالأخلاق الاجتماعية التى تلائم الحضارة الفنية المستوردة ، لقد أفدنا مثلا من الوسائل الحديثة فى نقل البضاعة والأشخاص من قطارات وسيارات وطائرات وقد بلغت السيارات فى مدننا الكبرى حدا كبيرا من الكثافة • ولكى يفيد الناس من السيارات العمومية الكبيرة (الباصات) لم يكن بد من إحداث محطات فى الشوارع يتجمعون فيها ولـكى يصعـد هؤلاء النـاس السيارات الكبرى كان لزاما عليهم أن ينتظموا فى صفوف وأن ينتظر كل منهم دوره فنحن لدينا السيارات الكبرى ولدينا المحطات ولكن ليس لدينا الانتظام •

إنه يجب علينا حين نريد تقليد الغرب أن نؤمن بأن ثمة قيماً إنسانية لابد أن نتسلح بها لتكون لنا درعا واقية من طغيان المادة وتقينا ويلاتها •

ربما خطر فى الذهن أن حل أزمة الحضارة الحديثة يتمثل فى إحياء المغازل اليدوية وإيداع الاختراعات كلها فى متحف • هذا لاشك حل رجعى ، حل مردود لايقبله كل من

لديه مثقال ذرة من العقل • إنه لاحل لعلاج المثالب الحضارية الراهنة إلا بفلسفة روحية قيمة فلسفة تجعل الأخلاق الفاضلة هى الهدف وتعمل بصدق وإخلاص على تحويل الرقى المادى إلى رقى خلقى •

إننا اليوم نجتاز مرحلة انتقالية على جانب عظيم من الخطورة إننا نقف فى مفترق الطريق القديم والحديث فقد أخذنا بالعلم الحديث وأخذنا بالآلة وتنظيم الجيوش وتجهيزها بالأسلحة الحديثة •

أخذنا بالعلم فى ميدان التربية والتعليم وفى التنظيم الاجتماعى والتخطيط الاقتصادى •• اقتبسنا من الغرب ومن حضارة الغرب شيئا كثيرا ولانزال نقتبس •

إننا اليوم نعيش فى عصر الذرة فمن واجبنا المحتوم أن نساير ركب الحضارة ولكن رسالتنا الحقيقية ليست رسالة تحضير بقدر ماهى رسالة تمدين •• إنها رسالة نهضة أخلاقية ، رسالة إيمان وجهاد • إيمان بتقدم الإنسان وقدرته على الرقى فى ميادين العلم والفكر والأخلاق ، جهاد فى سبيل الحفاظ على القيم الإنسانية ، جهاد فى تحويل الحضارة إلى مدنية وإخضاع الوسيلة إلى هدف وتسخير الطبيعة والتصنيع والإصلاح لخدمة الأخلاق العالية والقيم السامية ، لخدمة الإنسان فى كل زمان وفى كل مكان •

لقد تناولنا موضوع الحضارة الحديثة وتحدثنا عن مساوئها وحسناتها أليس فيها ثغرات لم تسد بعد ، وجوانب مهدومة لم يتقدم أحد لبنائها وانحرافات شائعة لم يتصد انسان لازالتها ؟

الإسلام يأمرنا بالقيام بالدعوة إلى الهدى والإرشاد وإصلاح مافسد من أمور البشر وتقويم ما اعوج •• ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ فالإسلام نظام عالمى يوجه الإنسان فى الحياة ويسانده على أن يحصل لنفسه وللجماعة الإنسانية أسمى درجة من الكمال الإنسانى فى الروح والخلق والعقل ، وينظم علاقته بربه وعلاقته بأخيه الانسان فى كل مظاهر الحياة لأنه قانون الفرد والمجتمع والعلاقات المحلية والدولية على السواء •

إن التقدم العلمى يكاد يتجاوز بنا العهد الأرضى إلى عهد كونى جديد ومع ذلك فإن الإنسان المعاصر لايزال أبعد مايكون من القدرة الروحية والخلقية الكفيلة بتسخير كل إمكانيات التقدم العلمى لخير الإنسان •

إننا مدعوون اليوم أكثر مما كنا فى أى وقت مضى لأن نستدرك هذا التخلف بحيث نقدم للإنسانية من جديد علماء تقترن أحدث النظريات والاكتشافات العلمية بأسمائهم ، وأنا على يقين بأننا سنفعل ذلك لخيرنا ولخير الإنسانية •

اننا لانريد من هذا الحديث الحط من قدرة الحضارة الغربية ومن مكانة علمائها الأفذاذ ولكنى أمقت أولئك الذين يحملون على حضارة الغرب قائلين إنها شر كلها • لانؤيد اولئك الذين يؤمنون بأنها خير كلها ويريدون تقليد الغرب فى كل مظاهره ووسائله وأساليبه دون قيد ولاشرط ففى حضارة الغرب محامد ومثالب •

إنما القصد من حديثنا هذا أن نعرض على القارىء مايمكن أن نفيده من علوم الغرب وفنونه لنتمكن من النهوض والمساهمة فى بناء البشرية على أساس قواعد متينة ونلحق بركب الحضارة الحديثة •

الأسرة في نظر الإسلام

اهتم الإسلام بالأسرة كل الاهتمام وجعل الزواج أساس هذه الأسرة التى هى لبنة فى صرح المجتمع المتكافىء ولقد ذكر القرآن الكريم أحكام الأسرة تفصيلا من وقت تكوينها بعقد الزواج إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا إلى أن يقرر التفريق بالموت أو الطلاق •

والزواج عقد بين طرفين يتم بواسطة أى شخص بحضور شاهدين وهو فرض على المسلم القادر فمن تركه أو تثاقل عنه فهو آثم ، أما غير القادرين فكان الرسول عليه الصلاة والسلام يخاطبهم بقوله : (**يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة ـ مؤن الزواج ـ فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**) أى إضعاف للرغبة فى العملية الجنسية •

وما كان الإسلام بدعا فى الدعوة إلى الزواج فهو وصية كل نبى ودعوة كل رسول وهو طبيعة الحياة والوسيلة الوحيدة لبقاء النوع ، فالحياة لاتنمو وتظهر فى الوجود بجنس واحد حتى يقاسمه فيها الجنس الآخر ويعملا معا قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ (الرعد الآية ٣٨) ـ والزواج شطر الدين به تحفظ الحرمات وتتحكم بين الناس الصلات وتوضع الدعائم القوية لتواصل الحياة سيرها فى تفاهم وانسجام ، والذين يعرضون عن الزواج مؤثرين الانطلاق وإرخاء العنان لشهواتهم فارين

من مؤن الزوجية ومسؤولياتها إنما يقيمون الدليل على انحرافهم عن الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وليس هذا فقط بل هم يقيمون الدليل على خفة دينهم وضعف رجولتهم ٠

يقول الشيخ محمود شلتوت فى كتابه (الإسلام عقيدة وشريعة صفحة ١٣١) : (وما الزواج فى واقعه إلا ظاهرة من ظواهر التنظيم الفطرى أودعت فى الإنسان كما أودعت فى غيره من أنواع الحيوان ولولا الزواج الذى هو تنظيم لتلك الفطرة المشتركة بين الإنسان والحيوان لتساوى الإنسان مع غيره من أنواع الحيوان فى سبيل تلبية هذه الفطرة عن طريق الفوضى والشيوع ، وعندئذ لايكون الإنسان ذلك المخلوق الذى سواه الله ونفخ فيه من روحه ثم منحه العقل والتفكير وفضله على كثير من خلقه واستخلفه فى الأرض وسخر له عوالم كونه ثم هيأ له مبادىء الروابط السامية التى يرتفع بها من حضيض الحيوانية البحتة وتدعوه إلى التعاون مع بنى نوعه فى عمارة الكون وتدبير المصالح وتبادل المنافع) ٠

فالحياة الزوجية فى الإسلام تقوم على أساس المودة والرحمة بين الزوجين وتنشئة الأولاد ولقد وصف الله سبحانه وتعالى العلاقة بين الزوجين بقوله : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ كما أشار سبحانه وتعالى إلى تنشئة الأولاد على الرحمة والتآلف فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١ ﴾ (النساء الآية ١) ٠

والزواج فى الإسلام شركة روحية لاصفقة تجارية لذلك يسر الرسول ﷺ إجراءاته كل التيسير ومنع المباهاة فقال : « **إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه الا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض** » (الترمذى جـ ٢٠١٩١/)

ولقد كانت أخلاق الرسول هى الأخلاق التى قدمه بها عمه أبوطالب فى حفل زواجه من خديجة ٠

قال ابوطالب : (الحمدلله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وإسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا وجعلنا القوام على الناس ثم أن محمد بن عبدالله بن أخى لايوزن به فتى من قريش إلا جمع به ، برا وفضلا وكرما وعقلا وفخرا ونبلا وإن كان فى المال أقل فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك بما فرضتم من الصداق فعلى) قال رجل للحسن : يخطب ابنتى الكثيرون فممن أزوجها ؟

فقال (زوجها ممن يتقى الله فإنه إن أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها)

وخطب عبدالملك بن مروان لابنه الوليد ـ حين ولاه ولاية العهد ـ ابنة سعيدابن المسيب فضن بها عليه وآثر بها تلميذه الفقير أباوداعة لتقواه ·

لقد كان الناس فيما مضى لايرعون إلا الفضل والمروءة فيمن يختارون لبناتهم ولايطعمون فى المال ولايتطاولون لغير ذات الدين التى تغالى بكريم أخلاقها وجميل صفاتها أكثر مما تغالى بجمالها ذلك لأن الأخلاق السامية أصون لشرف المرأة وأحفظ لأمانات الزواج مما يخلب الأبصار من جمال مصنوع أو مطبوع · مر ذات ليلة عمر بن الخطاب بسوق الليل بالمدينة فرأى امرأة تبيع اللبن ومعها بنت لها شابة وقد هَمَّت العجوز أن تخلط لبنها بالماء وجعلت الشابة تقول : ياامة لاتعذقيه ـ لاتخلطيه ـ ولاتغشيه فوقف عليها عمر فقال : من هذه منك ؟ قالت ابنتى فأمر ابنه عاصم فتزوجها بعد أن قال لأولاده (من يتزوج منكم فتاة لو كان لى فى النساء أرب ماسبقنى أحدكم إليها) هكذا تزوج عاصم ابن أمير المؤمنين بنت بائعة لبن ·

الكفاءة في النكاح

الإسلام دين عدل ومساواة لادين تقسيم ومحاباة وأحكامه عامة غير مسبوقة ولا ملحوقة مدار العبادات فيه على تزكية النفس وتحليتها بالفضائل ومدار المعاملات على درء المفاسد وجلب المنافع وليس لأحد أن يخص طائفة دون أخرى بأحكام شرعية فأبناء المسلمين وغيرهم من الناس سواء فى أحكامها ، لم يثبت فى اعتبار الكفاءة بالنسب حديث وما أخرجه البزاز من حديث معاذ (العرب بعضهم أكفاء بعض والموالى بعضهم أكفاء بعض) فإسناده ضعيف · هكذا قال الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى إنما الكفاءة الثابتة فى السنة خاصة بالدين والحرية والأخلاق واليسار ، وهذا ما كان عليه أكثر أهل الصدر الأول ·

قضايا رسول الله وأصحابه في النكاح

وهناك أمثلة من قضايا النبى ﷺ وقضايا أصحابه ·

أولا : زوج النبى ﷺ زينب بنت جحش بنت عمته أمية بنت عبدالمطلب من زيد

بن حارثة مولاه وكانت قد استنكفت من ذلك فانزل الله فيها وفى أخيها قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ .

ثانيا : زوج النبى ﷺ زيد بن حارثة المذكور بعد طلاقه لزينب من أم كلثوم بنت عقبه بن أبى معيط التى وهبت نفسها للنبى فانزله رسول الله فى منزله نفسه فى زواجها وهى قرشية .

ثالثا : زوج رسول الله ﷺ فاطمة بنت قيس القرشية بأسامة بن زيد كما فى صحيح مسلم وقدمه رسول الله على معاوية بن أبى سفيان وعلى أبى جهم وكان زيد مولى وفقيرا لامال له .

رابعا : زوج النبى ﷺ ابنته رقيه وأم كلثوم من عثمان بن عفان على التعاقب وهو رضى الله عنه غير هاشمى .

خامسا : زوج على بن أبى طالب رضى الله عنه ابنته أم كلثوم من عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو غير هاشمى .

سادسا : زوج عبدالرحمن بن عوف أخته من بلال الحبشى .

سابعا : زوج أبوحذيفة بن عتبه بن ربيعه القرشى سالما من بنت أخيه هند بنت الوليد بن عتبه القرشى وكان سالم هذا مولى لأمرأة من الأنصار .

ثامنا : فى سنن الترمذى عن النبى ﷺ أنه قال : « **إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فانكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ، قالوا يارسول الله وإن كان فيه مافيه فقال : إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فانكحوه (ثلاث مرات)** » .

هذه قضايا رسول الله سيف المرسلين وإمام المصلحين محمد عليه الصلاة والسلام وقضايا أصحابه الأعلام نقدمها لمن يريد أن يتبعها

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ .

ومن يريد أن يجعل رأيه أو رأى أحد من الناس فوق حكم الله وحكم رسوله فإنا براء منه ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾
﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

القصد في المهور

أوجب الإسلام المهر على الرجل لا المرأة لأن كل الواجبات المالية على عاتق الزوج فهو الذى يدفع المهر وهو الذى يقوم بتكاليف الزوجية من مسكن وغذاء وكساء حتى ولو كانت الزوجة غنية وذلك لكيلا تبتذل المرأة فى كسب المال وتشقى ولكى تتجه باهتمامها وعنايتها نحو تربية أولادها وتدبير المنزل ، ولتتمكن من القيام بواجباتها نحو نفسها ونحو زوجها ولقد حث النبى ﷺ على عدم المغالاة فى المهور فليست البنات سلعا يغالى لها فى الثمن ولكنها جواهر كريمة يبتغى لها الآباء من يصونها ويرعاها ويحفظ كرامتها .

والرسول ﷺ يقول : « **التمس ولو خاتما من حديد** » ويقول : « **تزوجها على سورة كذا وعلى آية كذا من القرآن** » (فتح البارى جـ٧ ص١٥٠) والمهر فى الحقيقة رمز يعبر به الرجل عن رغبته فى المرأة وإعزازه لإنسانيتها .

ورضا البنت فى الزواج أمر لابد منه فى إقامة حياة زوجية يسودها الوفاق والمحبة والإخلاص والوفاء جاءت امرأة إلى النبى ﷺ فقالت : إن أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسته فقال : أجيزى (نفذى) ماصنع أبوك فقالت : إنى لا أرضاه فجعل الرسول الأمر إليها فقالت : فقد أجزت ماصنع أبى ولكنى أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شىء . وليس من شك أن هذا لايمنع تدخل الآباء حين تسىء المرأة الاختيار .

وقال ابن القيم : (إن البكر البالغة الرشيدة لايتصرف أبوها فى أقل شىء من ملكها إلا برضاها ولايجبرها على إخراج اليسير منه إلا بإذنها فكيف يجوز أن يخرج نفسها بغير رضاها ؟)

ومعلوم أن إخراج مالها كله بغير رضاها أسهل عليها من تزويجها بمن لاتختاره .

والإسلام بين من يحل الزواج منهن ومن لايحل . قال تعالى :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ

سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ الَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ الرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ الَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ الَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ * وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ النِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَٰتِ الْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ الْمُؤْمِنَٰتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَٰتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢٢ ـ ٢٦ النساء) .

قوامة الرجال

تقع على عواتق الرجال مهام كثيرة وتبعات مختلفة فهم المسؤولون عن القيام بما تتطلبه الأسرة من غذاء وكساء ومسكن لذلك جعلهم الله قوامين على النساء قال تعالى :

﴿ الرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى النِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ .

ولاشك أن هذا التفضيل لاينقص من قدر المرأة ولايمس كرامتها ، وإنما يقرر ضرورة المسؤولية التى تفرضها الحياة فى كل شركة تقوم بين أفراد ، والزوجية شركة روحية بين الرجل والمرأة أساسها التراحم والتعاون والإخلاص والوئام .

والإسلام حين قرر حق المرأة على زوجها قرر حقه عليها فى آية واحدة قال تعالى :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (البقرة ٢٢٨)

وهذا العدل تؤكده الآيات التالية ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ (النحل ٩٧) و ﴿ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ (ال عمران ١٩٥)

أما حقوق المرأة على زوجها فقد فصلتها السنة : قال معاوية بن حيدة رضى الله عنه قلت يارسول الله : ماحق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : أن تطعمها إذا طعمت وتكسيها إذا أكتسيت ولاتضرب الوجه ولاتقبح ولاتهجر إلا فى البيت ٠

وقال النبى ﷺ فى خطبة الوداع بعد ان حمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ : « **الا واستوصوا بالنساء خيرا ، فانهم عوان أسيرات عندكم ليس تملكون منهم شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح فإن اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إلا إن لكم على نسائكم حقا ولنسائكم حقا فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون وألا يأذن فى بيوتكم لمن تكرهون ٠ الا وحقهن عليكم أن تحسنوا اليهن فى كسوتهن وطعامهن** » ٠

وفى باب الترغيب فى النفقة على الزوجة والعيال قال رسول الله ﷺ : « **دينار نفقة فى سبيل الله ودينار انفقته فى رقبة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار انفقته على أهلك أعظمها اجرا الذى انفقته على أهلك** »

لقد أوجب الاسلام النفقة للمرأة على الرجل وأوجب عليها فى مقابل ذلك طاعتها له ، فإذا نشزت وتركت بيت الزوجية باذنه بغير وجه شرعى فإن ذلك يسقط نفقتها حتى تنزل على أمر الزوج وتلتزم طاعته ، فطاعة الزوجه لزوجها واجبة ولكنها لاتجبر على طاعته فيما كان غير مباح شرعا وذلك كارتكاب الفواحش واقتراف المنكرات ، أو ترك فرائض الدين وفيما كان تعديا على حقوقها الشرعية كارغامها على إعطائه مالها أو على التبرع به ٠

تكريم الإسلام للمرأة

لقد رفع القرآن من شأن المرأة الى درجة لم تكن تحلم به من قبل ، أجل حرص الاسلام على استقلال شخصية المرأة فمنحها حرية التملك والتصرف فى مالها لا سلطان

لزوج ولا أب عليها فى شؤونها المالية الخاصة تبيع وتشترى وتؤجر وتستأجر وتتصرف سائر التصرفات التى تحتاج الى الأهلية الكاملة فى المعاملات وهذا الحق لم تصل إليه المرأة الغربية حتى اليوم .

يقول الاستاذ سيد قطب فى كتابه صفحة ٥٥ (وحسب الاسلام ما كفل للمرأة من مساواة دينية ومن مساواة فى التملك والكسب وما حقق لها من ضمانات فى الزواج باذنها أو رضاها دون اكراه ولا اهمال وفى مهرها ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ (٢٤ النساء) وفى سائر حقوقها الزوجية زوجة أو مطلقة ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾ (٢٣١ البقرة) ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (١٩ النساء) .

مسؤوليات الرجل والمرأة

تتجلى مسؤولية الرجل والمرأة فى الحديث الشريف الذى ورد فى صحيح البخارى (جـ ص ١٤٥) « **والرجل راع فى أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسؤولة عن رعيتها الا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته** »

والحديث الذى أورده المنذرى (جـ ٣ ص٦٥) ان الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته فالرجل والمرأة مسؤولان عن سعادة الزوجية وهناء البيت فيجب أن يعملا على بقائه سليما قويا وأن يذودا أسباب وهنه والإضرار به وما أتاهما جهد ولاسبيل إلى ذلك الا أن يعرف كلاهما دوره فى هذه الغاية السامية وأن يؤديا الواجبات باخلاص وصدق ووفاء .

على كل الزوجين ان يذكرا (الميثاق الغليظ) الذى أوثقهما الله به والغبطة الواسعة التى أثارها الاختيار والاصهار ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (١٨٧ البقرة) يقول النبى ﷺ : « **خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى** »

وهذا الحديث يدل على أن الفضل إنما يظهر فى معاملة الاهل لافى السخاء فى الولائم وفى الاصدقاء وفى مجالس اللهو ، والإسلام يمقت كل المقت أن يقتر الرجل على أهله ويسىء عشرة زوجته ، الإسلام يوجب الرفق بالمرأة واحترام مشاعرها .

لقد كان الرسول ﷺ يلاعب عائشة ويسابقها ، قالت عائشة رضى الله عنها (وكان

لى صواحب يلعبن معى وكان الرسول ﷺ إذا دخل ينقمعن (يتخفين) فيسربهن إلى ليلعبن معى) (نيل الأوطار جـ ٦ ص٢٠٦) جاء فى مسلم (المجلد الثانى حديث أن عمر بن الخطاب قال : (والله إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم فبينا أنا فى أمر ائتمره إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا فقلت لها : ومالك أنت ولما هممنا ، وما تكلفك فى أمر أريده ، فقالت : عجبا لك يابن الخطاب ما تريد أن تراجع أنت ؟ وان ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان . فاخذت ردائى ثم انطلقت حتى أدخل على حفصة فقلت لها : أى بنية ، إنك لتراجعين رسول الله حتى يظل يومه غضبان ؟ قالت : والله إنا لنراجعه ثم خرجت ودخلت على أم سلمه لقرابتى منها فكلمتها فقالت : عجبا لك يابن الخطاب قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه ، فاتخذتنى أخذا كسرتنى به عن بعض ما كنت أجد .

وصايا القرآن للأزواج

يتعكر الجو أحيانا فى سماء الأسرة ويدب خلاف بين الزوجين فيسود الفتور بينهما وتسوء العلاقة ويبلغ الأمر بالمرأة درجة النفور من الزوج إلى درجة النشوز وقد يتحكم الشقاق بينهما على السواء والاسلام يقدم لهذه الحالات طرقا للعلاج :

أولا : أمر الاسلام الازواج بالعدل وحسن المودة والعشرة الطيبة المقرونه بالعطف والحنان ، قال تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ (٢٣١ البقرة)

ثانيا : أمر القرآن كلا الزوجين أن يعمل على اصلاح الآخر إن بدا منه اعوجاج عن الطريق السوى ، قال تعالى :

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا

بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾

(النساء من ١٢٧ : ١٣٠)

ثالثا : أمر القرآن بعلاج نشوز المرأة فقال تعالى :

﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ (٣٤ سورة النساء)

أجل وعظ يذكر المرأة بالميثاق الغليظ الذى بينها وبين زوجها وبذلك العهد الجميل الذى كانت فيه لباسا له كما كان لباسا لها وبما ينتظر من الاولاد ان كانوا من تشرد وضياع (فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) يقول الشوكانى (فاذا اكتفى بالتهديد ونحوه كان افضل ومهما أمكن الوصول إلى الغرض بالايهام ، لايعدل الى الفعل لما فى ذلك من النفره المضادةلحسن العشرة المطلوبة فى الزوجية الا اذا كان فى أمر يتعلق بمعصية الله وقد أخرج النسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت (ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة له ولا خادما قط ولا ضرب بيده شيئا قط الا فى سبيل الله أو تنتهك محارم الله فينتقم الله ، وفى الصحيحين : (لايجلد أحدكم أمرأته جلد العبد ثم يجامعها آخر اليوم) (نيل الاوطار جـ ٦ ص٢١١)

رابعا : أمر سبحانه فى القرآن اخراج حكمين اذا كان الشقاق قائما بين الزوجين ويخشى استمراره فقال تعالى :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (النساء ٣٥)

ويلاحظ ان الحكمة فى تحديد صلة الحكمين بالزوجين هو حصر الخلاف وأسبابه فى نطاق السرية حتى لايسمع المولعون باذكاء نار الفرقة بين الناس والجدير بالذكر ان الحكمين لابد ان يكونا من أهل الاصلاح ليكون لمساعيهما فى الصلح أثر بارز .

يقول الشيخ محمد أبوزهرة أستاذ الشريعة فى كلية الحقوق بالقاهرة : (وإذا كان للرجل حق التأديب بالوعظ والهجر وغيرهما فإن للمرأة الحق أيضا فيما قرره الامام مالك رضى الله عنه إذ يقول ذلك الامام الجليل : إن المرأة إذا اشتكت من زوجها انه يسيىء إليها فى عشرتها لها أن ترفع الأمر إلى القاضى فيعظه ويلومه فإن لم يجد ذلك أمر لها

بالنفقة ولم يأمرها بالطاعة أمدا معقولا يراه ، وبهذا أجاز لها أن تهجره إذا نشزكما جاز له أن يهجرها إذا نشزت فإن لم يجد ذلك كان التفريق لا محالة ان طلبته ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ الاسلام اليوم وغدا ص٢٣١

توطيد دعائم الأسرة

الإسلام ينظر إلى الأسرة كدعامة البناء الاجتماعى يضعف بضعفها ويقوى بقوتها ولاغرو فهذا الدين جاء لإقامة مجتمع فاضل تسوده المحبة والمودة والولاء ومن أجل ذلك كانت عنايته بأحكام الأسرة عظيمة ذكر الله أحكامها تفصيلا من وقت تكوينها بعقد الزواج إلى أن يقرر سبحانه وتعالى التفريق بالطلاق أو الموت وفى سبيل تدعيم الأسرة وصيانتها ورعايتها ورفع مستواها جعل المرأة قوامة على البيت تنيره وتديره وتعنى كل العناية بتربية أطفالها ورعايتهم وعلى الرجل أن يكافح ويعمل لينفق على الأسرة ويوفر لهم الرزق ، والذين يبالغون فى اعطاء المرأة حقوقا لاتقتضيها فطرتها باسم (تطور الزمان) إنما يحاولون أن يقلبوا الأمور ويضعوها فى غير موضعها هؤلاء يحسبون أنهم يسيرون بالأسرة إلى الامام وهم يرجعون إلى الوراء حيث تفسد الطبائع وتخالف الفطرة التى فطر الله الرجل والمرأة عليها ان أولئك الذين خدع أبصارهم الوهج الزائف يجهلون أن الإسلام منح المرء من الحقوق منذ أربعة عشر قرنا مالم تمنحها اياه أوربا حتى اليوم ٠

حق العمل وحق الكسب ولكنه أبقى لها حق الرعاية فى الأسرة فالحياة فى نظر الاسلام أكبر من المادة أكبر من المال انه ينظر إلى الحياة من جوانبها المتعددة ويرى لافرادها وظائف مختلفة ، انه يوجب على كل من الرجل والمرأة أن يؤدى وظيفته لتوطيد دعائم الأسرة ويفرض لكل منهما الحقوق الضامنه لتكوين اسرة فاضلة سامية يسودها التعاطف والتناسق والتضامن وترفرف فى أرجائها الطمأنينة والسعادة ٠

وكيف تجد السعادة مأوى فى بيت تشتغل صاحبته على الآلة الكاتبة فى مصرف أو متجر معظم ساعات النهار وتعود إلى البيت لتنام ومن ذا الذى يقوم بتدبير المنزل ورعاية الأطفال ٠

يقول الاستاذ سيد قطب : (ان نكول الرجال عن اعانة المرأة واضطرارها إلى أن تعمل مثله وفى دائرته لتعيش فالشيوعية بهذا هى التكملة الحقيقية لروح العرب المادية الفاقدة للأريحية وللمعانى الروحية فى حياة البشرية)

ومحافظة على كيان الأسرة وتماسكها وترابطها وتضامنها وأوقاتها على دعائم من المودة والرحمة ورعاية القوى للضعيف وإكرام الصغير للكبير أمر القرآن الكريم الأولاد بإكرام الوالدين والإحسان إليهما ولو كانا كافرين ولذلك نرى أن الأمر بالإحسان إلى الوالدين يقترن بالأمر بعبادة الله وحده قال تعالى :

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (٣٦ النساء)

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾
(الاسراء ٢٣)

وكما أوجب الإسلام إكرام الوالدين والإحسان إليهما حث على العناية باليتامى والعطف عليهم والإحسان إليهم ، ونهى عن قهرهم وإذلال نفوسهم ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ (الضحى ٩) لكيلا ينطووا على أنفسهم وينفروا من الاندماج فى الأمة فيكون منهم المشردون والعابثون بالامن •

عنى الإسلام باليتامى فأمر المؤمنين أن يضموهم إلى أسرهم ويعاملوهم كما يعاملون أولادهم حتى لايشعروا بذل اليتيم قال تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ (البقرة ٢٢٠)

ولقد عنى الاسلام بالمحافظة على أموال اليتامى فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (الانعام ١٥٢)

﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ (النساء ٢)

ومن يلق نظرة فاحصة على الكفارات يجد فيها معنى العبادة وفيها إصلاح وفيها تعاون اجتماعى إنسانى فكفارة القتل الخطأ أوجب الله الدية تعويضا لأسرة المقتول وهى تجب على أسرة الجانى لأسرة المجنى عليه وفى هذا لاشك معنى التعاون الاجتماعى بين الأسرة فى دفع المشقة ودفع الاذى •

الأرحام

لقد جاء الإسلام منظما العلاقة بين جميع أفراد الأسرة سواء منهم أفراد الأسرة القاصرة وهم : الزوجان وأولادهما وأفراد الاسرة الممتدة وهم جميع ذوى القربى من أصول وفروع فقد حث القرآن الكريم على مراعاة الرحم والعطف عليهم والتعاون معهم على البر والتقوى قال تعالى :

﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (الأنفال ٧٥)

جعل من أقرب القربات إليه تعالى اعطاء ذوى القرابة

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ (البقرة ١٧٧) .

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ .

ولقد أوجب الله للفقير العاجز عن الكسب نفقة على قريبه الغنى قال تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) ﴾ (النور ٦١) .

لاشك ان رعاية اولى الارحام وذوى القربى والتوسعة عليهم هو عصام الأسرة من التفكك والتلاشى والانحلال ولقد شق الله للرحم اسما من اسميه (الرحمن الرحيم) ومن رحمته التى وسعت كل شىء فى هذه الحياة .

الميراث

والميراث يشد عرى الاسرة ويقوى الصله بين أفرادها ، يدنى الاقارب بعضهم من

بعض وينمى فى قلوبهم المحبة والتعاون على الخير ولقد تولى القرآن الكريم بيان الميراث بالتفصيل قال تعالى :

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَـٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ (النساء ١١ ـ ١٤)

لقد بين القرآن الكريم فى هذه الآيات ميراث الأولاد والأبوين والزوجين وميراث أولاد الام فالكلالة هنا أولاد الام وهناك كلالة أخرى وهى الإخوة والأخوات الشقيقات أولا قال تعالى :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾ (النساء ١٧٦) .

هكذا تولى القرآن أحكام الميراث التفصيلى وبين ما يستغلق على بعض الافهام ولم يترك مجالا للتلاعب بأحكام القرآن وأبرز ما يلاحظ على ذلك التوزيع العادل أن القرآن

جعل للنساء ميراثا ولم يكن العرب فى عصر ما قبل الإسلام يعطون النساء ميراثا كانت المرأة تعد جزءا من ميراث أبيها أو زوجها ·

وحين مات أوس بن ثابت عن زوجته وثلاث بنات أبى عليهم أهله شيئا من ميراثه فجاءت أم كحه زوج أوس إلى رسول الله ﷺ تشكو إليه أمر قومها فطلب إليها أن تنتظر ما يوحى الله فنزل قوله تعالى :

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾ ·

ويلاحظ على التوزيع انه فى سبيل تكريم الامومة جعل لأولاد الام ـ بوصف انهم كلاله ميراثا لايقل عن السدس ولا يزيد على الثلث ، ويلاحظ أيضا فى الميراث مقدار الحاجة وحاجة الرجل أشد من الأنثى · تكليفات الرجل الماليه أكثر من تكليفات المرأة ، الأنثى لاتدفع مهرا حين تتزوج كما يدفع الرجل ولا تلزمها نفقة على زوج أو ولد ولايوجب الإسلام عليها الإسهام فى إعداد بيتها بل يلزم ذلك كله الرجل ·

لذلك فرق الإسلام بين الذكر والأنثى فى الميراث فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ (النساء ١١)

يقول الاستاذ سيد قطب فى كتابه : (العدالة الاجتماعية ص ٥٤) (فاما للرجل ضعف المرأة فى الميراث فمرده إلى النفقة التى يضطلع بها الرجل فى الحياة فهو يتزوج امرأة يكلف إعالتها وإعالة أبنائها وبقاء الأسرة كله هو مكلف به فمن حقه أن يكون له حظ الأنثيين لهذا السبب وحده بينما هى مكفولة الرزق إن تزوجت بما يعولها الرجل ومكفولة الرزق إن ترملت بما ورثت من مال والمسألة هنا مسألة تفاوت فى النفقة اقتضى تفاوتا فى الارث)

ومن المقررات الشرعية أن الميراث يدخل ملكية الوارث فى الثلثين بغير إرادة المورث أما الثلث الاخر فيكون للوصية ، والوصية واجبة للفقراء الأقارب غير الوارثين

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ ﴾ (البقرة ١٨٠ ـ ١٨١)

وجاء ذكر الوالدين فى الآية لأنهما قد يكونان غير وارثين لاختلاف الدين وإذا كان نصيب الوالدين قليلا اتضح الزيادة عليه وكذلك الأمر فى الأقربين من الورثة إن كان نصيب أحدهم ضئيلا جاز زيادته بالوصية من الثلث •

وأجاز العلماء التدخل فى الوصية إذا كان فيها ظلم للورثه أو كان فيها إثم كالوصية لحانة من حانات الخمر أو لنادٍ للميسر أو الوصية لعشيقة ففى هذه الحال يجوز حلا للإصلاح تحويل الوصية إلى خير

﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾ (البقرة ١٨٢)

هكذا نجد الميراث فى الإسلام يتوزع ولايتجمع فالتجمع فى وارث واحد يكون فيه لاشك ظلم للباقين من الورثة والاقربين ، لقد جعل الإسلام الميراث يدخل ملكية الوارث فى الثلثين جبرا وجعله اختيارا للوارث فى الثلث وقد وضحنا ذلك آنفا ويجب ايفاء الديون قبل تقسيم التركة •

إن نظام الإرث فى الإسلام نظام عادل غير مسبوق ولا ملحوق ولقد تضافرت أقوال علماء القانون فى الغرب الذين اطلعوا على الشريعة الإسلامية إن أعدل نظام للتوريث هو الذى جاء به القرآن الكريم •

تعدد الزوجات

لم يبتدع الإسلام تعدد الزوجات فقد كان معروفا منذ عصور واغلة فى القدم ففى شريعة الهندوس كان للبرهمى أن يتخذ ثلاث زوجات وللكشتريا زوجتان وللفشيا واحدة ، وينص فقهاء الهندوس وعلى رأسهم أبا سطمبا أن ليس للزوج ان يتخذ زوجة أخرى إذا كانت زوجته راغبة وقادرة على القيام بنصيبها فى الواجبات الدينية وكانت تلد أبناء ، أما إذا كانت تنقصها إحدى هاتين الصفتين فله أن يتخذ أخرى ويقول فقيهم كوتيلعا : (إذا كانت الزوجة عاقرا فعلى الزوج أن ينتظر ثمانى سنين وإذا كانت تلد سقطا فعليه أن ينتظر عشر سنين وإذا كانت تلد إناثا فحسب ، فعليه أن ينتظر إثنتى عشرة سنة وعندئذ إذا كان راغبا فى الحصول على أبناء فله أن يتزوج من أخرى) •

في الصين القديمة

لم يكن من الجائز للرجل فى الصين القديمة أن يتزوج أكثر من مرة واحدة ولكن من الجائز أن يتخذ من السرارى ما يشاء ، وإذا اتخذ زوجة ثانية عد مرتكبا لجريمة وكان يعاقب هو وزوجته الجديدة وكان يعاقب أولئك الذين عانوه فى إتمام هذا الزواج ، والعقوبة كانت الحبس مدة سنة فى عهدى تانج وسونج وفى عهدى منج وشتج كان الرجل يجلد تسعين جلدة وكانت المرأة تعاد إلى والديها ويلغى الزواج ٠

عند الأثينيين والروم

تحظر شريعة الأثينيين والروم الجمع بين زوجتين وإذا اتخذ الرجل زوجة ثانية كان هذا الزواج باطلا ومع ذلك فقد اعتبر عقد الزواج الثانى تطليقا منه لزوجته السابقة ، ففى ذات الوقت الذى ينعقد فيه الزواج الثانى ينحل الأول ، ولذلك ساد لدى الروم مبدأ حرية الطلاق وخاصة فى عصرهم الذهبى ، ولكن الأباطرة أصدروا تشريعات جديدة تنص على تحريم تعدد الزوجات فقد حرم الأمبراطور دقلد يانوس فى ٢٨٥ م على الجميع بما فى ذلك الشعوب الخاضعة لسلطان الروم حرم ممارسة تعدد الزوجات ولكن اليهود لم يخضعوا لذلك الأمر فقد ظلوا يمارسونه حتى اضطر الأمبراطور تيود وزيوس فى ٢٩٣ م إلى أن يعلن صراحة اعتراضه على ممارستهم إياه ٠

الجدير بالذكر أن من يلق نظرة على تعاليم السيد المسيح يجدها تخلو من كل إشارة إلى تحريم تعدد الزوجات وفى تعاليم بولس اتجاه صريح لاقتصار الرجل على المرأة الواحدة فقد جاء فى رسالته إلى أهل أفسس : (من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسدا واحدا) ٠

وفى رسالته لأهل كورنثوس : (وأما من جهة الأمور التى كتبتم عنها فحسن للرجل ألا يمس امرأة ولكن بسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته ولكل واحدة رجلها ، وبعد فترة من الزمن أصدر مجمع ترنت قرارا بتحريم تعدد الزوجات وتكفير كل من يخالف ذلك ٠

في قانون حمورابي

أجاز قانون حمورابى للرجل أن يتخذ زوجة ثانية إذا مرضت زوجته الأولى مرضا

مزمنا وترك للزوجة المريضة حق الاختيار عند اتخاذ زوجها ثانية بين الاستمرار فى الحياة معه وبين الانفصال عنه ، ويبيح قانون حمورابى اتخاذ زوجة ثانية إذا كانت زوجته الأولى عاقرا أو كانت تكثر من الخروج للعمل مهملة بذلك شؤون المنزل ·

عند اليهود

تبيح التوراة تعدد الزوجات دونما حد ، فسليمان كانت له سبعمائة امرأة وثلاثمائة حظية والتلمود يسمح للرجل أن يتخذ من الزوجات ما يشاء طالما هو قادر على الإعالة ونصح بعض حكمائهم بأنه لا ينبغى للرجل أن يتزوج بأكثر من أربع زوجات ·

فى الجاهلية

كان العرب فى عصر ما قبل الإسلام يتخذون من الزوجات ما يشتهون دونما قيد فغيلان الثقفى كانت له عشر من النسوة حتى أسلم وجاء الإسلام فوضع حدا أقصى بعدد الزوجات وهو أربع :

﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ (النساء ٣) ولقد رغب فى الاكتفاء بواحدة إذا خشى الرجل عدم القدرة على تحقيق العدل بين زوجاته

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ③ ﴾

أى لا تظلموا وتضاربت آراء الناس فى فهم هذا الذى نفاه الله سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ (النساء ١٢٩)

فقد فهمه البعض على المساواة الكاملة بين النساء وقالوا : إن الآية حظرت التعدد ·

وفهمه البعض الآخر فى ضوء ﴿ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ (النساء ١٢٩) على إباحة التعدد التى تؤيدها السنة قال النبى ﷺ : من تزوج اثنتين فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل والرسول عليه الصلاة والسلام إنما يريد العدل فى النفقة والسكن والقسم فى الليالى والمعاملة الحسنة أما غير ذلك خارج عن مقدور الرجل ، سئل النبى ﷺ عن حبه لعائشة أكثر من بقية نسائه فقال : « **اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك** » وهو ميل القلب ·

والإسلام إنما يستهدف فى إباحة تعدد الزوجات إلى توسيع مجال المصاهرة بين المسلمين وتقوية الصلات بينهم أولا والإكثار من النسل ثانيا وتكوين مجتمع فاضل لا تشيع فيه الفاحشة ثالثا ورعاية فطرة الرجل وحاجاته الجنسية رابعا ٠

وذلك حين لا تستطيع المرأة تلبيتها عندما تمرض مرضا قد يطول عهده بها ٠

الطلاق

قد يتعكر الجو فى سماء الأسرة وينشأ الخلاف بين الزوجين ويستحكم الشقاق بينهما والإسلام يقدم حلولا لهذه الحالات ولغيرها من المشاكل التى تسبب النشوز والإعراض فالطلاق ، أجل يأمرنا الإسلام بأن نعظ المرأة ونذكرها بالميثاق الغليظ الذى بينها وبين زوجها والغبطة التى أثرها الاختيار والاصهار وإذا لم ينفع الوعظ فالهجر فى المضاجع ثم الضرب الخفيف قال تعالى : ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

(النساء ٣٤)

والضرب لم يكن غرضا من أغراض الإسلام ولكنه كالدواء الكريه الذى يضطر إليه المريض ٠ يقول الشوكانى : (فإذا اكتفى بالتهديد ونحـوه كان أفضـل ومهما أمـكن الوصول إلى الغرض بالايهام لا يعدل إلى الفعل بما فى ذلك من النفرة المضادة لحسن العشرة المطلوبة فى الزوجية إلا إذا كان فى أمر يتعلق بمعصية الله وقد أخرج النسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت : (ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة له ولا خادما قط ولا ضرب شيئا قط إلا فى سبيل الله أو تنتهك محارم الله فينتقم الله) وفى الصحيحين (لايجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها آخر اليوم) (نيل الأوطار ج/٦ صفحة ٢١١) إذا لم ينفع الوعظ ولا الهجر ولا الضرب فقد أوجب الله على الأهل أن يتدخلوا للصلح قال تعالى :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (النساء ٣٥)

فإذا لم يجمع ذلك كله الشمل يكون الطلاق أمرا غير محظور لأن بقاء المباغضة والتنافر ليس فى صالح الأسرة ولا فى مصلحة المجتمع المتراحم ، الإسلام يحرص كل الحرص على

أن يحل الوفاق والوئام محل الشقاق والخلاف وأن تبذل كل الجهود فى إصلاح ذات البين فان ذهبت الجهود جفاء فان الإنهاء أولى من الابقاء لا مناص من الطلاق وهو أبغض الحلال إلى الله . قال تعالى : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ (النساء ١٣٠)

والطلاق يجب أن يكون باحسان فلا مشاحنة ولا معاندة قال تعالى :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ﴾ . (البقرة ٢٣١)

والإحسان فى الآية يشمل المتعة لكل مطلقة مدخول بها قال تعالى : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ ﴾ (البقرة ٢٤١) وقد أوجب ذلك الامامان الشافعى وأحمد ، ويلاحظ أن القرآن الكريم أوجب أن يكون الطلاق رجعياً ليكون للمطلق الحق فى أن يرجع زوجه إليه قبل انتهاء عدتها وهى ثلاث حيضات قال تعالى :

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾ . (البقرة ٢٢٨) .

ويقول تعالى فى ثبوت الرجعة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ (سورة الطلاق)

إن هذه الآيات لتدل على أن الطلاق لا يكون إلا رجعيا وان الاشهاد على الرجعة واجب لتكون المرأة على علم بذلك ويعلم الناس بالرجعة .

وتدل الآيات أيضا على أن تلك المرأة المطلقة طلاقا رجعيا لا تخرج من بيت الزوجية

ولا يخرجها منه والرجعة تثبت فى الطلاق الأول والثانى أما الثالث فلا رجعة فيه ·

والطلاق ثلاث مرات فإذا وقعت هذه الطلقات الثلاث بثلاث مرات فإنها لاتحل نه إلا بعد أن تتزوج زوجا غيره على نية البقاء لا على نية التوقيت ، ثم طلقت من بعد فإن لهما أن يتزوجا قال تعالى :

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾
(البقرة ٢٣٠) ·

إذا تم الافتراق بين الزوجين سواء كان الافتراق بالموت أو بالطلاق فلا بد من عدة وهى ثلاث حيضات قال تعالى : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ أى ثلاث حيضات ، وإذا كانت المرأة حاملا فالعدة تكون بوضع الحمل ، ورأى ابن عباس وعلى رضى الله عنهما أن تكون العدة للحامل بوضع الحمل بشرط مرور أربعة أشهر وعشرة أيام إعمالاً لقوله عز وجل :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ ·

وإذا بلغت المطلقة سن اليأس وغالبا يكون بعد سن الخامسة والخمسين من عمرها أو لم تر الحيض فعدتها تكون بثلاثة أشهر قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾
(الطلاق ٤)

ويلاحظ أن العدة إنما تكون لمن دخل بها قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ (الأحزاب ٤٩) ·

والمطلقة تبقى فى بيت الزوجية طوال مدة العدة ولا تخرج منه ولا يجوز إخراجها إلا إذا أتت بفاحشة ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾
(الطلاق ١) ·

وللمتوفى عنها زوجها أن تبقى فى بيت الزوجية الذى مات به الزوج حولا ولا يجوز

إخراجها ولها أن تخرج ولا شك أن فى ذلك لصيانة حرمة الزوج المتوفى قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) ﴾

ونفقة الزوجة تبقى فى العدة لكل معتدة قال تعالى :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾

(الطلاق ٧) ٠

المحلل

أجمع علماء الدين على اختلاف مذاهبهم على أنه إذا وقع الطلاق الثالث فقد بانت منه بينونة كبرى ولا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره نكاحاً لا يراعى فيه أى ارتباط نكاحاً على نية البقاء لا على نية التوقيت ، ولكن كثيرا من الناس من يلجأ إلى التحايل فيأتى بمحلل يصطنع زواجاً شكلياً يتجاوز مجرد العقد ثم يطلقها الرجل بعد ذلك بالإكراه مقابل مبلغ من المال ٠

وهذا اللون من الزواج يسمى فى بعض البلاد (التجحيش) ويسمى الرسولُ المحلل (التيس) المستعار قال عليه الصلاة والسلام : « **ألا أخبركم بالتيس المستعار ، قالوا : بلى يا رسول الله قال : هو المحلل ، لعن الله المحلل والمحلل له** » وقد اعتبرت المذاهب الإسلامية مثل هذا النكاح زنا يوجب فيه الحد من الرجم والجلد ٠

فليتق الله أولئك الذين يحللون ما حرمه الله ليتوصلوا إلى غرضهم المنشود ويقضوا وطرهم ويتمتعوا بما يشتهون ٠

تهجم على أحكام الأسرة

فى بعض البلاد الإسلامية ومن الشباب المثقفين وخاصة أولئك الذين عاشوا ردحاً من الزمن فى أوروبا ترتفع أصوات معترضة على تعدد الزوجات وقوامة الرجل على المرأة وإباحة الطلاق ، ولقد وصل بهم الإنكار لحقائق الإسلام أن تهجموا على نظام الميراث قالوا : إن هذا النظام ظلم المرأة إذا جعل نصيبها من التركة نصف ما للرجل ولو عقل

هؤلاء حكمة الله فيما شرع وفهموا حقائق هذا الدين لما ابتغوا بها حولا ، ولكنه الجهل بتعاليم الإسلام وتوجيهاته ، ويرددون ما يقوله بعض الغربيين من أن الإسلام أهان المرأة وجعلها ألعوبة فى يده يطلقها متى شاء ويتزوج عليها حين يريد ، ونحن نقول : لهؤلاء المعترضين على الطلاق وتعدد الزوجات وغير ذلك من شرائع الله أن يتركوا ما يردده أعداء الإسلام ويقوله الجهلة بحكمة الله فيما شرع ويهتدى بهدى القرآن الكريم ٠

إن الطلاق أبغض الحلال إلى الله ، الطلاق فى الإسلام دواء لاداء ، إنه علاج شاف لكثير من الأمراض الإجتماعية ٠

الإسلام وضع للطلاق شروطاً لا يقع معها على الناس إلا فى القليل ، وسورة الطلاق والأحاديث النبوية وكتب الفقه على اختلاف اتجاهاتها تجلو حكمة هذا الدين وتجعل الطلاق مفاخرة ، والإسلام لم يبح التعدد إلا عند الضرورة الشديدة واشترط العدل فى النفقة والسكن والقسم فى الليالى وهو يستهدف فى إباحة التعدد توسيع المصاهرة بين المسلمين وإكثار النسل ، والرجال معرضون للقتل فى الحروب فيقل عدد الرجال ويكثر ويتضاعف عدد النساء ، أفلا يكون من الخير أن يشرع الإسلام التعدد ؟ أم يدع الناس فرائس للذئاب البشرية ٠

إن تعدد الزوجات موجود فى معظم أنحاء العالم وسيظل موجودا أبد الآبدين مهما تشددت القوانين فى منعه ولكن الأمر المهم هو معرفة ما إذا كان من الأفضل للمجتمع أن يشرع هذا المبدأ ويحدد أم أن يظل نوعاً من النفار لاشىء يعترضه ويحد من جماحه ٠ ومن يتصل بالمجتمعات فى أوربا وأمريكا يجد أن التعدد أقل انتشاراً عند المسلمين منه لدى المسيحيين ، هذه حقيقة لا يرقى اليها الشك ، والغربيون أنفسهم يعترفون بهذا ٠ ان مبدأ التوحيد فى الزوجة هو المبدأ الآخذة به المسيحية ظاهرا تنطوى على نتائج شديدة الخطر تلك هى العوانس والدعارة والابناء غير الشرعيين ٠

القوامة

والقوامة ـ ما أقدر الرجال بها ـ لقد جعلها الله لهم على النساء نظير المهام الملقاة على عواتقهم

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾

والرجل هو الذى يكد ويكافح فى الحياة ليمد الأسرة بكل حاجتها ، فهذا التفضيل لا يغض من قدر المرأة وإنما يقرر ضرورة المسؤولية التى تفرضها الحياة ، والرجل بفطرته أقدر على مواجهة الظروف المختلفة التى تواجهها الأسرة وأقدر على الصمود أمام عواصف الحياة فإذا شذت القاعدة وصارت المرأة قوامة على الرجل فما أسرع ما يضطرب الأمر ويتصدع بناء الأسرة وتتداعى جدرانها للإنهيار ! أما التفرقة فى نصيب الذكر والأنثى فلذلك أسباب هامة ·

أولا : المرأة دائما فى كفالة ابيها أو من يقوم مقامه حتى تبلغ سن الرشد فتنفق من مالها إن كانت ذات مال وإلا لزمه الانفاق عليها ·

ثانيا : اذا تزوجت المرأة فنفقاتها على زوجها وإن كانت غنية ·

ثالثا : حتى تتزوج المرأة لا تدفع مهرا من نصيبها فى الميراث كما يدفع الرجل ·

رابعا : الرجل هو الذى يمد الأسرة بكل حاجاتها فهو المطالب باعداد البيت وتجهيزه وبنفقة الأولاد وإصلاح حالهم ·

فالمسألة هنا مسألة تفاوت فى النفقة اقتضى تفاوتا فى الإرث يقول الأستاذ عباس العقاد فى كتابه (المرأة فى القرآن صفحة ٧١) ومسوغ هذا التفاوت أن الأخ مسؤول عن نفقة أخته وان الابن يعول من لا عائل له من أهله وأن رب البيت هو الزوج أو الأب أو الرشيد من الأبناء والإخوة ومن إليهم وتقرير وجوب السعى على الرجل أولى وأصلح من تقرير على المرأة التى يظلمها من يسويها به فى واجبات السعى على المعاش مع زوجها بواجب الأمومة والحضانة وتدبير المعيشة المنزلية ·

اليس من العدل أن يكون حظ الرجل من الميراث أكبر من حظ المرأة ··

المرأة والعمل

منذ أكثر من قرن قام المصلحون فى الشرق العربى بالدعوة إلى تعليم المرأة ، ولقد حرص هؤلاء المصلحون على تأكيد فوائد التعليم وحصروها فى فائدتين رئيسيتين :

الاولى : ان العلم يساعد المرأة على القيام بمهمتها زوجا وأما ·

والثانية : ان العلم يؤمنها شر نوائب الدهر ونوازل الزمن ·

وهؤلاء المصلحون لم يكونوا الا كاشفين لوجه الحق ، فالعلم اول ماتبنى عليه

النهضات السليمة ، وهو بالنسبة للمرأة يجب ان يؤدى لها فى عالمها الذى تعيش فيه بين البيت والمجتمع أجل المساعدات ٠

لقد حفظت لنا المرأة المسلمة صورتها فى ميدان العلم والمعرفة منذ فجر الإسلام ، ولكن الذى يلفت النظر أن بعض هؤلاء المصلحين وفى مقدمتهم رفاعة الطهطاوى لايرون مانعا عند الاقتضاء ان تعمل المرأة عملا حرفيا يؤهلها إليه التعليم ، فالتعليم هو الأساس لنهضة المرأة والوسيلة إلى حمايتها من مزالق الحياة ٠

لقد أدرك هؤلاء المصلحون بثاقب افكارهم ان المرأة ـ وقد حماها الاسلام بتشريعه الأسمى وجعل أقرب اقربائها من الرجال مسؤولا عن إعالتها ـ اذا تغيرت الأحـوال الاقتصادية واجتاحت الضائقات المالية المجتمع وتعذر على الرجل ان ينفق على كل من كلفه الشرع باعالتهن فماذا يكون حال المجتمع الذى فيه طائفة من النساء لاتجد ما تسد به حاجتها من طعام ومأوى ؟

لقد حمل الإسلام الرجال الأقرباء عبء المرأة المحتاجة ، لأن الحاجة هنا قد تقود إلى الانحراف ، ومن المعلوم بالبداهة ان انحراف المرأة ليس كانحراف الرجل لأنه ليس خطرا عليها فحسب وانما هو خطر على المجتمع كله وعلى الأولاد الأبرياء ٠

من هنا كانت حماية الإسلام للمرأة مباشرة وقوية ، بأن كلف رجلا بعينه ليقوم بهذه الحماية وتلك الرعاية حتى لاتوجد فى المجتمع امرأة تضطرها الحاجة إلى الانحراف ٠

ونظرا لتغير الظروف الاقتصادية فى عصرنا هذا أصبح عمل المرأة أمرا طبيعيا فهى كعضو فى المجتمع لابد ان تعمل ، وقد يكون عملها فى البيت والمجتمع معا دون تفرقة بين البيت والحقل مثلا فى الريف أو الرعى فى البادية ٠

كان الهدف من تعليم المرأة تأمينها من الحاجة ، وكانت الوسيلة الى ذلك ان تتعلم ، وهذا الهدف ـ لاشك ـ طبيعى فطرى ، فالمرأة وهى الامينة على رسالة الحياة لها دور يجب ان يحاط بالامن والرعاية لتحسن القيام ولكن زمام الوسيلة أفلت منها فاختلط أمرها ، فبدل أن تتعلم المرأة لتتقن الرسالة التى من أجلها خلقت ، إذا بنا نرى اليوم تتعلم لتتقن عملا يؤمنها لتؤدى رسالتها السامية كيفما اتفق ، وإذا هذا العمل الذى كان وسيلة يصبح غاية أساسية فى التعليم ، ويأخذ من جهدها ووقتها ما كان يجب ان يبذل فى مهمتها الرئيسية ٠

كان التعليم وسيلة لاتقان امومة وطريق التأمين لتؤدى مهمة الأمومة على خير وجه ٠

فأصبح وسيلة للعمل ووسيلة لضمان عدم الحاجة ليس غير ٠

هكذا كان اختلاط الغاية والوسيلة ، وكان من مظاهر هذا الخلط ما نلمح من آثار فى نهضة المرأة ومن أوضاع فى حياتها لابد من أن نعمل على تغييرها ٠

إننا إذا ألقينا نظرة على تعليم المرأة اليوم نجد أن الفتاة إذا انتهت من مرحلتها الاعدادية تفتحت لها أبواب العلم الذى لايكاد يختلف عن تعليم الفتى إلا فى النادر القليل ، بل ان ابواب التعليم التى خصصت للفتاه إلى جانب التدبير المنزلى الهزيل تفتح على مدارس السكرتارية والاعداد المهنى التى أخذت تكثر تلبية لحاجة الفتاة الى العمل ، ولحاجة المجتمع ـ ولاشك ـ إلى هذه الألوان من العمل التى تتقنها المرأة كالتمريض والتدريس ٠

وهكذا لا بأس من هذا ، وليس هناك اعتراض من الناحية الدينية فطلب العلم واجب على كل مسلم ومسلمة ٠٠ الاسلام يحيى فى الفتاه الدأب والجهد الذى يجعلها تتقن بعض الأعمال اتقانا مشرفا ، ولكن اين فى تعليمنا هذا ماهو أخطر من كل هذه الأنواع من التعليم ؟ اين الرعاية بالطفل ؟ اين مبادىء علم الصحة للام والطفل ؟ اين علم النفس والتربية ؟ اين فنون إدارة المنزل من تنسيق وتنظيم ؟ اين الاقتصاد المنزلى ؟ اين خصائص الطعام وما يجب ان يراعى فيما يوفر للأسرة من طعام صحى ؟ اين فنون زخرفة البيت وإنماء الهوايات وانتشار المكتبات الصغيرة للطفل وللام ؟ اين كل هذا والفتاه فى أكثر من ٩٥٪ من الحالات ستقوم بهذه المهام جميعا بلا دراية ولا علم ؟ ان هذا هو العمل الذى ستمارسه حقا ، سواء عملت عملا حرفيا أم لم تعمل ، وان هذا هو الطريق الى السعادة والاستقرار ٠

اننا لانجد هنا فى برامج تعليم الفتاه ، حتى مدارس التدبير المنزلى نراها تعلم الخياطة مثلا ، لتؤهل للاحتراف أكثر مما تعلم شؤون المنزل لاتقان مهنة ربة البيت ٠

اننا لنؤمن كل الايمان بأن المرأة فى ظروف مجتمعنا لابد ان تعمل ٠٠ لابد من أن تشارك اشتراكا ايجابيا فى عملية البناء الجبارة التى تواجهنا ٠

لقد سبقتنا أمم الى اقامة دور حضانة للأطفال العاملات ، ونحن لانزال ننفر من هذه الدور ، ولعلنا محقون فى ذلك فقد أثبت الاحصاءات كثيرا من العيوب لهذا النظام أخذ يظهر فى هذا الجيل الوريث الذى نشأ فى دور الحضانة بعيدا عن حجور الامهات ، وهذا ما دعا بعض الولايات فى أمريكا مثلا ، أن تسن قانونا يفرض على كل بانٍ لعمارة سكنية ،

أن يفرد فيها مكاناً لحضانة أبناء العاملات ، حتى تكون الحضانة أقرب ما تكون من بيت الطفل ، لعل ذلك لاينتج ما تنتجه الحضانات البعيدة من التشتت الذهنى وآثاره الوخيمة على الطفل فى هذه السن ، تلك السن التى تحتاج أكثر ما تحتاج إليه الى عواطف الأم الدافئة والى شعور الأمن والاستقرار ، فلعل الطفل يشعر أنه مازال فى كل مكان أمه الحبيبة التى خرجت لتعلم من أجله ٠

هكذا نرى حالات شاذة تفضى الى أخرى ، ومشكلة تفضى إلى ثانية ، لقد أجبرت المرأة بالرغم من نعيمها النفسى فى البيت أجبرت على الخروج فقد اتسع هذا البيت فى عصرنا هذا ، فأصبح جزءا حيا من المجتمع ٠

لذلك كله نرى انه اذا كان لابد من ان تبذل الجهود فى سبيل ان تتقن المرأة عملها الحرفى ، لتشارك بما تتقن فى بناء مجتمع افضل ، فلابد فى الوقت نفسه من أن نفهم ان هذا المجتمع الأفضل ، إن هذه بيوت أفضل وجيل جديد أفضل ، وعلى ذلك فلابد من بذل الجهود الأهم والأكثر جدوى ، فى سبيل أن تبقى المرأة فى بيتها ما أمكن ، وان تتغلب معها على الضائقة الاقتصادية ، بحيث لايجور ذلك على عملها الأول فتهيىء لها مثلاً أنواعا من الأعمال المريحة فى بيتها تساهم بها فى بناء المجتمع بعد الكسب ٠

فى سويسرا طريقة مريحة وجميلة لتشغيل المرأة وهى فى بيتها ، تقوم هناك صناعة الساعات وهى أشهر صناعات سويسرا داخل البيوت المفردة ، ويشترك أفراد الأسرة فى بيوتهم طوال الشتاء فى عمل الساعات ، وهى مصدر رزق ومشاركة فى تجويد الصناعة ورفع اسم بلدهم فى عالم المهارة والاتقان ٠



الاسلام دين السلام

لو خيرنا اى انسان على سطح الارض بين الحرب والسلام لاختار طبعا السلام ذلك لان الحرب خراب ودمار وهلاك للانسان وللزرع والضرع والمدنية والحضارة ، والسلام سعادة وهدوء واطمئنان ورخاء وعمران وتقدم ورقى ، وما من حكيم أو فيلسوف أو مصلح إلا ذم الحرب وويلاتها ووصفها بالهمجية والوحشية ، ولم يمدح الحرب إلا أرباب المطامع والعدوان وهواة السيادة والسلطان ، وإذا كان القدامى مدحوا الحرب ، وتفاخروا بها فقد جاء الاسلام منذ أربعة عشر قرنا وهذب النفوس وجعل الحرب للدفاع عن النفس والمال والوطن ونصرة الحق والعدالة ومحاربة الفساد والشر والطغيان .

وللحرب الى جانب آثارها المادية آثار معنوية خفية أو سيكولوجية على حد تعبير علماء النفس هى اكثر عنفا من الآثار المادية وابعد مدى وأشد فتكا بالافراد والجماعات .

الآثار المادية قد تزول عاجلا بعد أن تضع الحرب اوزارها فى حين ان الاثار النفسية الخفية تقلق راحة الافراد وتصيبهم بشتى العلل العقلية والبدنية سنين عديدة كما أنها تذل الامم المغلوبة وتحط من كرامتها .

الحرب تخلف بعدها ألوانا من الجرائم كالقتل وهتك الاعراض والسرقة والسطو ليس فى الدولة المغلوبة فقط بل وفى الدول الغالبة ايضا .

ولقد ادركت الدول المتحاربة مدى الاضرار النفسية الخفية التى خلفتها الحرب العالمية الثانية فجندت كثيرا من علماء النفس لعلاج المصابين من الجنود والضباط والفت كتباً مثيرة اطلق عليها اسم (العصاب الحربى) (War Neuroses) وصدمة القنابل و (Shell Sock)

لقد هاجم (ليدل هارت) اكبر المفكرين العسكريين فى القرن العشرين هاجم الحرب قائلا : إن الآثار السيكولوجية للحرب العامة والحرب الذرية والهيدروجينية على الاخص

أشد فتكا ببنى الانسان ، من الخراب والدمار ، وهذا الفيلسوف الانجليزى برتراندرسل حمل على الحرب حملة شعواء ومما قاله : « لم يحدث ان كانت القنابل وسيلة لحماية الشعوب ، ولكنها كانت دائما وسيلة لهلاكها ، إننى أقول لكم وأكرر وسوف أكرر كلما سنحت لى الفرصة ان الرجل الذى يسمح لنفسه بأن يضغط على زر لكى يفنى شعبا أو يجلب الهلاك للملايين بمجرد حركة يقدم عليها هذا الرجل لايحق له أن يعيش بين البشر ·· يزعم بعض الناس ان تنازع البقاء هو العامل الوحيد لنشوب الحروب مستدلِّين بقول الله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (سورة الحج) ويقول تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (٢٥١ من سورة البقرة) ·

ليست الحرب طبيعية ، ليس تنازع البقاء المعروف بين البطون والاجسام هو الذى يثير الحروب وحده وانما هو الطمع والحقد والانانية والكراهية والرغبة فى السيادة والسلطان ، واما دفع الله الناس بعضهم ببعض فذلك يعنى أنه لولا أن الله تعالى يدفع اهل الباطل بأهل الحق وأهل الفساد بأهل الإصلاح لغلب أهل الباطل والافساد فى الارض وطغوا على الصالحين حتى تكون لهم السيادة والسلطان وحدهم لذلك كان من فضل الله تبارك وتعالى على البشر أن أذن لاهل دينه المصلحين بقتال المفسدين والبغاة المعتدين ·

الاسلام حرم الظلم والبغى والطغيان ليقضى على اسباب الحرب وأمر بالعدل والاحسان حتى مع من يبغضه ·

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ (سورة المائدة)

الاسلام دعا إلى اقرار السلام واستتباب الامن ·· دعا الى القضاء على النزاع المسلح ، قال تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾

ليس من شك أن هدف الإسلام هو نشر السلام على الأرض ، والسلام من أسماء الله الحسنى كما جاء فى الآية وهو تحية الاسلام فى الصلاة وفى الحياة العادية فحين تلقى أخاك الانسان تدعو له بأن يسلم من الآفات فتقول (السلام عليكم) ٠

والإسلام لم يعرف الحرب إلا لرد كيد المعتدين وردع الطغاة الظالمين وذلك واجب لحماية الدعوة ، قال تبارك وتعالى :

﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فإن رغب المعتدون فى السلم واختاروا المصالحة على الامان ملنا اليهم عملاً بقوله تعالى :

﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ (سورة الانفال)

ولم تكن معارك الفتوح الأولى فى الإسلام إلا ضد الظلم والشر والباطل وانتصارا للحرية والعدالة والخير والحق فكانت مضرب الامثال فى انسانيتها ووصاياها فى تطبيقها وحفظها للحقوق والحرمان ومعاركنا مع المغول والتتار لم تكن الا معارك بين معالم الحضارة ومؤسساتها قيمها الانسانية من جهة والهمجية من جهة أخرى ، ومعاركنا مع اوروبا قديما وحديثا هى من هذا النوع كذلك فمعاركنا مع اوروبا فى الحروب الصليبية هى معارك بين شعوب لاتزال الهمجية غالبة عليها لم يكن لها من المسيحية الا الرداء الظاهر والصبغة الخارجية ٠

ومعاركنا الجديدة معها سواء فى الحرب او فى السلم هى معارك مع وثنيتها الجديدة مع التمييز العنصرى والاستعلاء القومى ، أو مع مذاهبها المادية الشيوعية التى تطرد من الحياة الانسانية كل نسمة روحية دينية او عاطفية انسانية ولا تحسب الحساب الا للانتاج ووفرته وطريقة الازدواجية ، فالانسان فيها منتج ومستهلك فقط وليست عقائده وتقاليده وأخلاقه وآدابه وفنونه إلا خادماً للانتاج والاستهلاك ٠

وأما الصهيونية فهى جماع المذاهب المادية الماركسية اليهودية فى أقبح صورها ، واليهود قد عبدوا العجل الذهبى لأنه من ذهب ، من مادة ، عبدوه فى عهد موسى عليه السلام واستمروا ساجدين له حتى اليوم ، ان العالم اليوم يعيش فى جو مظلم من القلق والفزع انه يضطرب بين مخاوف الحرب الثالثة التى نرجو الا تقع وبين أمانى السلام التى يحلم بها البشر ويريد ان يتخلص من مطامع الساسة ورجال الحروب ويفوز بهدوء كامل وعمران دائم ، فإذا لم توفق الإنسانية الى منع الحرب وضمانة السلام لم يعد ثمة أمل بتقدم المدنية

والحضارة بل ببقائها ، ذلك أن الدمار الذى تحدثه وسائل الأسلحة الحديثة كفيل بالقضاء على منشآت هذه الحضارة ومعالمها وبالرجوع بالبشرية أو بمن سيبلى من أبنائها أجيالا متمادية الى الوراء ٠

إن الخروج من المآزق الرهيبة الحاضرة المحيطة بنا من كل جانب إلى ربوع الأمن والسلام رهين بتغلب العناصر الايجابية السليمة الموحدة فى التراث الانسانى على عناصره السلبية الفاسدة ٠

إنه مرتبط بدقة وعى الشعوب للقيم الأصيلة ومقدار تجسد هذه القيم فى حياتها ونهوضها للدفاع عنها ضد أخطار الشر والفساد ، إنه متعلق بمدى تحرر الانسان فردا ومجموعا ـ من أهوائه وأطماعه ـ إنه قائم على صدق وتقدير الانسانية لتراثها الحضارى الايجابى وما يمثله من فضائل وايمانها به ونضالها فى سبيل المحافظة عليه وانمائه وترقيته ٠ والسلام والاستقرار فى ذلك كله مسؤولية الجماعة عن الفرد ومسؤولية الفرد عن الجماعة ٠ انه يضع مبادئه السامية بين ايدى اصحاب القلوب الحية من رؤساء الأديان وزعماء الأمم وقادة الشعوب ويناشدهم خدمة الانسانية وانقاذاً لها من المخاوف والأهوال المحيطة بها من كل جانب ، أن يلبّوا دعوة الله فيرحموا هذه الانسانية ويعملوا بإخلاصٍ وجدٍّ ونشاطٍ على تنظيم البشرية حتى تتسم روح الهدوء والأمن والاطمئنان وتخفق راية الاستقرار والسلام ٠



قائمة المراجع

أولا - المراجع العربية

القرآن الكريم	
فى ظلال القرآن	لسيد قطب
المعجزة الكبرى	لمحمد أبو زهرة
الاسلام والسلام العالمى	لسيد قطب
الاسلام عقيدة وشريعة	لمحمودشلتوت
المجتمع الاسلامى	للدكتور شكرى فيصل
مع الله	للدكتور أحمد زكى
تاريخ ابن الأثير	
تاريخ الاسلام السياسى	للدكتور حسن ابراهيم
حياة محمد	للدكتور حسين هيكل
ضحى الاسلام	أحمد أمين
الاسلام يتحدى	لوحيد الدين خان
حاضر العالم الاسلامى	للامير شكيب ارسلان
مجلة المنار	لمحمد رشيد رضا
محاضرات الموسم الثقافى	سوريا

ثانيا : المراجع الأجنبية

Memoire Sur le contact des Races Page 16.



فهرس الموضوعات



إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة : الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

الكتاب		المؤلف
● الجبل الذي صار سهلا		الأستاذ أحمد قنديل
● من ذكريات مسافر		الأستاذ محمد عمر توفيق
● عهد الصبا في البادية		الأستاذ عزيز ضياء
● التنمية قضية		الدكتور محمود محمد مسفر
● قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا		الدكتور سليمان محمد الغنام
● الظمأ	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
● الدوامة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
● غدا أنسى	(قصة طويلة)	الدكتورة أمل محمد شطا
● موضوعات اقتصادية معاصرة		الدكتور علي طلال الجهني
● أزمة الطاقة إلى أين ؟		الدكتور عبد العزيز حسين الصويغ
● نحو تربية إسلامية		الأستاذ أحمد محمد جمال
● إلى ابنتي شيرين		الأستاذ حمزة شحاتة
● رفات عقل		الأستاذ حمزة شحاتة
● شرح قصيدة البردة		الدكتور محمود حسن زيني
● عواطف إنسانية	(شعر)	الدكتورة مريم البغدادي
● تاريخ عمارة المسجد الحرام		الشيخ حسين با سلامة
● وقفة		الدكتور عبد الله حسين با سلامة
● خالتي كدرجان	(مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد السباعي
● افكار بلا زمن		الأستاذ عبد الله الحصين
● علم إدارة الأفراد		الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
● الابحار في ليل الشجن	(شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
● طه حسين والشيخان		الأستاذ محمد عمر توفيق
● التنمية وجها لوجه		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
● الحضارة تحد		الدكتور محمود محمد مسفر
● عبير الذكريات	(شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
● لحظة ضعف	(قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
● الرجولة عماد الخلق الفاضل		الأستاذ حمزة شحاتة
● ثمرات قلم		الأستاذ محمد حسين زيدان
● بائع التبغ	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
● اعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة		الأستاذ محمد علي مغربي
● النجم الفريد	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
● مكانك تحمدي		الأستاذ أحمد محمد جمال
● قال وقلت		الأستاذ أحمد السباعي
● نبض ...		الأستاذ عبد الله جفري
● نبت الأرض		الدكتورة فاتنة أمين شاكر
● السعد وعد	(مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
● قصص من سومرست موم	(مجموعة قصص مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء

الكتاب		المؤلف
● عن هذا وذاك		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
● الأصداف	(شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
● الأمثال الشعبية في مدن الحجاز		الأستاذ أحمد السباعي
● افكار تربوية		الدكتور إبراهيم عباس نتو
● فلسفة المجانين		الأستاذ سعد البواردي
● خدعتني بحبها	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله بوقس
● نقر العصافير	(شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
● التاريخ العربي وبدايته		الأستاذ أمين مدني
● المجاز بين اليمامة والحجاز		الأستاذ عبد الله بن خميس
●تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها		الشيخ حسين عبد الله با سلامة
● خواطر جريئة		الشيخ حسن عبد الله ال الشيخ
● السنيورة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
● رسائل إلى ابن بطوطة	(شعر)	الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
● جسور الى القمة		الأستاذ عزيز ضياء
● تأملات في دروب الحق والباطل		الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
● الحمى	(شعر)	الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
● قضايا ومشكلات لغوية		الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار
● ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز		الأستاذ محمد على مغربي
● زيد الخير		الأستاذ عبد العزيز الرفاعي
● الشوق اليك	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين سراج
● كلمة ونصف		الأستاذ محمد حسين زيدان
● أصداء قلم		الأستاذ محمود عارف
● قضايا سياسية معاصرة		الدكتور فؤاد عبد السلام الفارسي
● نشأة وتطور الاذاعة في المجتمع السعودي		الأستاذ بدر أحمد كريم
● الاعلام موقف		الدكتور محمود محمد سفر
● الجنس الناعم في ظل الاسلام		الشيخ سعيد عبد العزيز الجندول
● ألحان مغترب	(شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري

تحت الطبع :

الكتاب		المؤلف
● قراءات في التربية وعلم النفس		الأستاذ فخري حسين عزي
● إليها	(شعر)	الأستاذ حسين سراج
● حتى لا نفقد الذاكرة		الأستاذ سعد البواردي
● غرام ولادة	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين سراج
● أحاديث		الدكتور عبد الرحمن بن حسن النفيسة
● نقاد من الغرب		الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
● شيء من حصاد		الأستاذ حامد مطاوع
● الاعمال الشعرية لطاهر زمخشري		الأستاذ طاهر زمخشري
● تاريخ القضاء في المملكة العربية السعودية		الأستاذ حسن عبد الله ال الشيخ
● معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان		الشيخ محمد بن أحمد بن عيسى العقيلي
● الاسلام في نظر اعلام الغرب		الشيخ حسين عبد الله با سلامة
● قصص من طاغور	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
● ايامي ..		الأستاذ أحمد السباعي
● ماما زبيدة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عزيز ضياء
● مدارسنا والتربية		الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
● دوائر في دفتر الزمن	(مجموعة قصصية)	الأستاذ سباعي عثمان
● من حديث الكتب	(ثلاثة أجزاء)	الأستاذ محمد سعيد العامودي
● الموزون والمخزون		الشيخ أبو تراب الظاهري

- محاضرة في اسبوع الشيخ محمد إبن عبد الوهاب — الشيخ محمد بن أحمد العقيلي
- ديوان السلطانيين — الشيخ محمد بن أحمد العقيلي
- عام ١٩٨٤ لجورج أورويل (ترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- مشواري مع الكلمة — الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
- وجيز النقد عند العرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
- لن تلحد — الأستاذ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري
- هكذا علمني ورد زورث — الأستاذ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري
- وحي الصحراء — الأستاذ عبد الله بلخير، الأستاذ محمد سعيد المقصود
- لجام الأقلام — الشيخ أبو تراب الظاهري

سلسلة :

الكتاب الجامعي

صدر منها :

- الادارة دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الادارية — الدكتور مدني عبد القادر علاقي
- الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الانجليزية) — الدكتور فؤاد زهران، الدكتور عدنان جمجوم، الدكتور محمد عيد
- النمو من الطفولة إلى المراهقة — الدكتور محمد جميل منصور، الدكتور فاروق سيد عبد السلام
- الحضارة الاسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا — الدكتور عبد المنعم رسلان
- النفط العربي وصناعة تكريره — الدكتور أحمد رمضان شقيلة
- الملامح الجغرافية لدروب الحجيج — الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
- علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية) — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- مبادئ القانون لرجال الأعمال — الدكتور محمد إبراهيم أبو العينين
- الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية — الأستاذ هاشم عبده هاشم
- مشكلات الطفولة — الدكتور محمد جميل منصور
- شعراء التروبادور (ترجمة) — الدكتورة مريم البغدادي
- الفكر التربوي في رعاية الموهوبين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- النظرية النسبية — الدكتور عبد الرحمن فكري، الدكتور محمد عبد الهادي كامل
- أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الانجليزية) — الدكتور أمين عبد الله سراج، الدكتور سراج مصطفى زقزوق
- المدخل في دراسة الأدب — الدكتورة مريم البغدادي

تحت الطبع :

- الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوربية) — الدكتور عبد الوهاب على الحكمي
- هندسة النظام الكوني في القرآن — الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر
- الرعاية التربوية للمكفوفين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- تاريخ طب الاطفال عند العرب — الدكتور محمود الحاج قاسم



صدر منها :

حارس الفندق القديم	(مجموعة قصصية)	الأستاذ صالح ابراهيم
دراسة نقدية لفكر زكي مبارك	(باللغة الانجليزية)	الدكتور محمود الشهابي
التخلف الاملائي		الأستاذة نوال عبد المنعم قاضي
ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية	(باللغة العربية)	إعداد إدارة النشر
ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية	(باللغة الانجليزية)	
تسالي	(من الشعر الشعبي)	الدكتور حسن يوسف نصيف
مجلة الأحكام الشرعية	(دراسة وتحقيق)	الشيخ أحمد بن عبد الله القاري الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان الدكتور محمد إبراهيم أحمد على
النفس الانسانية في القرآن الكريم		الأستاذ إبراهيم سرسيق
خطوط وكلمات	(رسوم كاريكاتورية)	الأستاذ علي الخرجي
واقع التعليم في المملكة العربية السعودية	(باللغة الانجليزية)	الدكتور عبد الله محمد الزيد
صحة العائلة في بلد عربي متطور	(باللغة الانجليزية)	الدكتور زهير أحمد السباعي
مساء يوم في آذار	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد منصور الشقحاء
النبش في جرح قديم	(مجموعة قصصية)	الأستاذ السيد عبد الرؤوف
الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الاسلام		الدكتور محمد أمين ساعاتي
الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك		الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
رعب على ضفاف بحيرة جنيف		الأستاذ شكيب الأموي
العقل لا يكفي	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد على الشيخ
أيام مبعثرة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ فؤاد عنقاوي
مواسم الشمس المقبلة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي قدس
ماذا تعرف عن الأمراض؟		الدكتور إسماعيل الهلباوي
جهاز الكلية الصناعية		الدكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر
القرآن .. وبناء الانسان		الأستاذ صلاح البكري
أدباؤنا في سيرهم الذاتية		الأستاذ على بركات

تحت الطبع :

الموت والابتسامة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله أحمد با قازي
رحلة الربيع		الأستاذ فؤاد شاكر
الوحدة الموضوعية في سورة يوسف		الدكتور حسن محمد با جودة
الزمن الذي مضى		الأستاذ صالح إبراهيم
الأسرة القرشية .. أعيان مكة المحمية		الأستاذ أبوهشام عبد الله عباس بن صديق
البحث عن بداية	(مجموعة قصصية)	الأستاذ جواد حيداوي
وللخوف عيون	(مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
الحجاز واليمن في العصر الأيوبي		الدكتور جميل حرب محمود حسين
ملامح وأفكار مضيئة		الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
أضواء على نظام الأسرة الاسلام		الدكتورة سعاد إبراهيم صالح

رسائل جامعية

صدر منها :

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزي
- العثمانيون والامام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
- الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور بن عبد العزيز ال سعود
- الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- القصة في ادب الجاحظ — الأستاذ عبد الله با قازي

تحت الطبع :

- نظام الحسبة في العراق .. حتى عصر المامون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- افتراءات فليب حتى .. وبروكلمان على التاريخ الاسلامي — الأستاذ عبد الكريم علي باز
- الامكانيات النووية للعرب وإسرائيل — الأستاذ صدقة يحيى فاضل مستعجل
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبد الحى رضوان
- دور المياه الجوفية في مشروعات الرى والصرف بمنطقة الاحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية) — الدكتور فايز عبد الحميد طيب
- دراسة اثنو غرافية لمنطقة الاحساء (باللغة الانجليزية) — الدكتور فايز عبد الحميد طيب
- الخلافة العباسية وعصر إمرة الامراء — الأستاذة ناريمان صادق الألشي
- الجانب التطبيقي في التربية الاسلامية — الأستاذة ليلى عبد الرشيد حسن عطار
- دراسة تحليلية حول النظرية التربوية الاسلامية — الأستاذة امال حمزة المرزوقي
- الادارة الجامعية دراسة مقارنة بين جامعة القاهرة وجامعة الملك عبد العزيز — الأستاذة عواطف أمين يوسف
- اساليب التربية المعاصرة في ضوء الاسلام — الأستاذة فتحية عمر رفاعي الحلواني

كتاب الناشئين

وطني الحبيب

صدر منها :

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
- الديك المغرور الفلاح وحماره — الأستاذه فريده محمد علي فارسي

تحت الطبع :

- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
- حكايات للأطفال — الأستاذ عزيز ضياء
- قصص للأطفال — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي

كتاب الأطفال

لكل حيوان قصة ـ الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

صدر منها :

- القرد ..
- الضب
- الثعلب
- الكلب
- الغراب
- الأرنب
- السلحفاء
- الجمل
- الذئب
- الأسد
- البغل
- الفأر ..
- الحمار الأهلي
- الفراشة
- الخروف
- الفرس
- الدجاج
- البط
- الغزال
- الحمار الوحشي
- الببغاء
- الوعل
- الجاموس
- الحمامة

- بطوط وكتكت
- النخلة الطيبة
- السمكات الثلاث
- الصرصور والنملة

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English By Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.
  By F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED
- Zaki Mubarak: A Critical Study.
  By Dr. Mahmud Al Shihabi
- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan
- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.
- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai
- Diseases of Ear, Nose and Throat
  Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk
- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By Dr. Baha Bin Hussein Azzee
- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who's Who in Saudi Arabia

دار عكاظ للطباعة والنشر ـ جدة